قاسم توفيق

نزف الطائر الصغير

رواية

منشورات ضفاف
Editions Difaf

مكتبة كل شيء

نزف الطائر الصغير

طبع في لبنان

نزف الطائر الصغير

رواية

قاسم توفيق

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

مكتبة كل شيء

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-02-1525-2

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

e-mail: info@kul-shee.com
www.kul-shee.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

الإهداء

إلى زياد سعيد، لأنّكَ كُنتَ مثلي، غبيّاً.

قاسم توفيق

(ذَريني أُطوّفْ في البلاد، لعلّني أُخلّيك، أو أُغنيك عن سوء محْضري)

"عروة ابن الورد"

(إنَّ الحكمة هي النَّظر في الأشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان)

"ابن رشد"

(حتىٰ لا يتعبكَ فراق امرأة عشقتها في يومٍ ما، تذكَّر أنكَ لم تخسر شيئًا غير الوهم بأنَّها كانت تحبك، لأنَّ مَن يحب لا ينسلخ عن وجدان حبيبه إلا بالموت)

"قاسم توفيق"

الجزء الأول

التجلّي

الخيانةُ العُظمى

تفكَّكَ الاتحاد السوفييتي رسميّاً في 25 كـــانون الأول 1991. في ذلك اليوم كانت أمي تعاني مِن آلام المخاض منذ ساعات الصَّـــباح الباكر، ولم يكن أبـــي يُظهر أيّ بادرة للتَّعاطف مع هذه التي يوحي تلوّيها وتقلُّصات وجهها بأنَّ في داخلها شيئاً ما يتململ ويسبِّب لهـــا تشنُّجات مُوَقَّتة، وأوجاع في قاع بطنها تُشعرها بأنّ ثمَّة بالوناً انتفخ فيها يوشك على الانفجار. كنتُ أنا تجربة أبـــي وأمي الثالثة بعـــد تجربتين ناجحتين أحضرا فيهما إلى العالم أختي الكبرى "رشا" وأخي الذي سوف يصبح بعد ساعات الأوسط "رائد".

في الوقت الذي كان يُشهَر فيه انهيار جزء كبير من العالم كنتُ التَّجربة الثالثة. أنا هذا الكائن غير المرحَّب به مِن أحـــد، والـــذي لم يحرِّك صَخَبُهُ، وضيقُهُ من المكان الذي طالت إقامته فيه، ولا مُعانـــاة أمِّهِ، الرَّجلَ الذي كان يجلس بلا اكتراث مدَّعياً الانشغال بعمل شيءٍ ما.

لم يُستفزّ أبـــي لشعوري بالملل، ولا لرغبتي في تجربة عالم جديد غير هذا الذي أقبع فيه منذ زمن. لن تكون مسألة سهلة أن يشـــغله أمري؛ لأنّي لم أكن أُثقل على أحشائه، ولا كـــان صـــوتي يكســـر هدوءه، ولم يبلِّله بحر السوائل الذي أعوم فيه.

لم يكن ليفهم بأني قد حزمتُ أوردَتي وأضلُعي وأقعيتُ على مؤخّرتي مثل عدّاء المسافات القصيرة على بوّابة الدُّخول إلى الدُّنيا. كان يتجاهل رفضنا أنا وأمي للدَّوْر السَّلبي الذي يلعبه بهذه الواقعة، ولا انتَبَهَ لإعلاني الصّارخ بأنّي قادم، لقد صرختُ عليه دون أن أولي مسألة احترام الكبير والأب الأخلاقيّات اللازمة لذلك:

هيه هيه، انتبه، أنا هنا، أتعَبَني الدقّ بقدميّ على بابكم، هيه... أنا قادم، فخذوني.

لم يسمع صراخي، ولم تستفزّه آهات وأوجاع أمي، ولا تململُها في البحث عن اللاشيء لتتلهّى به، وتخفِّف عن نفسها الآلام المبرحة التي تعانيها.

باءت محاولاتُنا بالفشل، ولم نقدر على إقناعه بأن يترك ما يتلهّى به، وأن يُبادر لمواساة زوجته الحبيبة التي كانت تطوف أرجاء البيت متلوِّية تشدُّ على خصرها وكأنَّها تسعى لدفعي بعيداً عنها، ولأنْ تُلقي بي على الأرض دون أن تشغل بالها بما سوف تؤول له حالتي إن سقطْتُ، وارتَطَمَ رأسي بالبلاط وتهشَّمَ في اليوم الأوّل لي على الدُّنيا. لم يكن يشغلها غير أمرٍ واحدٍ، أن تتخلَّص من هذا الألم القاسي الذي تعانيه، حتى لو كان على حساب تهشيم رأسي.

كان قدوم الرئيس السوفييتي ميخائيل غورباتشوف لسدّة الحكم، وخططه الواعدة بإعادة البناء، وخفْض التوتُّر السوفييتي-الأمريكي، قد مهَّد الطريق إلى الانهيار السلميّ نوعاً ما لهذا الكيان، بعد أن كان يُعرَف بأنه القطب الثاني الذي يحفظ توازن كرتنا الأرضيّة؛ هذا الكوكب الصغير الجميل.

انهيار أمي الذي كان يزرع الرُّعب في عيون رشا ورائد لم يكن يعني لأبـــي شيئاً، فهو قد خَبِرَ هذه التجربة مرّتين قبل الآن، كانت مدلَّلته أمي تخدعه وتتلاعب به فيهما حسبما راقَ له أن يرى المسألة، وكأنه كان يريد أنْ يردَّها لها.

في التجربة الأولى وبطلتها "البنت رشا" الـــتي تكـــبرني بســـبع سنوات، كانت أوجاعه أقسى من أوجاع زوجته، تملَّكـــهُ الفـــزع، وصار يتقافز في البيت مثل كرة مطّاطة، أو مثل فأر مُطارَد على غير هدى. تناوَلَ حقيبة ملابس المولودة القادمة التي لم تكُن معنيّـــة بمـــا يدور مِن حولها آنذاك، فهي وقتها على العكس منّي كانت تعرف أنَّ أوان دخولها إلى الدنيا لم يَحِن بعد، وأنه ما يزال لديها بضـــعة أيـــام لوداع الرَّحم الدافئ الذي تسكنه مرتاحة.

مِن معرفتي بأختي يمكن أنْ أفترض أنَّها كانـــت تعـــرف كـــم يتلهَّف الاثنان لحضورها، على عكس ما يحدث معي، لهذا كانـــت تتمنَّع وتمضي في الدَّلال وهي ترى مدى الاشتياق لهـــا. في تجربـــة "رشا" ورغم كل محاولات أبـــي وأمي الحسابيّة لتجنُّـــب مســـألة الحمل في أوّل سنتين من الزواج؛ لقضاء شهر عسل يســـتمرّ أربعـــة وعشرين شهراً، إلا أنّ حماستهما وشبابهما والإثـــارة الـــتي كانـــت تستلبهما معاً أعمتهُما عن حركاتٍ كانا يمارسانها في الفراش، وعـــن وجود كائنٍ لا يُرى بالعين المُجرَّدة تَسَحَّبَ بحركةٍ شـــهابيّةٍ وحـــطَّ داخل بويضة كانت مهيَّأةً لاستقبالِه.

المؤامرة التي قَضَت على خطّة شهر عسلٍ يدومُ لسنتين كانـــت مُحكمة، فالكائن المجهريّ استطاع الإفلات والسباحة إلى الحانة التي كانت متهيئةً لاستقبالِه، لم تقاوِم غزوَهُ لها، بل احتضنته، وأحكَمَت

حصارها الولهان عليه، فحطَّ رِحالهُ، وقرَّر أن لا يبرح موطنهُ هذا إلا بعد تسعة شهور. نسي الزَّوجان فكرة شهر عسلهما الطويل، وفرحا بصنعتهما اللطيفة.

في تلك الأيام، وقبل ميلاد "رشا"، كان أبي يتخبَّط بلا وعْي، يلوم نفسهُ وغريزتهُ البهائميّة التي خلَّت حبيبته الصغيرة تعاني كلّ هذه الأوجاع. حاول أن يخفِّف من آلامها بكلمات لطيفة حلوة مُهدِّئة، وبمَسْح عَرَقها الذي يغطّي وجهها ويبلِّل شعرها. أسندها على كتفه وأسرع بها إلى المستشفى من غير أن يدعها تلامس الأرض بقدميها. أجلَسَها في سيارته، وألقى على المقعد الخلفي بحقيبةٍ تحتوى ملابس أختي التي لم يعرفا على أيّ هيئة ستكون، أشعل أضواء السيارة في وضح النهار، و لم يرفع قبضته عن البوق إلا لثوانٍ كان يشدُّ بها على يد أمي مُشجِّعاً. أمام بوّابة مستشفى الأمل للتوليد تخلّى عن أدبه الذي يتحلّى به، وصرخ على الممرضين بأن يسرعوا لنجدة زوجته.

طَلَبُ النَّجدةِ للزوجة وهلعهُ عليها سُخريةٌ حلوة، فالرجل يريد مِن الآخرين أن ينقذوا زوجته مِن فعلته هو.

طلقٌ كاذب.

هذا ما قاله الطبيب صديق العائلة الذي استُدْعي على عجل. دخل المستشفى راكضاً وقد تخلّى عن أناقته التي كانت تشدُّ النساء إليه، فقد كانت ربطة عنقه ساحلة عن موضعها، وكان نصف قميصه فالتاً عن خصره.

بعد ستة أيام كاملة، وثلاث رحلات خائبة إلى المستشفى، وثلاث كذبات طَلْق واجههما الطبيب بها دون حَرَج، قرَّرَت

الصغيرة أخيراً أن تدخل إلى الدنيا، وأن تبارح وطنها الذي عاشت فيه تسعة شهور مكرَّمة مُنعمة.

مع أخي الأكبر "رائد"، وبعد ثلاث سنين، كانت ذاكرة أبي ما تزال غائمة، صدَّقَ وجع أمي مرَّة واحدة وأسرع بها إلى المستشفى، وعاد خائباً دون أن يكون معه القادم الجديد، لذلك فهو لم يصدِّق وجع المرَّة الثانية إلا عندما رأى ماءً أبيض نقياً يسحلُ من بين فخذي أمي.

يوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول سنة ألف وتسعماية وواحد وتسعين، وكان يصادف ذلك اليوم عيد الميلاد المجيد للسيد المسيح عيسى حسب تقويم مسيحيّي الغرب، أُعلن رسميّاً عن انهيار الاتحاد السوفييتي. كان أبي قد أنهى إفطاره الذي أعدَّه بلا مساعدة من أمي التي تحرص عادةً على إعداد إفطاره، وتضعه على طاولة المطبخ بانتظار أن ينتهي من طقوسه الصباحيّة المعتادة من حلاقة ذقنه، والاستحمام.، وراح يتابع الأخبار التي يبثها التلفزيون، وفي الجريدة التي كانت توضع في صندوق معلّق على بوّابة بيتنا.

في صباح ذلك اليوم لم تقدر أمي على التحرُّك من موضعها، فقد كنتُ أهِمُّ بمغادرة أرضها إلى أرضٍ جديدة مختلفة، كنتُ أهيّأ لدخول بيتٍ أكبر اسمه الدنيا، وكان أبي منشغلاً بمُتابعة ما يدور في العالم بعد أن التَهَمَ طعام إفطاره، وهو يتسحَّب بطرف عينه باحثاً عن العلامة التي سوف تبلِّل ملابس أمي والبلاط، حتى تفجَّر الماءُ الأبيض النقيّ وأضحى حضوري أمراً واقعاً لا مفرّ منه.

قبل تسعة أشهر باءت محاولات أمي الصبيّة الحلوة البريئة في طردي من جوّاها بالفشل، فقد اكتَمَلَ عدد الأفراد المُخَطَّط له

ليسكنوا هذا البيت؛ زوج وزوجة وولدان مهما كان جنسهما. لحُسنِ حظّهما، وحتى لا يفكّرا بمولودٍ ثالثٍ من أجل التّنويع فقد أنجبا ولداً وبنتاً، ولم يعُد هناك ضرورة لأيّ قادمٍ إضافيٍّ يكتظُّ المنزل به، ويتسبَّب في خلل للمنظومة النموذجيّة لشكل العائلة المثالي.

لقد هُزما للمرّة الثانية بعد أن فشلَت خطط شهر عسلهما اللامحدود عندما هزمتهُما "رشا"، لقد وجد الكائن المجهري الذي هو أنا في رحم أمي وطناً يحتويه ويجعله آمناً، زاحم على هذه البقعة المتناهية الضآلة من الكون ملايين الكائنات الأخرى التي تشبهه، راوغ، وقاتل، وتشيطن حتى غلبهم كلهم على كثرة عددهم الذي لا يُحصى. نحّاهم بعيداً، بدعم ومؤازرة من البويضة التي صارت تردُّ المعتدين الذين كانوا يتكسّرون على جدارها، كانت تقاتل باستماتة دفاعاً عن غنيمتها لأنه لو حدث أن هُزمت ولم تحمِ غازيها الذي حطّ فيها لانسَفَكَ دمها وانتهت.

أخيراً، غنمتُ أنا المجهريّ هذا البيت الدافئ، سكنتُ فيه وحيداً غير آبهٍ بالوحدة ولا بالعزلة، على العكس من ذلك فقد كنت فرحاً بوحدتي وانعزالي عن العالم الذي خرجتُ منه، منتصراً في حربٍ أشدّ ضراوة أعلنتها أمي ضدّي بتنسيق مع زوجها. لقد دفعاني لأن أخوض غمار حربٍ ثانية جديدة ضدّهما بعد أن انتصرتُ على ملايين الحيوانات المنويّة واستعمرتُ بويضتها وصرتُ أشعر براحة المحارب.

بدأت أمي معاركها ضدّي منفردة وكأنها كانت تأمل بالقضاء عليّ بسهولة، اختَبَرَت الأسلحة التقليديّة التي تُستعمل في مثل هذا النوع من المعارك، بأنْ واظَبَت على القفز عن السرير بكلّ ثقلها، ثم

أخذت تلكم بطنها بقوّة، بعدها لجأت لكرع أكثر من زجاجة من الخِرْوِع المقزِّز.

أعيَيْتُها، وبقيتُ قابعاً في رحمها أرفض أن أغادره، الأمر الذي دفعها لأن تلتجئ إلى زوجها لطلب العون والمساعدة. أغْوَتهُ بأن خلَّتهُ يقسو عليها في السرير، ولأن يمارس ساديَّته بتعذيب جسدها بلا رحمة. كلّ المُحاولات، والمؤامرات لم تنجح في هزيمتي، أنا الكائن المستوطن في حضنٍ خرافيّ الجمال، وإرغامي على ترك بقعة الأرض التي احتللتُها، وتربَّعتُ فيها منتشياً فرِحاً بِما تخبِّئه من شفافيّة ورِقّةً.

قبيل انهيار الاتحاد السوفييتي بقليل قام عدد من كبار المسؤولين السوفييت بمحاولة الانقلاب على سلطة غورباتشوف؛ بهدف إعادة الاتحاد السوفييتي نحو النظام الشمولي المركزي، والتخلُّص من البريسترويكا التي أقامها، والتي تبتعد عن روح النظام الشيوعي، لكنهم فشلوا.

لا أحد يدري إن كان أبي قد شاهد الماء الأبيض الذي بدأ يسحّ من بين فخذي أمي، ينساب منها ليُغرق السجادة العجميّة الباهظة الثمن، ليُعلن بأني قادم، أو أنه كان يتعجَّل التخلُّص من هذه التجربة التي أقسَمَ أن تكون الأخيرة عندما أشار على أمي أن تُحضِر حقيبة ملابسها وملابسي، وأن تسبقه إلى السيارة. تباطأ في المَسير ليُكمِلَ سماع الخبر الذي كان مشدوداً له إلى أنْ انتَهَت المذيعة من تلاوته وملامحها تشي بأنها لم تفهم حرفاً ممّا تقرأه.

ما حاكَهُ غورباتشوف مِن خيانةٍ لوطنهِ حطَّ بضباب الانقسام الداخلي في الجيش الأحمر السوفييتي، وقد أوصل بوريس يلتسين على ظهر دبّابة إلى سدّة الحكم في روسيا الاتحاديّة. ومع بزوغ نجم هذا

الرجل الضَّخم يلتسين الذي يُعاني قلبُهُ كثيراً في تَدويرِ ساقيَةِ دمِهِ كي يَصِلَ إلى مليارات الخلايا التي تشكِّلُه، وقَّع رؤساء الجمهوريات السوفييتيّة الخمس عشرة على وثيقة سقوط الاتحاد السوفييتي. وبانهيار الاتحاد السوفييتي أُسدِل السِّتار على أول تجربة لنظام اشتراكي يقوم على أفكار كارل ماركس وفريدريك إنجلز وفلاديمير لينين، واحتفلت الدنيا بالعيد المجيد "الكريسموس"، وجئت أنا إلى الدنيا في الساعة الحادية عشرة وثلاث وخمسين دقيقة، قبل سبع دقائق كاملة من انقضاء هذا اليوم المثير.

***

العيد الذي فوَّتَه أبي للمرّة الأولى كان عيد ميلادي الثامن. لِمَن لَمْ يعرفونا ويتعرَّفوا على خصوصيّة حياتنا، فإنّ النظام الذي نعيش فيه يتساوى بالدقة مع أفضل الأنظمة الآليّة وبرامج الكومبيوتر الأكثر تطوُّراً، ما يميِّز شكل ونظام معيشتنا عن هذه الأنظمة أنَّ نظامنا لا يُحدَّث ولا يُطوَّر، فهو ثابت راسخ مثلما رسَمَه أبي وأمي وخطّطا له بتصوُّري قبل أن يأتِيا بنا إلى الدنيا، ولربما من ليلة عرسهما، يمكن أن أتخيَّل أنهما عندما خلعا عنهما ملابس العرس تلك الليلة، تعاونا في إحضار جهاز الكومبيوتر والذي كان عبارة عن شاشة ملحقة بصندوق ضخم، ولوحة مفاتيح، وبدآ في وضع برنامج الحياة التي نعيشها الآن.

على الرّغم من خيباتهما الكثيرة في التّماشي مع نظامهما، إلا أنهما ظلاّ مصمِّميْن على أنّ الحياة لا تمضي إلا مثلما يخطّط لها، تجاهلا العوائق والمؤثرات التي تبرز فجأة ودون مقدّمات أو سابق

إنذار. لم تعلِّمهما تجربة وخطة شهر العسل الحَوْلي الذي أفشله الحيوان المنوي أساس ابنتهما "رشا"، ولا ذاك الحيوان الذي كان أساس تشكُّلي.

فحادثة مثل عدم اجتماعنا في أعيادنا مسألة خارجة عن المألوف، وهجينة عن منظومة حياتنا الدقيقة. أعياد ميلادنا ملمحٌ مهمٌّ لشكل العائلة الذي أتقن أبي وأمي رَسْمَه حتى غدت أكثر أهميّة من الأعياد البشريّة الأخرى. التَّوافُق الذي كان يجمع بين هذين الزوجين في الكثير من شؤون الدنيا والآخرة واعتدنا عليه نحن الأبناء، كان موضع سخرية أو حسد أو استغباء مَن يعرفونا؛ الأهل والأصحاب وحتى الجيران.

أحَبُّ الأعياد إلى قلبي عيد أختي "رشا" الذي يصادف في اليوم الأول من نيسان، الذي يجتمع مع عيد النيروز، والربيع، ميلاد الأرض. أمّا عيد أخي "رائد" العدائي المُشاكس، فقد كان يأتي في شباط، لم يحدث أن احتفلنا به إلا وكانت الأمطار أو الثلوج والعتمة المبكرة هي عنوانه. عيدا أبي وأمي يفصل بينهما شهر وأحد عشر يوماً، أبي هو الأكبر وكان يوم ميلاده الذي يصادف في أيلول يوم الاحتفال الأعظم، فما كنّا نمارسه في ذلك اليوم كان نتاج مجهود يبدأ التخطيط له قبل شهر أو أكثر من موعده، كنت أتحمَّل عبئاً ثقيلاً في هذا العيد، والعيد الذي يليه عيد أمي، لقد كان من أهمّ شروط هذين العيدين أن تكون هديّة كل واحد منّا شيئاً من مدَّخراتنا الشخصيّة، ودون تدخُّل طرفٍ ثانٍ فيه. هذا يعني أنْ أقوم وقبل ذلك بوقت طويل باقتطاع جزء مهمّ مِن مصروفي اليومي، وأن أدّخره لشراء ربطة عنق، أو زجاجة عطر، أو تحفة فنيّة لأقدِّمها عند

بدء مراسم فتح الهدايا والذي يكون في مطعم مُترَف في عمّان، أو في فندق في البحر الميت، أو العقبة، وأحياناً يكون في بيروت أو دمشق.

مثلي كان يفعل أخي "رائد" لكن بنقود أقل، فقد كان يشتري بطاقة مُعايدة أو MUG للقهوة مكتوب عليه HAPPY BIRTEDAY TO THE GREATEST DAD. أو أيّة عبارة تشبهها. أمّا "رشا" فقد كانت تحتفظ بكامل مصروفها إلا قليله الذي تشتري به إطاراً خشبياً، أو مطرَّزة غير مشغولة، أو شمعة تشتغل عليها لأيام لتصير لوحة لإحدى صُوَر أبي، أو رسم لاسمِه أو قاعدة لفأرة الكومبيوتر الذي هو أكثر شيء تلامسه أصابع أبي الحانية طوال العام.

يُعتبر أبي واحداً من أهمّ خبراء الكومبيوتر في الأردن، فقد درس الرياضيات في الجامعة الأردنيّة، وكان يطمح لأن يكون معلِّماً لهذه المادة العصيّة على عقول الطلاب في الأردن حالها حال اللغة الإنجليزيّة آنذاك، كان يحلم بعيشٍ كريم وحياة مريحة بفضل الدُّروس الخصوصيّة التي تدرُّ دخلاً كبيراً. كان يُوصف بأنّ عقله رياضي على عكسي أنا الذي جئتُ مختلفاً عنه وعن أخي.

لاحت لأبي فرصة للعمل في إحدى المؤسَّسات التي بدأت في أوائل ثمانينات القرن العشرين بتحويل عمليّاتها اليدويّة إلى ما أطلقوا عليه آنذاك مصطلح الـ "مثمتة"، الذي تطوَّر وصار يُعرف بعلم الكومبيوتر ويعني تحويل الأعمال الحسابيّة اليدويّة إلى أعمال آليّة.

قد تكون كلمة "مثمتة" مُعرَّبة عن الكلمة الإنجليزيّة MATHEMATICS وهو تخصُّص أبي الذي غيَّر مصير حياته وحياتنا، فبعد أن أتقن استخدام علومه الرياضيّة في الأجهزة

الإلكترونيّة البدائيّة التي كانت تسخدمها المؤسسة التي عمل فيهـــا، وبعد أن اشترك في عدد من الدورات في لنـــدن وروومـــا في علـــم الحاسوب، بدأ اسمه يلمع كواحد من مطبِّقي أنظمة الكومبيـــوتر في الأردن، اجتهد في عمل أنظمة محاسبيّة لعشرات الشركات الصـــغيرة مقابل رواتب مجزية، عوضاً عن الدروس الخصوصيّة التي كان يحلـــم بتعليمها للطلاب الكسالى نظير مبلغ زهيد يســـاعده في تصـــريف شؤون حياته.

كبرت طموحاته، وظلَّ واضعاً لحياته هدفاً واحـــداً؛ وهـــو أن يرتقي للمستوى الذي يؤهِّله للتقدُّم من عائلة أمي الثريّـــة ويطلبـــها للزواج لوضع نهاية لقصة حب تقليديّة استمرّت من سنتهما الدراسيّة الأولى، عندما تقابلا في مطعم الجامعة حيث كانت تدرس هي مـــادة علم الاجتماع.

يوم الخامس والعشرين من شهر كـــانون الأول ســـنة ألـــف وتسعماية وتسعة وتسعين، وقبل ستة أيام من بدء الألفيّة الثانية، اليوم الذي يصادف عيد ميلادي الثامن، كان العالم كلـــه يعـــيش حالـــة فوضى ورُعب حسب تعبير الخبراء من أمثال أبـــي، فقد كان هناك توجُّس عالمي من أن يكون اليوم الأخير من هذه السنة هـــو الموعـــد الذي أنذرت به السماء سكان الأرض بأنه يوم الدينونة، أو القيامة، أو انتهاء العالم.

تعارَفَ المختصّون والمهتمّون والمعنيّون على أنّ يوم القيامة الذي توعّدت به الأديان السماويّة قد تحوّل وصار اسمه الجديد مصـــطلحاً مرمَّزاً بما عُرف بـــِ (Y2K)، والذي يعني ببساطة وبلغـــة الرياضـــة بداية السنة 2000، حيث إنه ومع اقتراب منتصف الليلة الأخـــيرة في

الألفيّة الثانية سوف تُعطَّل أنظمة الكمبيوترعند تبدُّل الجدول الـزَّمني لأكثر من الرقم 2000 في جميع أنحاء العالم، هذا التعطُّل يعني احتمال وقوع كارثة فناء العالم. بَدَت هذه الكارثة حقيقيّة بما فيه الكفاية في الأيام والأسابيع التي سبقت اليوم الأخير من القرن العشرين، فجميع أجهزة الكمبيوتر والتي تُستخدَم في مهام حرجة سوف تنـهار عنـد تحوُّل التاريخ، وقد تتعطَّل برامج التعلُّم البسيطة ووسائل الاتِّصـال، والأنظمة المحاسبيّة لكلّ مَن يستخدم النظام الرقمي سواءً كانت بقّالة في حي وادي سرور في عمّان أو "ناسا" في هيوستن. وقد تـتحطَّم كل الطائرات التي في الجو، وتقطع الكهرباء في كل مناطق العـالم، والأهم من كل ذلك أنه من المحتمل أن تنطلـق الـرؤوس النوويّـة المزروعة في كل بقاع الأرض دون ترخيص لها من زعمـاء العـالم الكبار، لتفني الأرض ومَن عليها، وتَخْرُج الكائنات الإنسانيّة المتمادية في غيِّها كلها مهزومةً.

كل ذلك كان وقوعه مُتوقَّعاً، ما لم يُستدرك خطره قبل فوات الأوان، والأوان هو الدَّقة، أو الرَّنة الأخيرة لكل ساعات العـالم في اليوم الأخير من العام 1999. الاحتمالات والتوقُّعات المُرعبة التي قد تنشأ عن هذه الكارثة التي أجَّجَت المخاوفَ منها الضجّةُ الإعلاميّـة التي صاحبت هذه الفكرة برعاية الإعلام البشري بدءاً من راديو البلد في عمّان، وانتهاء بـِ (CNN) في نيويورك، ممّا ساهم أكثر في إشعال نيران الرُّعب.

لم يكن هناك فرسان لحماية أرضنا وسمائنا غير خبراء الكومبيوتر الذين كان أبـي واحداً منهم، فقد ظلَّ طوال أسابيع ما قبل نهايـة القرن مسافراً خارج الأردن، مشرعاً جهـاز اللابتـوب خاصّـته،

وعشرات البرامج الجديدة والمهيّأة لتلقّي صدمة تبدُّل الزمان بعيداً عن بيتنا الصغير، لكي يحمي البيت الواسع الذي يحمل على ظهره كل الكائنات؛ الأرض.

كنا نفهم أنّ أبي لن يشاركنا الاحتفال بالسنة الجديدة، بعد أن فوَّت للمرّة الأولى في حياته عيداً من أعياد بيتنا؛ عيدي، وكنتُ أنا الخاسر الوحيد من هذه القيامة التي لم تقُم، والتي حَشَت جيوب أبي مثل غيره مِن المتحكِّمين بالعالم بثروات جديدة.

عندما تعود لذاكرتي هذه الحادثة أفكِّر بأني لم أخسر شيئاً مثلما كنتُ أدَّعي أنا الصغير المدلَّل، فقد اشتَغَلَ كل مَن يعيشون معي في محاولة إسعادي وتعويضي عن غياب أبي، والاحتفال، والهدايا، فقد أخذتني أمي إلى الملاهي، وبعدها للعشاء في مطعم برغركنج، واشترت لي مجموعة سيديهات كومبيوتر بعضها للَّعب وأخرى للتعلُّم، وظلَّت طوال الوقت تحاول إخفاء إشفاقها عليّ ممّا حلّ بي في ذكرى ميلادي المجيد، وكنتُ أعاونها بأن أمثِّل دَوْر الحزين والمنكسر، ولقد سَمَحَت لي بأن أنام في الوقت الذي أقرِّر فيه ذلك، وليس على الساعة التاسعة؛ الساعة التي تُطفئ بها الأنوار في غُرَفِنا أنا وأخويّ في أيام الدراسة، كجزء من منظومة الدقة والانضباط.

لم أجِد ما أسلّي به نفسي وأستغلُّ هبة السَّهَر بحريّة التي وهبتها أمي لي غير أن أنبش في الكومبيوتر وأمارس الألعاب التي أحبّها، تنقَّلتُ مِن قاتلٍ يمشي بالشوارع ويقتل كلّ مَن يواجهونه، إلى قائد طائرة حربيّة تقصف المدن وتدمِّر البيوت فوق رؤوس القاطنين بها الذين لا أعرفهم، لأستمتع بفرارهم ومحاولاتهم النَّجاة بأرواحهم مِن رصاصات طائرتي التي لا تُهزم. تحوَّلتُ لمحارب سموراي يقطِّع بسيفه

أعناق وأطراف خصومه، مللتُها كلّها بعد أن أُنهكت مـــن اللـــهاث خلف أعدائي المفتَرَضين. عاد الملل يتملّكني وشعرتُ ببعض النعاس، فميقات نومي المُبرمج أزف، وأخذت عيناي تذبلان باستسلام لأوامر عقلي بأن أنعس. قلّبت أشرطة الكومبيوتر بين يديّ في محاولة أخيرة لاستغلال هامش الحريّة في النوم الذي ظفرتُ به، إلى أنْ لَفَتَ نظري شريطٌ يحتوي عل لعبة معلوماتيّة من الأصناف التي أحبُّهـــا، وأراهـــا تحرِّك عقلي وتحيِّده عن رتابة ما يعتمر في داخله، قرأتُ ما كُتب على الغلاف الذي يحمل صوراً وأسماء أعرف بعضـــها أو سمعـــتُ بهـــا، أدخلتُه في الجهاز وبدأتُ في البحث.

هل ترغب في معرفة يوم ميلادك؟

أعجبتني هذه البداية.

ضغطتُ زرّ YES.

جاءتني رسالة جديدة تطلب منّي كتابة تاريخ ميلادي. فعلتُ، كتبتُ 25 ديسمبر 1991. جاءني الردُّ بالحال، طُبع على شاشة الكومبيوتر:

اليوم الأحد.

أعجبتني الفكرة، لا، أحببتها، يوم الأحد، في العادة تكون الناس في هذا اليوم في بداية الأسبوع منشغلة بأمور الحياة والعمل والدراسة واستكمال المُعاملات المعلَّقة من الأسبوع الماضي. مسألة جميلـــة! في ذلك اليوم المكتظّ كنتُ وقتها في عالم آخر، عالمي الخاص بـــي.

طبعتُ سؤالاً جديداً كان مِن جملة خيارات تشتعل أحرفه على الشاشة:

مشاهير وُلدوا في اليوم ذاته؟

الردّ:

لا أحد.

مشاهير ماتوا في اليوم ذاته؟

الردّ:

لا أحد.

سؤال آخر، أغراني الضوء الذي بَدَت فيه حروفه وكأنَّها لا تريد لي أنْ أترك هذه الصفحة، بعد أن أحسستُ بتململي مِن الخيبات التي لم تضِف لميلادي أيّ جديد. ضغطتُ على مفتاح السؤال:

أحداث مهمّة في اليوم ذاته؟

ظَهَرَت لي عبارة طويلة مليئة بالمعلومات، ما التقطتُه منها:

استفتاء في أوكرانيا للانفصال عن الاتحاد السوفييتي.

الأغلبيّة في الدول السوفييتيّة السابقة توافق بالإجماع على الانفصال.

ميخائيل غورباتشوف يستقيل من منصبه كآخر رئيس للاتحاد السوفييتي.

لم أفهم شيئاً. لو حدث وجاءت الإجابة مثل سابقاتها "لا أحداث مهمّة في هذا التاريخ"، لربّما شعرتُ بقيمة امتلاكي لهذا اليوم، لكن ما حدث بحسب ما فهمتُ أنّ كياناً كبيراً كان على كوكبنا الأرض اسمه "الاتحاد السوفييتي" تفكَّك وانهار مع ميلادي.

علق اسم "الاتحاد السوفييتي" وحَدَث تفكُّكه في رأسي، لقد كان الحَدَث الوحيد الذي نافسني على تملُّك هذا التاريخ، لم يغِب عن خاطري أنّ هذا التاريخ يصادف أيضاً ميلاد المسيح منذ 1991

سنة، لم أشغل ذهني بالتفكير في ميلاد المسيح بعد أن اهتديتُ إلى قناعة بأنَّ هذا الدّين جاء مُغايراً لكل الأديان التي سبقته، وأراد أن يضع حداً لمسلسل الأديان التي جاءت إلى الأرض، وأن يحتكر البشريّة لصالحه، فلم يجد رداً يكون أكثر تأثيراً في عقول الناس، ويضاهي قوّة ديانة اليهود التي كلّم الرب نبيّها، وخصّه بقيمة عظيمة بأن خاطبهُ مُباشرة، وبلا وساطة وحي أو علامة أو أمارة، بل حكى معه وكأنه يرفعه لمقامه، فما كان من نبي المسيحيّة غير أن يحضر الرب جهاراً نهاراً إلى الأرض ليتجسَّد في جسده لا أن يكلمه وحسب.

ما شُغلتُ به هو تاريخ الاتحاد السوفييتي دون أن أتعاطف معه أو أفهم لماذا جاء؟ أو لماذا غاب؟

***

لا أقدر وأنا أقود سيارتي على الطريق الصحراويّة أن أوضِّح لِـ "سارة" التي اتَّصَلَت بي أكثر من مرّة كعادتها كلّ صباح لتطمئن عليّ، ما الذي أُقْدِم على فعله، فأنا لم أكن قادراً على فهم معنى لما يجري لي. أجبتُها بما كان يجول في خاطري، وبقراري في جُملة واحدة:

أشعر بضيق، أرغب بالاختلاء بنفسي.

أمس كان يوماً عاديّاً مثل كل الأيام، غادرتُ البيت الساعة السابعة والنصف، تجاوزتُ أزمة الشوارع الخانقة بمزاحمة السائقين الذين يسيرون حسب القوانين، وصلتُ حيث مكان عملي في البنك، كانت الساعة تقارب الثامنة، ختمتُ بطاقة الدَّوام قبل ثوانٍ من

الثامنة، وصلتُ إلى مكتبـــي بعد نصف ساعة قضيتُها في السَّلام على الزملاء، وفي مُعاكسة الزميلات الجميلات، جلستُ خلف المكتـــب، فتحتُ جهاز الكومبيوتر، وابتدأتُ يومي.

في تمام الساعة الثالثة والنصف ختمتُ بطاقة المغادرة، ورجعتُ إلى البيت. كانت "رشا" وصغيرتها الحلوة "ريتا" في ضيافتنا، اجتَمَعَت العائلة على المائدة ناقصة شقيقي "رائد" الذي يعمل في دبيّ ويقـــيم هناك هو وزوجته الإنجليزيّة وولداه اللذان لا يحملان أيّـــة ملامـــح عربيّة.

بعد الغداء لعبتُ مع الصغيرة "ريتا"، وتركتُها تعبـــث بجهـــاز الكومبيوتر الخاص بـــي، وموبايلي الذي أسقطَتْه على الأرض أكثر من مرّة، تركتُهما مع أمي وغادرتُ البيت لحظة مغادرة أبـــي، مثل العادة كان لكلّ منّا طريقه، هو إلى مكتبه وأنا لملاقاة "سارة" في بار الروفرز الذي تدخله إرضاءً لي، أحتسي البيرة وتحتسي هي الكولا.

أحبُّ شُرب البيرة وهي ترضى عمّا أحـــبّ. لا تكـــن معنيّـــة بالطلب منّي أن أمتنع عن شرب الخمر، رغم ايمانها بأنَّهـــا محرَّمـــة. تنحدر "سارة" من أسرة لا يشرب أحدٌ فيها الخمر، تأمل بأن تردَعَني عن سلوكي الناشز الوحيد هذا بعد الزواج. كنتُ أراهنـــها بـــأني سوف أجعلها تدمن على الخمر.

قصة حُبِّنا تجاوز عمرها العشر سنوات، فقد كانت زميلة صفّي ومقعدي في المدرسة منذ الصف الثامن. أسرتها المُحافظـــة والمتديِّنـــة والمعروفة في الوسط التجاري الأردني لم تكُن تمانع في أنْ تدرُس ابنتها في مدرسة أجنبيّة مختلطة، فالدِّراسة في الأردن لم تعُد غير ماكينـــات حشو للمعلومات في رؤوس الطلاب، على عكس المدارس الأجنبيّـــة

التي تكاثرت مثل الفطر، والتي يُشاع بأنَّها تعطي للطالب العلم، والتربية الصحيحة. كنّا ندرس أنا وسارة في أفضل هذه المدارس سُمْعةً وأعلاها رسوماً.

رهانُ أهل "سارة" على التربية التي نَشأتُ عليها كَوْني ابناً لعائلة عريقة، وتتحلّى بسمعة حسنة، هو ما جعلهم يطمئنّون لما يسمّونه صداقتي مع ابنتهم، فما يفترضونه بما قد تربَّت عليه مِن قِيَم ومفاهيم لشرف البنت وقدسيّته يكفيهم لأن يظلوا مستريحين، وضمائرهم مطمئنّة تجاه هذه العلاقة، هذا ما أفهمتني إياه "سارة"، وهذا ما تحوَّل ليصبح سلوكاً عندي، فهي لا تعرف شكل غرفتي ولا سريري ولا لون بيجامتي، ولا فرشاة أسناني رغم تردُّدها على بيتنا بصورة متكرِّرة. لم يسبق لي أنْ حكيتُ لها عن عاداتي السريّة، مع أنّنا كنّا منكشفين على بعضنا بعض لحدٍّ يشبه انكشاف أجسادنا تحت ملابسنا.

لم يحدث أن قبَّلتها، أو ضممتها إلى صدري إلا في مناسبات قليلة جداً، كانت تحدث مرّة واحدة أو مرّتين في السنة، يوم ميلادي واحدة منها، أضمُّها خطفاً وأنأى عنها خطفاً.

نعشق بعضنا بعضاً دون أن نعرف شكل هذا العشق، غير أنه شيء يقف تحت مظلة الانتظار للحافلة التي تقلُّه إلى الزواج. هذا العشق حرمني من معرفة كيف تكون النساء، وكيف يُمارَس الجنس؟ وهل يشبه أفلام البورنو التي أدمنتُ مشاهدتها على النت؟ منذ لحظة بلوغي صرتُ ممارساً محترفاً للعادة السريّة، لم يحدث ولا مرّة واحدة أن كانت "سارة" الجميلة شريكة لي في هذه الممارسة وفي خيالي.

تودَّعنا أمس عند سيارتها، ومضيتُ لاستكمال برنامجي اليـــومي العادي إلى مكان تجمُّع أصدقائي المعتاد؛ المقهى. هناك التقيتُ بشـــلّة الأصحاب، لعبنا الورق، أحرقنا رؤوس أراجيل عديـــدة، احتســـينا أكثر من شراب، تودّعنا قبل انتصاف الليل على أن نلتقي في الليلـــة القادمة. رجعتُ إلى البيت الذي كان نائماً، توجَّهـــتُ إلى غـــرفتي، بدَّلتُ ملابسي وغسلتُ أسناني واستلقيتُ على السرير.

لم أفلح بالانقضاض على النعاس الذي كنتُ خبيراً في اقتناصه. بالعادة إن وضعتُ رأسي على الوسادة يكون قد حُسم أمر يـــومي. أبتدئ الغوص في أعماق النوم رويداً رويداً، أغيب عن الوجود بكلّ مداركي حتى أني لا أحلم، أظلّ قابعاً في قعر بحر النوم حتى تنـــبِّهني موسيقى الموبايل التي تبدأ هادئة وكأنّها يد أمي التي تمسح عليّ بحنان تدعوني لأن أصحو. لم يصدف أن تركتُ صوت الموسيقى المنبعثـــة من الموبايل بالعلوّ أكثر من درجة أو درجـــتين، أصـــحو، أُســـكِت صوت الموسيقى بكبسة زرّ، أهبط عن السرير معلناً ابتداء يوم جديد.

لم يمضِ يومي كعادته، فقد تكسَّر في روتينه شيء ما؛ النوم.

لم يجْدِ قراري الحاسم نفعاً، فشلتُ في المحاولة الأولى، يصـــدف أن يحدث ذلك معي مرّة أو مرّتين في السنة أكون حينها قد عُـــدتُ إلى البيت ثملاً من سهرة شبابيّة بريئة، أو مشغولاً بالتفكير في قـــرضٍ كبيرٍ عملتُ طوال اليوم على دراسته في البنك.

جرَّبتُ من جديد أن أنام، اتخذتُ قراري مرّة ثانية، لا جدوى. أُصِبتُ بما يشبه الفزع، فكلما صمَّمتُ على أن أنام أصير أكثر تنبُّهاً. بحثتُ في رأسي الملقى على الوسادة عن وسيلة من تلك التي تعلّمناها للخروج من هذا المأزق، عددتُ خرافي، رجعتُ من الرقم المائـــة إلى

الواحد، مسَّدتُ فوق جبيني، علّقتُ طرف لساني على واحدة من أسناني وعددتُ للثمانية، كرَّرتُ محاولتي الأخيرة حتى بلغتُ حافة اليأس، صار لا بدّ أن أعرف لماذا غاب النُّعاس عن عينيّ، نزلتُ عن السرير، أشعلتُ الضوء، أشعلتُ سيجارة، وخرجتُ إلى الشرفة.

كان القمر معلَّقاً بكامل استدارته فوق رأسي، لكنه لم يكن يقول شيئاً، كان ساكناً صامتاً مثل وجه أبله لا يوحي لكَ بشيء يمكن أن يعلمكَ بما يجول في خاطره. أحرقتُ عدداً من السجائر، ألقيتُ أعقابها المشتعلة في الحديقة، هدوء المكان كان مُرعباً؛ لا صوت يأتي من قط شارد أو كلب بعيد أو حتى من صرصار من تلك التي يمتِّعها العَريرُ عند حلول الليل.

لقد نشأت بيني وبين الصراصير منذ الطفولة علاقة غريبة، فقد كنتُ في بعض الليالي ألتقط أصواتها الناشزة وهي قبيحة أكثر من قبحها وثقل حضورها، ما أعرفه ويعرفه الناس أنّ عرير الصراصير مجتمعة لا يمكن أن يصير متناغماً، لكلّ صرصار نوتته ومُقامه الخاص، وعندما تنبعث أصواتها مجتمعة يصبح من المستحيل تجميعها في رتم واحد مشترك، لقد استطعتُ أن أتغلّب على هذا الضجيج بالقليل من طول النَّفَس، كنتُ أنتظر أن تخبو هذه الأصوات، وهذا ما يحدث دائماً، فلا يتبقّى سوى صوت صرصار واحد، صرصارٌ أرِقٌ يناكفني. لقد تعلّمتُ كيف أستعمل هذه الحشرة المقرفة لصالح نومي، أتتبَّع ميقات عرعرته، يعرعر، أبتدئ بالعدّ، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، يعرعر ثانية، أرجع وأعدّ، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، عرعرة، إلى أن أكتشف ميقاته، ويستقرّ بصوته عند العدّ خمسة، أو ستة، أقلّ أو أكثر هو الفارق أو الفاصل بين العرعرة وأختها.

بعد أن أحكِم سمعي على وتيرة غنائه البشع يأخذ صوته بالتَّناغم، أصير مايستروه، أسطو عليه، وأسوسه أنا. يحطّ النعاس فوق جفنيّ، أعيش هدهدة ناعمة، أحرِّك عصا المايسترو، أهزّها مع كل وصلة، تأخذ الأرقام بالتبعثر، تفلت من قبضتي:

واحد، اثنان.

واحد، خمسة.

واحد.

أربعة.

يغلبني النعاس، أنام.

ما يصطخب الليلة في رأسي، ليس عرعرة الصراصير، ولا حفيف الأشجار، ولا مواء القطط، أو نباح كلب بعيد، الجو في الخارج ساكن حدّ المقْت، إنها هنا في داخلي، تردُّدها مُبهم، وكلما حطّ السكون علا صخبها وأصبح ضجيجاً.

مُناداة بلغات هجينة، نبرات متغيِّرة، رموز تتقاطع، تختلط مساراتها، ترتطم، ترتدّ، تهزّني، تترك في أذني رنيناً عميقاً، تتحوّل، أحسّ بها تتغيّر، أراها، تخترقني، تخرج من ظهري أو تسكن فيّ. فوضى شُهب في سماء مفعمة بالحركة. لو أني أستطيع أن أنقضّ عليها وأمسك بها، لو أنها توحِّد رتمها، أو أنها تخلق أرتاماً غير الفوضى والضَّجيج لتمكّنتُ منها، ولخلّيتها تتناغم، وتنتظم، ولنِمْت.

صرتُ في كامل يقظتي، رجعتُ من الشرفة إلى غرفتي، تناولتُ حقيبة صغيرة، وضعتُ فيها بعض الملابس والمستلزمات الشخصيّة، عُدتُ إلى الشرفة، جلستُ على كرسي الأرجوحة الذي اعتدتُ

الاسترخاء عليه بعد سهرة شيِّقة أو يوم عمل مُرهق، بقيتُ محملقاً بالقمر حتى غاب واختفى أثره ببلاهته وسكونه المقيت.

عند الفجر ارتديتُ ملابسي، تسلَّلتُ خارجاً من البيت وأنا أحمل حقيبتي التي تحتوي كلّ ما يلزم لمُواصلة حياتي، لم أشعر بأيّ حركة توحي بأنّ هناك مَن استيقظ من النوم في البيت بعد. وها أنا أقطع الطريق الصحراويّة دون أن أعرف إلى أين أمضي؟

***

منذ اللحظة التي تجاوزتُ فيها الطريق المفضية إلى المطار، واجتزتُ التَّراحم في طرق زيزيا، وأنا منشدٌّ حتى تلك النقطة بكليّتي للسياقَة بالتزام خشية أن يلتقطني الرادار، لم أفكِّر بغير أن أظلّ متنبِّهاً وحَذراً من السيارات المسرعة من حولي، أو مِن أن تفاجئني شاحنة، أو تركتور يبرُز مثل الشَّبَح من طريقٍ فرعيّة. ما إن أصبَحَت الطريق سالكة منفتحة أمامي، وهدأ تدافُع المركبات، حتى بدأتُ أشحذ تفكيري بما أنا مُقدم عليه. كان من المفترض أن أتَّصل بالبنك للإبلاغ عن تغيُّبي عن العمل، لم يشغلني هذا الموضوع. مِن الضّروري أن أكلم أمي وأخبرها أنّي في إجازة، لا يُفترض بي أن أتسبَّب بأيّ قلق لها، أمي كائن شفّاف، كريستالي قابل للتهشُّم بسهولة، أجَّلتُ فكرة الاتِّصال بها إلى الوقت الذي يُفترض أن أغادر فيه البنك، الساعة الثالثة والنصف.

فكّرتُ أنْ أُغلقَ الموبايل. دون إمعان بالتفكير، وبخفّة أخرجتُه من جيبي، ضغطتُ على زرّ الإغلاق. أطفأتُ المسجلة التي كانت تدور على الـ "سي دي" ذاته من ليلة أمس، موسيقى

صاخبة مكهربة مزجها فنان الـــــ "دي. جـــي." الأوّل في العـــالم ARMIN VAN BUUREN، أبناء جيلي كلـــهم مولعـــون بهـــذا الهولندي الذي أُولعتُ أنا به مثلهم أو أكثر قليلاً كوْن تاريخ ميلاده يصادف يوم ميلادي وميلاد المسيح وانهيار الاتحاد السوفييتي، لكنـــه سبقنا بسنوات. لعبتُهُ العبقرية في مزج الموسيقى المتنوِّعة في مقطوعات جديدة ومختلفة تدفعنا لإدخالها في آذاننا حسب إرادتنـــا ورغبتنـــا، متفرِّقة إن كنّا نعرف المقطوعة التي سُرقت منها أو متجمِّعـــة مثلمـــا أراد لها وشكَّلها الهولندي.

نزعتُ الساعة من يدي، وضعتُها في جيب الســـيارة، أوقفـــتُ عقرب دقائق ساعة السيارة عن الدوران، كانت تشـــير إلى الثامنـــة تماماً، تركتُها معلّقة هناك.

صار بمقدوري أن أفكر الآن. لنرجع إلى البداية:

"لماذا أصابكَ الأرق وخَذَلَكَ النوم؟"، سألتُ نفسي.

زممتُ فمي، فكّرتُ بأنّ هذا هو السؤال المُعضِلَة، فلو أني عرفتُ الإجابة عنه منذ ليلة البارحة لنمت، ولَما تغيَّر برنامجي، ولكنتُ الآن أعاكس زميلاتي الفاتنات قبل أن أبدأ بإلقاء الأحكام على العمـــلاء الذين جافاهم النوم ليلاً بانتظار أن نُصدر القـــرار بتســـليفهم مـــا يتوسّلون إلينا مِن أجله. قرَّرتُ أن أؤجِّل هذا السؤال إلى وقت آخر، فقد أستجمع بعض البيانات التي تساعدني على الإجابـــة. الســـؤال الكبير هو:

– ما الذي تفعله هنا الآن يا ولد؟

هذا هو السؤال. اشحذ عقلك، استعمل كلّ ما أُوتيت من علم ومعرفة ودروس في البيت والمدرسة والجامعة وأجب.

أعدتُ التفكير بكل مُجريات يوم أمس، لم يكن فيها ما هو مختلف، فهي تشبه مُجريات كل يوم. قلتُ: "ارجع قليلاً إلى الوراء، لبضعة أيام مضت".

ما اليوم؟

الثلاثاء.

أمس كان الاثنين؟ لا شيء يختلف عن باقي الأيام.

أوّل أمس الأحد؟ لا شيء اختلف.

السبت؟ كالعادة في كل يوم سبت، استيقظتُ عند العصر وبقيتُ ملازماً البيت أمام التلفزيون. الجمعة التقيتُ بصديقتي في بركة الشيراتون. سبحنا وتناولنا الغداء وبقينا نتشمَّس حتى غابت مَن كانت تشمِّسنا. رجع كل واحد منّا إلى بيته.

ماذا عن الأسبوع الماضي؟ الشهر الماضي؟ السنة الماضية؟ ماذا عن أيّ شيء؟

لا شيء مختلف.

حسناً، لماذا أنتَ هنا الآن؟

أُتقنتُ علم الكومبيوتر منذ الصِّغر. لم أكن أحتاج وقتاً طويلاً لأملّ مِن برنامج، أو لعبة كان يُحضرها لي أبي، إلى أن يجلب إليّ ما هو أكثر تعقيداً وتقدُّماً. أتقنتُ هذا الأمر لكنّي لم أدرسه، لم أكن أرغب بأن أعمل في مجاله وأصبح مثل شقيقي أو أبي.

عندما تتعرَّف على الكومبيوتر تفهم بأنّ هذا العلم يتعامل مع كميّات هائلة من المعلومات، يقوم بتجزئتها إلى وحدات وبيانات صغيرة، ثم يعيد تجميعها بنُظُم متشابهة، أو متوافقة، ويحوِّلها إلى معلوماتٍ أكثر وضوحاً بسرعة ودقّة متناهية. الكومبيوتر يقسم

ويجمع ويوحِّد. ما هي البيانات التي أمْلَت عليّ أن أخرج من عمّان؟

فتَّشتُ وأنا أستلم الطريق المفتوحة أمامي في الأحداث التي مررتُ بها مؤخّراً، والناس التي التقيتُها، ما قرأتُه وما شاهدتُه، لا شيء جديد، لا بد أنّ هناك ما هو متغيِّر ومختلف، ماذا يمكن أن يكون؟ نبشتُ في ذاكرتي بشدّة، لا شيء غير الفراغ.

دستُ على مسارع السيارة بقوّة، حتى إني تجاوزتُ السرعة المحدَّدة. في نقطةٍ ما في رأسي ثمّة ما يشغلني، ما هو؟ أثق بأني سوف أقدر على التقاطِه، يجب أن أهدأ، وأن أخفِّف من سرعتي.

لم أرَ اللوحة التي تحدِّد السرعة على الطريق الصحراويّة إلا بعد أن اجتزتُها.

انتبهتُ إلى أنني أسير بسرعة كبيرة، رفعتُ قدمي عن المسارع وتلمَّستُ الكوابح.

شيءٌ طيفيٌّ، أو شَبَحيّ يلامس ذاكرتي بخفّة واستحياء ثم يَتوارى؟

هي فكرة، نعم هي فكرة.

عدتُ وزدتُ من سرعة السيارة، تجاوزتُ عدداً من السيارات، الطريق أمامي منفتحة على أفقٍ رحب، لا شيء غير الصحراء والسماء، وكلتاهما فارغة وكأنَّهما لا شيء سوى العدم.

ها هو العالم ينكشف على اللاشيء سوى الفراغ، غابت المادة وحطّ الفراغ رِحاله موضعها واستوطَن. الفراغ ليس اللاشيء، هو مادة أيضاً، بل إنه مادة عظيمة بتوحُّدها، وتشابهها. متخفِّية، لا تغيب. وتنكشف فقط عندما تعاندها المادة المزهوّة بما فيها، الكتلة. تقاتل لاستعادة حضورها الذي استلبتهُ المادة المفرّغة من الكتلة.

الفراغ، لا يفنى ويتخلّى عن وجوده إلاّ إذا سطت عليه المـــادة المُكتّلة.

وجدتُها.

ما استولى عليّ البارحة لم يكن غير الفراغ الذي كنتُ أظنُّـــهُ وهماً، الضجيج الذي ملأ رأسي لم يكن غيره.

الجَمَل الذي فاجأني كان يقطع الطريق بأناة ولا مبالاة. أدرتُ المقود بكلّ سرعة نحو اليمين، دُستُ على المكابح بكلّ قوّتي، أخَذَت السيارة تموج وكأنّها تبحث عن قرار تركن إليه دون أن تأبه للمصير الذي سوف أصير إليه، أخَذَت تتخبَّط أمام حالـــة الاختيـــار الـــتي فُرضت عليها؛ أن ترتطمَ بهذا الأبله، أو أن تنقلبَ في الواد. صـــلّيتُ كي أصيرَ طرفاً ثالثاً في هذه الفوضى وأن ترضَخَ المكـــابح لقـــدمي المتوسِّلة، وتخفِّف من اندفاعة السيارة، وتلجمها قبـــل أن تستســـلم لأحد الأمرَّيْن.

تماوَجَت مع حركتي للمقود، انعطَفَت يساراً، صار الجَمَلُ بعيداً عنها وصارت أقرب إلى الهاوية. عدتُ بالمقود نحو اليمين، خطـــوات الجمل الوئيدة توشك أن تقضي عليّ. تحرَّكت يساراً مـــرّة أخـــرى وعَبَرتُ بها من وراء عجزه الواسع الفاغر فمه للهواء. شعرتُ أنّ ذَنَبَهُ الطويل قد صفع وجهي، تحقَّقتُ من أني قد تجاوزته، على بُعد أمتار منه ركنتُ السيارة على طرف الطريق. وصرتُ ألـــتقط أنفاســـي. خرجتُ من السيارة، ألقيتُ إليتي عليها وأنا أحسُّ بأنّ قدميّ لم تعودا قادرتين على حملي. صرت أبحث عن هواء أتنفّســـه، كـــان قلـــيلاً وساخناً، تيبَّس حلقي، تذكّرتُ بأني لا أحمل معي شـــيئاً أشـــربه. رجعتُ بعد أن هدأتُ قليلاً إلى السيارة، ومضيتُ بها ببطء.

(العقبة 180 كم). لقد انقضى نصف النَّهار دون أن أتجاوز نصف الطريق. نتبهتُ إلى أنّني أقود بسرعة لا تزيد عن ستين كيلومتراً، قرَّرتُ أن أزيدَ من سرعتي ومن انتباهي للطريق.

بعد أن شاهدتُ العلامة التي تشيرُ بأني أمضي نحو العقبة، فكَّرتُ بأنَّها سوف تكون خَلاصي ممّا يتلبَّسني وهي فرصة جيدة للاسترخاء. فكَّرتُ بأن أقضي بضعة أيام في السباحة وأكل السمك.

مدَّتني هذه الفكرة ببعض الرّاحة، فكَّرتُ أن أعيدَ تشغيل الموبايل، والاتصال بأمي لأطمئنها عليّ، وفي البنك لطلب إجازة. قبل أن أُنفِّذَ أيّ مِن أفكاري توقّفتُ أمام استراحة على طرف الطريق، اشتريتُ زجاجات ماء، وبسكويت، وشوكلاته، ونسيتُ أمر الموبايل. عدتُ للسيارة، قدتُها لمسافة ليست بعيدة عن الاستراحة، نحَّيتُها بعيداً عن الطريق، أطفأتُ المحرِّك، أرحتُ ذراعيّ فوق المقود، وصرتُ أنظر نحو الأفق السّرابي الجاف الذي يمتدُّ أمامي وكأنه يمضي إلى خارج الكون.

تلهَّيتُ بملاحقةِ أمرٍ صاخبٍ مُتفلِّتٍ في رأسي، فشلتُ في التقاط شيء، لم يعلق في ذهني فكرة، أو صورة، أو حتى حادثة صغيرة مِن تلك التي تتزاحم في داخلي. قرَّرتُ أن أكمل طريقي إلى العقبة؛ الأمر الوحيد الذي حسمتُهُ دون أن أعرف لماذا أفعله. في العقبة سوف أكلِّم أمي، والبنك، و"سارة".

لم يتبقَّ أمامي سوى ثلاثين كيلومتراً حتى أصل إلى العقبة، موقع الشمس في السماء ينبئ بأنّ الوقت قد تجاوز العصر. إنّ تأخُّري ساعة أو أكثر بقليل عن البيت لن يشغلَ بال أحد، فما يزال لديّ الوقت لاستكمال رحلتي بسلام.

بعد أن تجاوزتُ نقطة التَّفتيش على بوّابة المدينة، توضَّح لي فجأة ومِن بين الأصوات التي كانت تدوي في رأسي، بأنّ هناك قوّة تأمرني وتدفعني لأنْ أخرُجَ من حياتي قليلاً، وتُفهِّمني بأنّ الدنيا ليست بهذا الضيق الذي حشرتُ نفسي فيه، وكأنّ هذه القوّة كانت توبِّخني لأني مصابٌ بالعمى، ولا أرى العالم الذي مِن حولي.

عقلي المدرَّب على تجميع البيانات ومعالجتها، أخرَجَ مِن كَمِّ المعلومات التي فيه ذاك الصوت الذي لم أكُن أميِّزه. عندما انكَشَفَت لِيَ "العقبة"، والبحر مِن ورائها، اهتديتُ، واتَّضَحَت الرؤية، يجب أن أحمل متاعي وأرحل، رضختُ لهذا الأمر قبل أن أفهم. من هذه اللحظة كلّ ما يجب أن أفعله يجب أن يكون بإرادتي، لقد صرتُ أحسُّ بأني أعرف ما أريد، وبأنّي رغبتُ بالرَّحيل. شعرتُ بشيءٍ من القلق لرضوخي طواعيةً لفكرةٍ لديّ المقدرة على عصيانها؟

صرتُ متلبّساً بأملٍ غريب، ضبابيّ، مُفزع، لكنه مثير، يحكمني ويسوسني. أحسستُ بأني أُساق إلى مغامرة غامضة، أمضى نحوها طائعاً مستسلماً، حالة تشبه الحلم الذي يعرف صاحبه بأنه يحلُم. استرحتُ، وخفتت في رأسي الأصوات، فكّرتُ بأنّ كل هذه الأصوات التي كانت تزدحم في داخلي، والتي كانت تدوي، وتهدر وتتراقص طلاسم غريبة ما زالت تستفزّني وتحثّني على مُعالجتها والخلاص منها بمعرفة شيء جديد، كل ما أرنو إليه معلومة جديدة واحدة من هذا الكمّ العظيم من البيانات التي أراها وأحسّها، عندما أهتدي لهذه المعلومة سوف تتفتَّح لي أبواب تفضي بي إلى عالم الوضوح.

هنا، الآن، في العقبة، على الشاطئ الشعبي، أجَّلتُ البحث عن فندقٍ أبيتُ فيه، فقد أرغب بالعودة إلى عمّان. فتحتُ الموبايل

كلّمتُ أمي، قلتُ لها إني سوف أتأخر قليلاً. عاودتُ إغلاق الموبايل، ألقيتُه في جيب السيارة قرب ساعتي وأنا عـــازم علـــى أن لا أُعيـــد الاتِّصال بها اليوم ثانية. بقيتُ جالساً على شاطئ البحر إلى أن غرُبت الشمس خلف أرضٍ مجهولة.

***

الأبواب

تَنَبَّهتُ على أصوات لعب أولاد، ورائحة شواء، ونسمات لطيفة كانت تسبح فوق البحر وتطفو خجْلى على العَرَق المتجمِّع حول عنقي. كنتُ متكوِّماً أُسند رأسي ذراعي، ثانٍ ركبتيّ كالجنين على تراب البحر الناعم. فركتُ عينيّ، تلفتُّ حولي، ضوء أعمدة الرصيف مرميّاً باصفرار باهت على أطراف الشاطئ الرّملي، نار موقدة الحطب يلتفُّ حولها مجموعة من الرِّجال، كانت تتراقص بثمالة دون إيقاع يحرِّكها. زجاجات البيرة الفارغة الملقاة بإهمال فوق الرمل قريباً من الموقدة، بدى ماؤها وكأنه كان سَقْيَ الحطب المُشتعل. حفنة من الصّبية كانوا يتقاذفون بأقدامهم كرة مهترئة بعيداً قليلاً عني محاولين جهدهم أن لا يقلقوا نومتي.

تململتُ في موضعي، نظرتُ نحو السماء، لم أرَ غير العتمة الخفيفة الخجْلى وهي تدسُّ برأسها مُحاوِلة معرفة كنه المكان الذي ستحطّ عليه بكلّ ثقلها بعد وقت قصير. أحسستُ بنشاط وأنا أقف وأنفض عن ملابسي التراب الذي علق بها، رفعتُ يدي بالسّلام على الرِّجال الذين احتلّوا الشاطئ بأكمله، لا مصطافين ولا سياح في العقبة في هذا الوقت من السنة. توجَّهتُ نحو سيارتي وقد عزمتُ أمري على المبيت في واحد من الفنادق، العَرَق الذي نزَّ من خلايا

بدني خلّى رمل البحر طيناً دبقاً في مواضع جسمي التي لحق بهـــا. لم يكن يشغلني غير أمرٍ واحد، أن آخذ حمّاماً طويلاً وأن أنام بعده.

ركنتُ سيارتي في كراج الـــ "كمبنسكي"، دلفـــتُ الردهـــة العريضة، استُقبِلتُ بهدوء لا يليق بمثل هذه الأماكن. لا صوت ينبعث من أركان الفندق الفسيحة، ولا حركة توحي بـــأنّ هنـــا حيـــاة، الأضواء المُشعّة والمُتلألئة بدت وكأنها إعلانٌ عـــن خـــواء المكـــان. توجّهتُ نحو الاستقبال. لا أحد هناك أيضاً. ليس بالأمر الغريـــب، فاليوم منتصف الأسبوع، وموسم الصيف الحارّ طارد للسياحة، مـــن غير المُستبعَد أن يكون الـــ "كمبنسكي" خاوياً؛ لـــذلك لم تنبعـــث أصوات الموسيقى التقليديّة كما في فنادق العالم الرّاقية كلها. فكّرتُ بأنّ الأشياء تمضي لصالحي، هي فرصة لطيفة لأكون وحيداً وأنفـــرد بنفسي دون أن يعكّر هذه الخلوة شيء ولا حتى الموسيقى. ســـوف أستجمع كل ما فيّ لأفهم حقيقة ما يجري لي.

انقضى وقتٌ قصيرٌ على وقوفي أمام حاجز الاستقبال قبل أن يُفتَح بابٌ داخليٌّ من خلف الكاونتر ويَبرُز من خلفه شاب أنيـــق مُبتســـم، رحَّب بـــي ودون أن يسألني إن كنتُ قد انتظرتُ طويلاً، أو أن يعتذر عن عدم تواجده في المكان الذي مِن المفترض أنّ عمله فيه، قال:

طلباتك أستاذ؟

غرفة مريحة.

"كم يوم؟"، سألني بأدب الوظيفة بعد أن عرف مقصدي مـــن هذه الزيارة.

"الليلة فقط"، وأكملتُ: "لستُ متأكداً".

إقامة ثلاث ليالٍ بسعر ليلتين.

قال مشجِّعاً لي كي أحسم أمري، وزيادةً في ترغيبي أكمل: "BED AND BREKFAST".

"لتكُن ثلاث ليال"، قلتُ بلا تردُّد.

صعدتُ إلى الغرفة المُترَفَة، خلعتُ ملابسي، وضعتُها في كيس الغسيل، دخلتُ إلى الحمّام، ملأتُ البانيو بالماء واسترخيتُ في داخله. لم أكُن أعرف الوقت عندما مللتُ من جلوسي بعد حمّامي الطويل في الغرفة دون أن أُقْدِم على عمل شيء، حتى إنّي لم أحاول مشاهدة التلفزيون. فزتُ واقفاً، بلحظاتٍ ارتديتُ شورتاً وبلوزة، انتعلتُ حذاءً خفيفاً وغادرتُ الغرفة.

الرُّدهة ما تزال هادئة، أصوات صحون ومعالق وموسيقى هادئة تأتي من ركنٍ بعيدٍ مرتفع، مشيتُ صوبه، ارتقيتُ درجتين، فُتح في وجهي بار صغير أنيق احتلَّ أحد مقاعده رجلٌ يتناول عشاءه مع زجاجة نبيذ، وعلى إحدى الطاولات جلس كهلان، رجلٌ وامرأةٌ كانا يكملان ما تبقّى في قدحيهما من النبيذ، استقبَلَتني صبيّة فلبينيّة صغيرة بابتسامة حلوة، سألتني إن كنتُ أرغب بتناول العشاء، أجبتُها: "أريد بيرة فقط". بحثتُ عن مقعدٍ قريب، فوجئتُ بأنّ هذا البار الصغير ليس سوى بوّابة تراس كبير يطلّ على المسبح، وعلى منظر أخّاذ للبحر وللمنطقة المجهولة التي كانت تشعُّ أنوارها من ما وراء البحر. دفعتُ باب الزُّجاج وخرجتُ إلى حيث الرُّطوبة والحرّ، قريباً من المسبح اخترتُ مقعداً شاطئيّاً ألقيتُ بجسدي عليه، لحقَتْ بي الفلبينيّة صاحبة الابتسامة الحلوة، وهي تحمل صينيّة فوقها كأس بيرة مثلَّجة وصحن فستق صغير.

لا تفضي الأبواب دائماً إلاّ إلى الجديد.

تنبَّهتُ لصوتِ عَوْمٍ ناعمٍ ينبعث من المسبح، وحركة للماء قبل أن أراها بما تيسَّر لي من ضوء وهي تعوم مثل سمكة زينة في حوضٍ مُزخرفٍ بالألوان. كانت تتهادى داخل الماء جيئةً وذهاباً وكأنّها تحسب عدد الجَوْلات التي أنجزتها، لا أدري إن كانت قد انتبَهَت لوجود ما يفسد عليها وحدتها، فقد استمرَّت بالسباحة دون أن ترفع وجهها صَوْبي. الإضاءة الخافتة لم تساعدني على التحقُّق من شكل هذا المخلوق المغرق جسده بالماء وبالعتمة. بقيتُ أتتبَّع حركتها دون أن يشغلها شيء ودون أن تحاول رفع رأسها للنظر أعلى من حافة حوض السباحة، إلى أن أنجَزَت مهمّتها التي لم أعرف ما تكون، وسبَحَت نحو السلّم القصير الذي ارتقى بها إليّ.

عندما ندخُل في اللعبة الإلكترونيّة مرحلة جديدة، ينفجرُ على شاشة الكومبيوتر أو الموبايل ضوءٌ يسطع بقوّة تُبهر النَّظر، حتى إنه يلقي غشاوة على العينين تكون وكأنّها تدخل إلى الدماغ دفعة واحدة، هذا السُّطوع يكون احتفاليّاً ومُبهراً، فهو يعلن انقضاء مرحلة من عُمْر اللعبة، ويهيئ اللاعب لمرحلة جديدة، وكأنها تلقي عليه بتحدٍّ جديد. تتغيّر الألوان والموسيقى والشخوص، ويحلّ مكانها ألوان وموسيقى وشخوص جُدُد. الفوز في اللعبة الجديدة يعني بأنّ اللاعب قد تآلف وتعارف على كل ما صارت تأخذه اللعبة إليه، تحدٍّ يفرض أن يتغيّر اللاعب مهما كان ضعيفاً أو جباناً ليصبح بطلاً، يحبّ ويكره من جديد، يحارب، يراوغ ويبدِّل تكتيكه السابق ليفوز في هذه اللعبة الغريبة عنه.

صارت تتكشَّف من قمَّة رأسها، من شعرها الملبّد بالماء، حاجبيها، عينيها اللتين طَرَدَتا بحركة مثيرة عنهما الماء، أنفها الصغير

الدقيق، فمها الغض الرّطب، حتى عنقها الـــذي بـــدا مثـــل قـــدح كريستال فوق صدرها العالق فوقه نقاط ماء تشبه النَّدى، تجويـــف صدرها انساب بسلام بين نهدين نافرين، إلى خصرها المقوّس وكأنه مرسوم بريشة فنّان ليحطّ على بقعة نافرة تـــدفع برفـــق فخـــذيها بانفراجةٍ وكأنها تعلن عن حضورها وتعطي للضوء مكاناً حتى يحـــطّ عليها فتصير طيِّعة للنظر، يأتمر الفخذان للرغبة طواعيةً، فينفرا نحـــو الأسفل ويركُنا لساقين مثل شجَرَتَيْ ورْد.

انفَجَرَ في وجهي الضوء الساطع الذي عَبَرَ نحو دماغي في ثوانٍ، لُجمتُ، شعرتُ بأني موشك على الموت، صلّيتُ كي أحتمل وكـــي أتماسك قبل أن أهوي أرضاً. جاءت لخاطري حادثة الجَمَل المُرعبـــة ورجائي لأن أنجو، زدتُ من صلاتي، دعوتُ من قلبـــــي: "نجِّـــني، نجِّني"، اهتززتُ، أسقطتُ الكأس مـــن يـــدي، انتفضـــتُ، رأيتُهـــا تضحك.

هل كُنتَ سارحاً؟

سمعتُ صوتها. تلعثمتُ، لم أجد ما أردّ به عليها. أكمَلَت:

أعتذر منك، الإضاءة خافتة، لم أحسب أنّ هناك غيري هنا.

تكلَّمتُ، قلتُ شيئاً ما لا أعرف ما يكون، تلهَّيتُ بنَفْضِ البيرة المسكوبة عليّ، وساعَدْتُ الصبيّة الفلبينيّة التي هبطت من الســـماء في لمّ شظايا الزُّجاج، كنتُ طوال الوقت أراقب بطرف عيني ابتسامتها وهي تحيط جسدها بالمنشفة.

في صالة الإفطار كانت منزوية بركنٍ بعيدٍ، تمدّ شوكتها داخل طبق الطعام الذي أمامها دون أن ترفع نظرها عن الكتـــاب الـــذي كانت مشدودة إليه. لم يكن هناك غير عدد قليل من النُّزلاء، الأمـــر

الذي أتاح لي أن آخذ طاولة قريبة منها، بقيتُ طوال الوقت وأنا أتحرَّك بين مقعدي والبوفيه، أتحيَّن لحظةً ترفع فيها عينيها ولو قليلاً لأقول: "صباح الخير".

يئستُ وفقدتُ الأمل بسرعة، لم أطِق الانتظار، اقتربتُ منها وقلت: "صباح الخير"، وانسَحَبْت.

نَظَرَت نحوي، ابتَسَمَت.

الجرأة التي تملَّكتني في محاولة الكلام معها لم تكُن غير عارض جديد يصيبني للمرّة الأولى في حياتي، فإنْ كنتُ كثير الكلام مع نساء العائلة ومع مَن أعمل معهنّ، إلا أني كنتُ دائماً ضعيفاً وطفلاً خجلاً في حضرة النساء الغريبات، عرضْتُ عليها أكثر من مرّة أن أعيد تعبئة كأس عصير البرتقال عندما انتَهَت منه، واقترحتُ عليها تجربة الأميركان كوفي لأنّ رائحتها الشذيّة أقلّ من طيب مذاقها. كانت في كلّ مرّة تشكرني بذوق ودون ملل. انتَهَت من إفطارها وخرَجَت دون أن تنسى أن تقول لي:

.BON APPETIT

غادَرَت وخلَّفَت وراءها جسدها المدثّر ببلوزة بيضاء وبنطلون جينز أبرز جمال ظهرها وشعرها الناعم الذي يغطّي عنقها. خلَّفَت كلّ ذلك على شبكيّة عيني، فلم أعُد أبصر غيرها.

***

قضيتُ النهار كلّه في السباحة، وكرْع البيرة، وترقُّب عودتها. كان المسبح فارغاً إلا من امرأة أجنبيّة ظلّت طوال الوقت تتقلّب تحت حرارة الشمس تُريد أن تصبغ جسدها بلون البرونز. نظَرَت

صوبـــي دون أن أفهم ما الذي تبحث عنه فيَّ، قبل أن تفكّ مشبك قطعة المايوه العُليا وتكشف عن صدرها. ما دفعـــتني إليـــه الـــبيرة، والسباحة، والشمس الحارقة، وحركتها الجريئة، هو التَّفكير بأنّ هذه السيدة الأجنبيّة لم تَرَ في المكان أحد، أو أنَّها رأت بـــي صبيّاً صغيراً، فلم تخجل مِن كشْف صدرها أمامه، أو أنّها أحصَت كؤوس الـــبيرة التي كرعتُها فقدَّرَت بأنّي ثَمِلٌ لم يعُد قادراً على الرُّؤية، أو أنهـــا – وهذا ما أتمنّاه– لم تكترث لوجودي منذ البداية، و لم تكن نظرتها تلك غير حركة لا شعوريّة بَدَرَت عنها دون أن تعني بها شيئاً. لم أفكِّـــر بأنها لربّما كانت تطلبني للحديث معها أو بأني قد رُقْتُ لها.

مع مغيب الشمس غادرتُ المسبح وأنا أشعر بنشاطٍ عظيم، حالمـــا دخلتُ الغرفة تذكّرتُ بأني يجب أن أكلِّم أمي فهي قلقة بـــلا شـــك. لامَتني على إغلاق موبايلي ورجَتني أن أبقيه مفتوحاً. كذبتُ عليها بـــأن قلت لها إني في مهمّة عمل في العقبة، وأخبرتُها بـــأني أقـــيم في فنـــدق الـــ "كمبنسكي"، وحتى لا تنشغل عليّ اختلقتُ كذبة جديدة وهي أنّ طبيعة المهمّة التي أنا بها تحتاج للكثير من الهدوء والتفرُّغ، لـــذلك فـــإني سوف أغلق الموبايل، وسوف أتصل بها كلّما وجدتُ وقتـــاً. تركتُهـــا مطمئنّة، نبرة صوتي الهادئة هي التي جعلتها تطمئن. أخذتُ دُشاً بـــارداً، بدّلتُ ملابسي، وخرجتُ أتجوّل في شوارع العقبة.

عدتُ للفندق، كان الوقت متأخِّراً، وكان البار فارغاً. أبلَغَـــتْني الصبيّة الفلبّينة أنّ باستطاعتي طلب أيّ شيء للعشاء بواسطة خدمـــة الغُرَف لأنّ المطعم مغلق. لم أكُن أرغب بغير أن أرى تلك المرأة مرّة أخرى. ليست كل الأمنيات عصيّة عن التحقُّق، فما إن دَفَعتُ باب الزُّجاج حتى رأيتُها أمامي وقد انتَهَت للتوّ من جولتها الرياضيّة. كان

شعرها ما يزال ينقط ماءً، وما زالت تواصل البحث بالمنشفة عن بُقع البلل العالقة على هذا الجسد المثير.

رفَعَت رأسها صوبي عندما سمعَت صوت حركة الباب وابتَسَمَت. سألتُها:

تخافين مِن الشَّمس؟

لم تُجب عن سؤالي، اكتَفَت بأن وسَّعَت ابتسامتها.

انتظرتُكِ طوال النهار.

لا أعرف من أين تملّكتُ الجرأة لأقولَ ذلك، حتى إنّي شككتُ بأني قد قلتُهُ عندما رأيتُها تفغرعينيها دهشةً.

.WHAT?

سألتني مستغربة.

"كنتُ أحبُّ أن أراكِ مرّة ثانية"، أجبتُها وأنا أرتجف.

"لماذا؟"، عادت وسألتني بنبرة غضبى وقد انتهت من لملمة نفسها، وعقَدَت طرفَيْ المنشفة فوق صدرها، وَبَدَت وكأنها تهمّ بالانصراف. تلعثمتُ، لم أعرف بماذا أردّ عليها.

لا أدري، كلّ ما في الأمر أنّي أحببتُ أن أراكِ.

وقَفَت واقتربَت منّي، كان الغضب واضحاً بين عينيها.

هل تراني سائحة أجنبيّة؟ أم إني واحدة ممَّن يعرفنَ شاباً في فندق؟

بالتأكيد لا.

ما معنى كلامكَ هذا؟

"لا شيء غير أنّي أُعجبتُ بكِ". وبوعْي ساحرٍ حطّ في رأسي أكملتُ: "وأنا لستُ سائحاً، ولا أبحثُ عن أيّ شيءٍ ممّا تفكّرين

به. اسمي (زياد سعيد) موظف بنك، أقضي هنا إجازة غير مخطَّط لها".

وتريد أن تتسلّى؟

سألَتْني بالنَّبرة الحادّة ذاتها، لكن بصوت هادئ.

أؤكِّد لكِ بأنّي لا أقصد، كلّ ما في الأمر أني أحببتُ أن أتعرّف بكِ، هذا كل شيء.

هل أنتَ معتاد على معرفة الناس بهذه الطريقة؟

لا، أجبتُها بالجرأة ذاتها دون أن أفكِّر بعاقبة ما سوف أقوله. لا أفهم، شيءٌ ما جعلني أتصرَّف بهذا الغباء. أكملتُ بما يشبه الاعتذار: "لم أقصد أن أضايقكِ".

هل فكّرتَ بأنه من الممكن أن أكون متزوِّجة؟

لا يعنيني ذلك.

وأم لولد عمره خمس سنوات؟

فليحفظه الله.

ماذا تبقّى إذاً؟

أن أدعوكِ لفنجان قهوة.

لاحِظ أنّ هذه المرّة الثانية التي تدعوني بها للقهوة، هل علاقتكَ بالقهوة قويّة لهذا الحد؟

على العكس فأنا لا أحبها.

فَقَعَت ضحكة حرَّكَت نسمات باردة لامست جبيني، فأنعشتني. الحوار تَنازُل. هذا ما فهمتُه عندما صارت تتلفَّت من حولها تبحث عن طاولة قريبة احتلّت أحد مقاعدها، تحرّكتُ من مكاني وجلستُ على مقعدٍ قريبٍ منها.

قد يكون ما قُلتُه عن الإجازة غير المخطّط لها قد استفزَّ فضولها، هذا ما يُقال عن النساء، بأنهنَّ يشبهنَ القطط، القطط يَقْتُلُها الفضول، والنساء يُقتَلْنَ بفضولهنّ. كان أول شيء طلَبَتْهُ منّي أن أشرح لها معنى إجازتي غير المخطط لها، قلتُ إنه تلبَّسني شعورٌ بالحاجة لأن أكون وحدي لبعض الوقت. أخبرتُها أنّ حياتي ممتلئة بالأهل والأصدقاء والزملاء والجيران. أضحكتُها من جديد عندما ذكرتُ لها أني لا أكره الإنفلونزا عندما أُصاب بها إلا لكثرة مَن يحيطون بي من المقرَّبين. أكملتُ مُحاولاً أن أستظرف:

لا تصدِّقي أنّ الإنفلونزا وباءٌ يعدي، في حالتي هي ناقل للمناعة.

بقينا نتحدَّث وقتاً طويلاً، عَرَفَتْ مَن أكون، ومَن هم أهلي، والمرأة التي أحبُّها ومِن المفترض أن أتزوّجها. ضحكَت كثيراً وأنا أحكي لها حكاية غرامي الطويلة، حتى امتلأت عيناها بالدموع. سألتني بأريحيّة إن كنّا نمارس الجنس؟ أجبتُها: "بالتأكيد لا". سألتني عن أخريات مارستُ معهنّ الجنس؟ نفيتُ ذلك بشدّة. استمرَّ ضحكها الذي لم أكُن أفهم معناه، بلا انقطاع. قالت لي مِن غير أن تكفّ عن الضحك:

الآن يمكن أن أقبل دعوتكَ لفنجان القهوة وأنا مطمئنّة.

عرفتُ منها أنَّها متزوجة، وشعرتُ بِصِدْقِها وهي تتحدّث عن سعادتها في حياتها، وفهمتُ معنى أن تقضي إجازة وحدها دون مرافق مهما كانت صفته، زوج، صديق أو عشيق، فهي تعمل مع إحدى الهيئات الدبلوماسيّة التي تتوقّف أعمالها في مثل هذا الوقت من السنة، ويغادر العاملون الأردن لقضاء إجازاتهم في بلادهم. تكون

مضطرّة لأخذ إجازتها في الوقت ذاته والذي لا يتناسب مع موعد إجازة زوجها الذي يعمل مديراً لإحدى شركات السياحة في عمّان، الزوج الذي عاشت معه قصة حب تشبه إلى حدٍّ ما قصة حبّي مع "سارة"، لكنّها لم تكن ببراءة قصة حبّي. هذا ما اعتَرَفَت به وهي تضحك.

لم تصرِّح لي باسمها رغم إلحاحي بطلبه. في المصعد ونحن متَّجهان إلى غرفتَيْنا عرفتُ بأنها تقيم في الطابق الذي أقيمُ فيه. طلَبَت منّي بمَرَح أن لا أعتبر هذه المصادفة علامة ما. قالت إنّ جميع الفنادق في العالم في مواسم الرُّكود تلجأ لعدم إشغال أكثر من طابق أو طابقين بحسب عدد النزلاء توفيراً للمصاريف. بالرّغم من توضيحها إلاّ أني كنتُ أفترض أنّ مصادفةَ سَكَنِنا معاً في الطابقِ ذاتِه هي علامة. تودَّعنا بعد أن اتَّفقنا على تناول الإفطار معاً.

***

لا أتخيَّل أنّ المرأة، أيّ امرأة، لا يلفت انتباهها الرجل الوسيم، هنّ مثلنا عندما ننظر إليهن لا نرى غير الجمال، استوقَفَها شكل جسدي الرياضي، وطولي البائن، ولون عينيّ، إنْ كانت قد انتَبَهَت لهما. لونُ عينيّ هو الشيء الذي ورثتُهُ عن أمي، لونٌ عسليّ شفّاف يتغيّر مع انعكاس ألوان قمصاني وبلوزاتي الفاتحة، "سارة" كانت تؤكد أنّ لون عينيّ أخضر كلما ارتديتُ بلوزة صفراء، أو فيها درجة من اللون الأخضر.

المرأة وإن لم تكن غريزتها ورغباتها الجنسيّة هما مَن يحرِّكانها إلا أنها تهتمّ كثيراً بمرافقة الرجل الجذّاب وإن كان شقيقها أو أباها، مثل

ارتدائها أزياء من الماركات العالميّة، أو حمل حقيبة يكون اسم الوكالة المنتِجة لها أكبر من حجم الحقيبة.

امرأةٌ لم تصرِّح لي باسمها حتى اللحظة، والتي تقضي إجازة موسومة بطابع "إجازة ثقة مُتبادَلَة مع الزوج"، تردَّدَت في قبول دعوتي بعد أن انتهينا من طعام الإفطار لعمل جولة على الشاطئ، أو أن نتناول الغداء معاً. لكنها عادت ورضخت. قضينا نهاراً حلواً، تلقَّت عدداً من المُكالمات كانت تردّ عليها بعد أن تستأذن منّي وتبتعد للتحدُّث، ثم ترجع بعد أن تنهي المكالمة لتخبرني بأنّ "هذا كان زوجي"، أو "المربيّة" أو ابنها، أو أمها.

تكرَّرَت مكالمات زوجها أكثر من مرّة، سألتُها إن كانت قد أخبرتهُ أنها برفقة صديق؟ ردّت عليّ مُستغربة:

بالطبع لا.

وقتها كنّا قد صرنا قريبين أكثر قليلاً من بعضنا بعض، عدتُ وسألتُها بلا تردُّد أو تلعثُم:

لماذا هذا التأكيد؟ ألا يثق بكِ؟

أتخيَّلُ أنّ ردّي الوقح هذا هو ما جعل نهارنا ينتهي على عكس ما ابتدأ. لم تغادر غرفتها من لحظة رجوعنا إلى الفندق، و لم تنزل لممارسة سباحتها الليلة. انتظرتُها طويلاً دون أن أجرؤ على الاتِّصال بها. لقد كنتُ وقحاً، قالت لي لاحقاً إنّي كنتُ ساذجاً.

بعد أن استسلمتُ وفقدتُ الأمل بقدومها لممارسة رياضتها، صعدتُ إلى الغرفة، اقتربتُ بحذر من باب غرفتها، سمعتُ صوت التلفزيون، كانت تتابع فيلماً أو مسلسلاً، دخلتُ غرفتي، تناولتُ ورقة وكتبتُ عليها "لا يجوز أن أعتذر بهذه السرعة وأنا بالكاد

عرفتُكِ، لكنّي آسف بحقّ". رجعتُ إلى باب غرفتها، دسَسْتُ الورقة من تحت عقب الباب، نقرتُ بخفّة عليه، وأسرعتُ عائداً إلى غرفتي.

في الصباح كنتُ جالساً في المطعم أتوسَّل أن تأتي إلى أن اجتازَت بوّابة المطعم مرتدية فستاناً صيفيّاً مورَّداً، ضيِّقٌ عند كتفيها وصدرها، ومتحرِّرٌ تحت ذلك حتى ما فوق ركبتيها، يتربَّص نسمةً قويّةً ليطير. بيدها تحمل الكتاب ذاته الذي كان يُعرف بأنه لن ينتهي بهذه الرحلة. يمكن أن أخمِّن بأنّ الكتابَ سعيدٌ لطول بقائه بين يديها على عكس ما كنتُ عليه. عندما رأيتُها تقبض عليه وكأنَّها تبعث لي برسالة تقول إنّ هذا رفيق يومي وليس أنت. واصَلَت المسير باتِّجاهي بخطواتٍ بطيئةٍ ثقيلة، وأنا أتحسَّب لِما ستقدم على فعله:

ألم تفطر بعد؟

سألتني بعد أن وَضَعَت الكتاب على طاولتي، ومَضَت نحو البوفيه وكأنّها رفيقتي التي أنتظر حضورها بعاديّة، قالت:

- بهذه غفرتُ لكَ.

أدارَت رأسها نحوي، ورَفَعَت بيدها رسالتي القصيرة، أكمَلَت: "تذكَّر بأني سوف أسامحكَ هذه المرّة فقط، وتذكّر أكثر بأني لا أسامح إلا مرّة واحدة".

عادَت، وما إن وَضَعَت طبقها على الطاولة وجَلَسَت حتى قالت:

اسمي ربى.

وبَدَأَت بدَهْن قطعة خبز محمّصة بالمربّى، تابَعَت وهي تراقب ما تفعله يداها، "لن تعرف عنيّ أكثر من هذا".

إنّ حقيقة ما يُشاع عن معنى السعادة بين الناس لا يمكن له بأيّ حال أن يكون صحيحاً، كلّ ما تعلّمناه منذ الطفولة في المدارس ومن

أهالينا عن معنى السعادة لم يكُن يؤشِّر بالمطلق لمفهومٍ واحدٍ صحيحٍ لهذه الكلمة، تعلّمنا في المدارس أنّ السعادة في الصحّة، وأنها تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى. وظلَّ العجائز يردِّدون أنّ الشباب هو السعادة، دون أن يحاولوا تذكُّر مدى الشقاء الذي يعيشه الشاب ليحقِّق ذاته. وعرفنا مِن رفاق الحارة وفي الجامعة أنّ السعادة في الغِنى، أتذكّر قصة الرجل الذي قضى أكثر من عشرين سنة وهو يشتري في كل أسبوع ورقة يانصيب، ولم يصدف أن ربح ولا مرّة واحدة، ولم يفقد الأمل، إلى أن ضَرَبَ الحظ معه مرّة واحدة وكسب الجائزة الكبرى.

رَجَعَ إلى بيتِه غير مصدِّق عينيه، وضع رُزَم النقود الكثيرة التي لم يتقبَّل فكرة أن يودعها في بنك قبل أن يتملّى من حقيقة وجودها معه، وبأنه لا يحلم. وَضَعَ رُزَم الدّنانير الكثيرة على طاولة المطبخ، تناول ورقةً وقلماً معتزماً أن يكتب لائحة بما سوف ينفق عليه هذه الثروة. كَتَبَ "لائحة المشتريات" وتوقّف عن الكتابة، صار يفكِّر بما يريد أن يقتنيه، وما هي الأولويّات. لم يخطّ حرفاً واحداً، فقد عرف بأنه لم يعُد يرغب بقيادة سيارة سبور جديدة، ولم يعُد يرغب بفتاة صغيرة يتزوّجها، ولا في بيتٍ واسعٍ فيه حديقة، فالشقّة الصغيرة التي تأويه صارت واسعة عليه، وعمره الكبير أخمَدَ رغبته باللهو واللعب. توقَّف طويلاً وهو يمسك القلم دون أن يتحرّك من موضِعِه، لقد عرف الرجل بعد صمتٍ وتفكيرٍ عميقين بأنه لم يعُد لديه أحلام. ألقى برُزَم النقود على كوم الجرائد العتيقة التي يجمعها منذ زمنٍ بعيدٍ في زاوية البيت، وذهب لسريره لكي ينام. "رُبى"، لا أدري إن كان هذا اسمها الحقيقي، لا أشكّ بأنها قد توقَّفَت طويلاً ليلة أمس أمام نفسها بسؤال كبير، هل أنا حقاً سعيدة؟

حضورُها الآن وجلوسها معي مبرِّرة ذلك باعتذاري السّاذج كان هو الإجابة التي خلصتُ لها، فبعد أن قَضَت جزءاً طويلاً من الليل وهي تفكِّر بحياتها، وبما عاشته، وما تريد أن تعيشه بعيداً عن ظهوري في حياتها، لقد كانت تجتهد لتختبر أحاسيسها نحو كلّ مَن يحيطون بها وكلّ مَن تعرفهم، الدبلوماسيين الذين تعمل معهم، صديقاتها، أهل زوجها، أقاربها، أهلها، زوجها وحتى ابنها. لقد وقَفَت بلا شكّ أمام أسئلة كثيرة، مثل هل أنا مرتاحة لما أفعله في حياتي؟ هل أحبّ زوجي؟ هل أنا سعيدة حقاً مثلما أعلن كل الوقت؟ السؤال الأكبر الذي أسهَرَها "هل هذا الذي تعيشه هو ما تريده لحياتها القادمة؟"، تراها تعرف قصة صاحبنا رجل اليانصيب؟

على هذه الحال رأيتُها وتخيَّلتُها عندما حاوَلتُ أن أفسِّر معنى أنها غفرت لي خطيئتي المُضحكة، افترضتُ بأنها قد حَسَمَت أمرها بأن تعيش اللحظة. كلّ ما قلناه على الإفطار الذي استغرق حتى ساعة إغلاق المطعم لم يحمل أيّة إشارة على صدق ما كنتُ أتخيّلهُ، وعندما عرفتُ منها أنّ إقامتها سوف تطول لبضعة أيام، تحيَّنتُ لحظةً صرتُ فيها وحدي في بهو الفندق وهرعتُ إلى الاستقبال، طلبتُ تمديد إقامتي ثلاث ليالٍ أخرى.

اقتَرَحَت عبْر كلامها السَّريع عن الإفطار والمكان والحرّ الشديد أن نقوم برحلة إلى وادي رم. سألتُها أن تعيدَ عليّ ما قالته. كرَّرَت ببساطة وعاديّة:

"أفكِّر أن نذهب برحلة إلى وادي رم"، وبخُبْثِ الأنثى أكمَلَت: "إنْ لم يكن عندكَ ما يشغلك؟".

وافقتُ بلا تردُّد، لا بل بحماسة مُشهَرة، و لم أُبدِ امتعاضاً من فكرة أن نهرب من الأمكنة المُكيَّفة إلى الحرارة والجفاف. ما إن فرُغ المطعم إلا منّا حتى غادرنا مسرعين لغرفنا لكي نستبدل ملابسنا بملابس مريحة تناسب المشي على الرِّمال أو تسلُّق الجبال. سعادتي بأنها قد أراحتني مِن عناء البحث عن وسيلة أقنعها بها أن نقضي اليوم معاً أنسَتْني فكرة كُرهي للصحراء، كم أكره مسألة أنْ يستجمّ الإنسان في القيظ والغبار. عندما التقينا في الرُّدهة في الوقت المحدَّد كانت ترتدي شورت كاكي وبلوزة سماويّة فضفاضة وحذاءً للمشي.

***

الخِيام

اتَّفَقْنا أنْ نستخدِم سيّارتي وأنْ نتبادل الأدوار في القيادة، الأمر الذي لم نضطرّ له، بقيتُ أقومُ بهذه المهمّة وأنا ممتلئ بالفرح والإثارة من وجودها بجانبي. اجتزنا مسافةً طويلةً بأسرع ممّا تقوله اليافطات الإعلانيّة التي على الطرق، كانت تتكلّم، وتتكلّم كثيراً، وكلما عاد الهدوء كنتُ أسألها شيئاً ما، فترجع وتتكلّم من جديد. أخيراً حطّ علينا السُّكون، الطُّرُق الرتيبة تحطّ على الأجساد حالة من التَّكاسل والبلادة، تصير علامات النوم تلوح فوق الأعين لتغدو وكأنّها تتوق لإغفاءة طويلة. شارع طويل رتيب محاط من جوانبه وبامتداده بصحراء تبدو وكأنّ لا نهاية لها، صوت ماتور السيارة يحافظ على إيقاعه الذي يهدهد السائق بسلام، فينقله إلى سُباتٍ حلو.

بحثتُ عن مقدِّمات لأحلام ملوَّنة، ضغطتُ على زرّ المسجل، أخرجتُ الـ "سي. دي" الذي كنتُ أستمع إليه قبل أربعة أيام عندما غادرتُ أنا وصديقتي الـ "روفرز"، استبدلتُه بـ "سي دي" محمد منير، حرّكتُ المفتاح على الأغنيه التي أعيدُ تكرار سماعها كلَّما هزَّني الشّوق لـِ "سارة":

لّما النسيم بيعدّي بين شعرك حبيبتي
بسمَعُه بيقول آهات

وعطورك الهادية اللي دايبة فيكي
كل ما تلمسك بتقول آهات
عايزاني ليه لّما تقوليلي بعشقك
مصرخش واملا الكون آهات
يا نجمة كل ما ضيّها يلمس حجر
يعلّي ويتحوّل قمر
بكتب حروف اسمك بحبّات الندى
على كل أوراق الشجر
مين اللي يقدر يعشقك أدّي أنا!
مين اللي يقدر يوصفك زيّي أنا!

قبل أن تفتح عينيها، كان منير قد تلبَّسني، وكأنّي أسمع الأغنية، هذا الصوت، للمرّة الأولى.

يعجبكَ محمد منير؟

سألَتني. هززتُ رأسي بالإيجاب.

حرَّكَت فمها مُستغربة:

أعتقد أنّ مَن هُم بمثل عمركَ لا يحبّون هذا النوع من الأغنيات.

أي نوع تقصدين؟

الرومانسي. أنتم جيل واقعي.

أنتِ على حق، نحن جيل الصَّخَب.

ضحكتُ بصوتٍ مُرتفع وأكملتُ: "تتكلّمين وكأنكِ من جيل أمي. هل أنتِ كبيرة لهذا الحدّ؟".

أنا أكبر منك.

أعرف.

كم سنة تفصل بيننا بتصوُّرك؟

سنتين أو ثلاث.

كم عمرك؟

مِن عُمْر انهيار الاتحاد السوفييتي.

ومتى انهار الاتحاد الذي يشغل بالك؟

قبل أربع وعشرين سنة.

أكملتُ: "لا يُشغل بالي، لكنّه واحد من الأحداث التي وقعت في تاريخ ميلادي. ألا تفتِّشين أنتِ على ما يصادف تاريخ ميلادك؟".

"وأبحثُ أيضاً عن الشخصيات المهمّة التي وُلدت في التاريخ ذاته"، أكملتُ وهي تضحك من براءتي.

هل يوجد أحداث أخرى غير هذه تصادف يوم ميلادِكَ؟

"بالطبع"، وأجبتُها في الحال: "يوم ميلاد المسيح".

استمرَّت بالضحك وكأنها فَرِحَة لطرْد السّبات الذي كان يسطو عليها، وسألتني بسخرية:

أي المناسبتين أهمّ؟ انهيار السوفييت أم ميلاد المسيح؟

"انهيار الاتحاد السوفييتي". أجبتُها وقبل أن تعلِّق على ما قلتُه تابعت: "العالم يحتفل بميلاد المسيح، ويستغلّ البشر هذه الذكرى للاحتفال والرقص والسُّكْر". هدّأتُ من حماستي، وبعد لحظة صمْت قصيرة أكلمتُ: "يمارسون الجنس باحتفاليّة مختلفة على الرّغم من أنهم يمارسونه في كل يوم، كلّ ذلك على شرف إنسان أو إله صُلِب من أجل خلاصهم، فيكثرون من الخطايا. فهو المُخلّص".

إذاً صار من الضروري أن تجيبني عن سؤالي؟

أي سؤال؟

كم عمري بتصوُّركَ؟

أمرٌ لا يعني لي شيئاً، قد تكونين أصغر منّي، أو بعمري، أو أكبر، هذه مسألة لا علاقة لها بما أحسّ به تجاهكِ.

عُدنا.

هَمَسَت وكأنّها تكلِّم نفسها. لم أعلِّق. عُدنا إلى السُّكوت وكان منير يصرُخ: "عايزاني لّما تقولي لي بعشقك ما اصرخشِ واملى الكون آهات؟".

عمري ثلاث وثلاثون سنة.

مسألة لا تعنيني.

وقبل أن تبدي احتجاجها عليّ قلتُ: "ما يعنيني هو يوم ميلادكِ فقط".

توقَّفنا عن الكلام وظلّ منير يغنّي، ولاحت يافطة تعلن أنّ وادي رم صار بعيداً عنّا ثلاثة كيلومترات. قبل أن نترجّل من السيارة، رمقتني بعينيها وهي تفتح الباب لتخرج وقالت:

زياد، أنا امرأة سعيدة في حياتي، وأريد أن أستمرّ كذلك.

وقفتُ بمواجهتها للحظات، تأمّلتُ كم هو جميل وجهها، قلت: وأنا أريدكِ أن تكوني سعيدة في حياتِك.

***

الخيمةُ التي تقصدها يسهل عليكَ الوصول لها من جميع الاتِّجاهات، ومِن السَّهل أكثر أنْ تبتعد عنها حيثما توجَّهت. تعيش الخيام حالة التصاق بساكنيها، عكس البيوت التي تَعزل ساكنيها عن

الحياة، فالخيمة تُلصق الناس بكل شيء فيه دفق الحياة، نسيم الهـــواء، حفيف الشجر، صوت المطر وقطراته، عرير الخنافس، انسياب المياه، والبشر.

الخيمة التي دَفَعَت هي ثمن إقامتنا فيها رغماً عنّي لم تكُن غير مجلسٍ بدويٍّ يتوسَّطه موقدة وبقايا رماد بارد ودلّة نحاس معوجّة وكأنّها قـــد ملّت الانتظار. الحرارة المُلتهبة كانت تذيبني، العَرَق كان يسحُّ مِن كـــلّ مواضع جسدي. لم أُبدِ إعتراضاً على مشروعها عندما بدأت في تطبيـــق جدول الرِّحلة الذي كان يبدو لي مرسوماً في رأسها، كشَـــفَت عـــن خبرتها في المكان، وفي العامل الذي كان يتقلّى تحت خيمة مشرعة جوار مروحة كانت تنهج مجهدة في البحث عن هواء تحرِّكه. لم يُفاجأ العامل بهذين الزائرين الغريبين المستهجَن أن يكونا هنا في هذا الوقـــت، إلا إن كانا يقصدان أمراً آخر غير السياحة، لكنّها عندما أكّدت له بأنّنا نرغب بخيمة للراحة وليس للمبيت، أبعَدَ من مخيّلته ما كان قد ارتَسَـــم بهـــا، رطب له الجو الجاف، وعاد من جديد لسأمه. ما إن رفع لنـــا الشـــادر الذي يغلق باب الخيمة حتى أسرعتُ متقدِّماً عليها للاستلقاء علـــى أوّل قطعة فراش التقطتُها. أبديتُ احتجاجي على هذا المشروع واقترحـــتُ عليها أن نرجع إلى البحر. ما إن غادرنا العامل بعد أن أدار جهاز صغير من المفترض أنه لتبريد الخيمة حتى قالت لي:

هذا ردّي على كل ما فعلته بـــي.

لولا ضحكتها العريضة لشعرتُ بأني أعيش واحداً مـــن أفـــلام الرُّعب التي أحرص على متابعتها، وبأني قد أصبحتُ الضحيّة وليس المُشاهد. لم تُعرْني انتباهاً و لم تُبدِ اهتماماً وهي تخلع عنـــها البلـــوزة وتظلّ كاشفة عن صدرها الذي تحمي نصفه الأسفل ستيانة شـــفّافة.

طَلَبَت منيّ أن لا أوغل بالخيال، فقد سبق لي أن رأيتُها على هذه الحال في المسبح أكثر من مرّة.

طلبتُ منها أن توضِّح ما قصدته بأنّ هذا جوابها على ما فعلتُهُ بها؟ ومعنى أنّ هذه الرحلة هي الجواب؟ ردَّت عليّ وقد تغيَّرت ملامحها وبَدَت وكأنّها قد كبُرت فجأة مئة سنة، تغيَّرَت نبرة صوتها، صارت حزينة، أو مجروحة:

أتعبتَني.

تذكرتُ الآن بأني ما زلتُ ولداً، لا بل أصغر من ذلك، طفلاً. ولا أدري كيف تمالكتُ نفسي ومنعتُها من البكاء. شعرتُ بحملٍ ثقيلٍ يحطُّ على رأسي، وبأنّي لم أقصد أن أتعبها، أو أن أكون سبباً في حزنها الثقيل هذا. أنا لا أعرف النساء، ولا أفهم كيف ترى المرأة الدنيا، كل ما أعرفه أني أحسستُ نحوها بإحساس حارق، ومدهش وساحر، شعور غير ذاك الذي أحسّه نحو "سارة"، ولا نحو أمي أو أختي، ولا حتى زميلاتي الجميلات في العمل.

كنتُ متأكداً بأنّ ما دفعني نحو هذه المرأة لم يكُن بالمطلق الرَّغبة، قد تكون "سارة" أجمل، لكني لم أشعر بها تتملَّكني بكليّ، ولا أنها تتملّك فيّ غير ذكريات حلوة وتجارب صبيانيّة حلوة. لا هي، ولا هذه السيدة الواقفة أمامي كاشفة عن نصف جسدها المثير حرَّكتا فيّ الرَّغبة، لكن هذه الثانية تشعرني بأنها قد استولت على كل ما فيّ؛ مشاعري، رغباتي، وحتى أحلامي. كيف يمكن أن أشرح لها كلّ هذا؟ كيف أقدر على تفسير ما يتصارع في داخلي منذ اللحظة التي رأيتُها فيها مِن فرحٍ وحزن، ومِن عشقٍ جارفٍ للحياة، ومِن رغبة قويّة في الموت؟

يا الهي ماذا يجري لي؟

تمالكتُ نفسي، عدتُ وتحاملتُ على قدمي قبل أن أستجمع أنفاسي، دنوتُ منها، رفعتُ يدي، مسحتُ على شعرها المعروق، لم تُبدِ ممانعة، سرتُ بإبهامي فوق وجهها، لامستُ طرف عينها وكأني أمسح دمعة لم تسحّ منها، قلتُ وأنا أوشك أن أغيب عن الحضور:

لم أقصد أن أتعبكِ، ولا أن أسرق منكِ سعادتكِ. عجزي عن إبعادِك عن تفكيري هو ما دفعني نحوكِ. لا أعرف من أين واتتني كل هذه الجرأة، وكل هذه القوّة؟ هل بُعثت من ضعفي وكأني أحلم. هل نكون أقوياء وجامحين ومنتصرين في الحلم؟ أشعر بأني أحلم.

لم تنطِق بحرف، ظلّت تراقبني وأنا أتكلّم وكأنّها تشفق على الحال التي أوصلتُ نفسي إليها، أو ما تحسب بأنها قد أوصلتني هي إليه. سكتنا طويلاً، ابتعدتُ عنها، أدرتُ وجهي بعيداً قلتُ:

سامحيني، فأنا عاجز حتى الآن عن انتزاعِك من روحي.

لحقَت بي، وضعَت كفّيها على كتفيّ، دفعَتني للالتفات نحوها، همَسَت بصوتٍ خافت:

أعرف.

انقضى وقت طويل علينا ونحن جالسين متقابلين دون أن نقدِم على قول أيّ كلمة أو فعل أيّ شيء. لا أعرف كم مضى من وقت علينا ونحن على هذه الحال عندما هبَّت واقفة، سحبتني من يدي وهي تقول:

لم أنتهِ من تعذيبكَ بعد.

سحبتني خارج الخيمة، ومَشَت أمامي صوْب العامل المنشـــغل بفعل لا شيء، طلَبَت منه أن يجهِّز لنا ما نأكله عند عودتنا من رحلتنا صوب الجبل والتي سوف تكون عند المغيب. لم أمانع، و لم أُبـــدِ أيّ مقاومة، دفعتني أمامها، وضَعَت كفّيها أسفل ظهري وأخذت تدفعني للمسير:

دعنا نرى قدرتكَ على التحمُّل.

قالت وهي تضحك مثل الأطفال.

***

السَّرير

قرَّرَت بتصميم أنْ تقود هي في رحلة العودة إلى العقبة، كنتُ مُنهكاً وأشعر بأنّ جسمي كلُّه يحترق، وبأنْ لا جَلَد عندي للإمساك بالمقوَد، وبأنْ أسوق السيارة وأتجنَّب مفاجآت الطريق.

لم تكُفّ عن الضحك وهي ترتقي أمامي الجبل باحتراف، وتمدّ لي يدها لتساعدني على اللحاق بها. على القمّة التي سبقتني إليها، وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة، كان ينتابني شعور غامر بالفرح، لم يكُن هذا الفرح وليد اللحظة، فقد كنتُ أحسُّه وأنا أمضي معها من العقبة إلى هنا. وقفتُ قريباً منها، وبعد أن صرتُ قادراً على التنفُّس الطبيعي، وبعد أن خفَتَ صوت لُهاثي، أمسكتُ بها من كتفها دون أن أتحسَّب لردّة فعلها. استرخَت على ذراعيّ اللتين تحيطان بها، وألقَت برأسها على كتفي.

بقينا ملتصقين بعضنا ببعض حتى صارت أنفاسنا واحدة. جلسنا على الأرض. طلبتُ منها أن تخبرني عن أهلها، قالت إنهم بشر طيبون، قانعون بحياتهم، كلهم يشتغلون، أبوها في شركة، وأمها معلمة وأخواها كل واحد منهم يمارس عملاً ما، حدَّثتُها عن أهلي و لم أتطرَّق مرّة أخرى للحديث عن "سارة". سألتُها ما الأجمل عائلة الإنسان التي ينشأ بحضنها، أم العائلة التي يصنعها بعد أن يتزوّج؟ ردّت وكأنها تغنّي:

الأجمل هو الأجمل.

وبلطف أكمَلَت:

في هذه اللحظة نحن الأجمل.

"آآآآآآآآآآآآآآآآوه"، صرختُ داخل صدري.

ظلَّت ترمق الأفق البعيد وقد عاد لها شبابها، وبَـدَت الراحـة تملؤها. سألتُها:

كيف تكون العائلة؟ هل أنا وأنتِ عائلة؟

ردَّت عليّ بثقة:

أجل نحن عائلة، أنا وأنتَ الآن عائلة.

في طريق العودة ظلَّت تغنّي مع منير الأغنيات الـتي تحفظهـا، تشدو، تترنَّم، تصخب، تهدأ، ترمقني بنظرات حلوة تنسيني مجهـود هذا اليوم الممتلئ بالجدل. قبل أن نفترق دعوتُها للعشاء، قبِلَت دعوتي على أن تكون في الفندق. في الساعة الثامنة والنصـف في المطعـم الصغير الهادئ كنتُ أترقّب حضورها.

صوتُ الموسيقى الذي كان يتـوزَّع في الأرجـاء تحـوَّل إلى نشيدٍ وسلامٍ لوطنٍ صغير، أنا وهـي شَـعْبُه وحاكميـه. وقفـتُ بأناقة الجنتلمان، تناولتُ يدها، طبعتُ عليها قُبلـة، سـحبتُ لهـا المقعد وأجلستُها. شعرتُ وكأنّ كـل مَـن في المطعـم يراقبوننـا، حتى القطّ السيامي الذي تركتهُ صاحبته يلهو على التّرس كان ينظـر نحونا:

هل يخجلكَ ظهورنا معاً؟

سألتني وكأنّها قد انتبَهَت لِما لفَتَ نظري. ابتَسَمْتُ وتناولـتُ أصابعها من فوق الطاولة وطبعتُ عليها قبلة جديدة.

لم يكُن هناك مِن داعٍ لأن أرتدي فستان سهرة، لقد لفتَ نظر الناس إلى أنّي أكبر منكَ كثيراً.

قلتُ مازحاً:

لا عليكِ، سوف أطوف عليهم واحداً واحداً حتى العمّال لأطلبكِ منهم.

راقَت لها كلماتي، طلبتُ من النادل أن يقدِّم لنا أفضل ما في المطعم، أقنعتُها بتذوُّق شيء من النبيذ وطلبتُ لي كأس ويسكي. قبل انتصاف الليل صرنا وحيدين برفقة النادل اللطيف الذي طلبتُ منهُ طلباً أخيراً أنْ يُسمعنى موسيقى هادئة. حرّكتُ قدميّ وقفتُ، انحنيتُ لها، سألتُها أن تشرِّفني بهذه الرّقصة، أطاعتني، رفَعَت يدها، أرقدتُها كتفي، ضممتُها إليّ بسلام، ولصقاً بطاولتنا راقصتُها. كنتُ واقفاً على الأرض، وروحي سابحة في السماء.

على باب غرفتها ودَّعتُها بقبلة على خدها، تمنّيتُ لها أحلاماً حلوة. دخلتُ غرفتي، تذكرتُ أنّي لم أكلِّم أمي اليوم. أسرعتُ بفتح الموبايل، وصلتني رسالة بوجود أكثر من عشرين مكالمة ضائعة. كبستُ على رقم موبايل أمّي، كانت ما تزال ساهرة وقلقة. اعتذرتُ منها بشدّة، أخبرتُها أني كنتُ في رحلة لـ "رم" وأنّ الاتِّصال هناك صعب. غَفَرَت لي لمّا أطمأنَّت عليّ وبلَّغتني أنّ "سارة" قلقة هي الأخرى.

***

النَّقرةُ الناعمةُ التي نزلت على باب غرفتي كانت تصرخ بأن "رُبى خلف الباب". مسألة لم أكُن أفكر بأنها قد تحدث، لو صدف وقضينا العمر متجاورين في الفندق ذاته والطابق ذاته، كانت نقرة واحدة لم تتكرَّر، صار لا بدّ أن أخلع عن نفسي اليأس وأن أزرع مكانه الأمل. لم أعِد ترتيب نفسي، ولا ألقيتُ على نصفي الأعلى ما يستره، هي قفزة واحدة سحبتُ الباب، فرأيتُها واقفة دون أن يبدو عليها الملل من الانتظار. نحَّتني بلطف ودَخَلَت. ارتبكتُ، صرتُ أبحث عن قميصٍ أو بلوزة ألبسها. أشارَت عليّ أن لا داعي لذلك، قالت وهي تجلس على كرسي الحب باسترخاء:

لقد رأيتُكَ في المسبح على هذه الحال.

القيمة التي تكون في الجمال لا تأتي إلاّ بما نخلقه نحن وما نحمله في دواخلنا. لقد كانت أكثر جمالاً، ليست حلاوتها التي كانت تقطر من كل شيء فيها، وكأنَّها نقاط الماء التي كانت تغمرها في أوّل لقاء بيننا، هي ما جعلتها أكثر النساء فتنةً على الأرض، بل ما كان مذوَّباً في عينيها وعلى خدَّيها وفوق أرنبة أنفها وشفتيها الأشهى من حَبّ التوت مِن إعلان الحب على الحياة.

لقد عرفتُ الآن لماذا هاجرتُ، تركتُ حياتي ورائي، ومضيتُ على غير هدى إلى المجهول بلا خوف، نحن لا نحتاج للكثير من الأشياء حتى يصبح لحياتنا معنى، كلّ ما نريده أنْ يقولَ لنا أحدهم: "أحبك" وهو يعنيها.

هي لم تقُل لي بأنها تحبّني، لكنّي أعرف بأنّي أحبُّها.

الحقُّ الذي يملكه البشر جميعهم بلا منازع، ودون أن يستحوذ عليه التخلُّف، أو أنْ يلجمهُ القمْع أو الاستبداد، يكمن في حقِّهم بأن

يحبّوا مَن يحبّونهم، وفي أن يروا في مَن يحبونهم كلّ الجمال والألق والبهاء الذي في الكون. "رُبى" كانت الأجمل والأشهى بين كل نساء الأرض، وكنتُ أنا الرجل الحرّ الذي يرى فيها ما يريد أن يراه مِن جمال وألق وبهاء. الرّوب السَّماوي الذي كانت تغطي جسدها فيه كان ناعماً مثل رقائق السُكَّر، كان مهيأً للتكسُّر إن لامَسَهُ إنسيٌّ غيرها. ماذا تخفي تحتها هذه السماء الصافية؟

هل ستفهمُني؟

سألَتْني متردِّدة.

أنا الكائن الوحيد على الأرض القادر أن يفهمكِ.

العمر الذي نعيشه، هذا الكائن الخرافي، الوهم والظِّلال، الحلو والقبيح، ليس غير الأثر البدائي الذي خلَّفَتْهُ فينا حكايا جدّاتنا، وما تعلّمناه في المدارس ومِن آبائنا، تكّة خفيفة على العقل في اللحظة المناسبة تمسَح هذا العُمْر وتُلقيه في الغيْب وتُعطي للنفس هدأة التبصُّر. العُمْر الذي حَكَت "ربى" عن حلاوته ليس أحلى من عمري الآن، السعادة الوهم التي تعيش بها ليست شيئاً مِن سعادتي، ما انفتح في وجداني في تلك الليلة التي ساهَرْتُ بها القمر حتى غفا كان بتلك الطَّرقة العنيفة التي انهالت على رأسي، طرْقة فتَحَت في عقلي أبواباً مغلقة، أفهمتني بأنّ العمر الحلو الذي تعلَّمناه لا يعدو غير الوهم، العمر حاوٍ مُخادع، مُدهش، يوهمنا بحلاوته، ليست نقرة يد "ربى" الليلة على بابِ غرفتي ما أعلن حضورها، بل نقرتها على عقلها، وطردها للوهم الذي تعيش فيه. أنا مَن جاء له القمر، وهي مَن جئتُ أنا لها.

دنوتُ منها، مسحتُ بيدي على وجهها، قبَّلتُها. كانت طيِّعة وصابرة. هي المرّة الأولى، كنتُ أُقاد لها بعشقي ورغبتي وحيائي.

استسلمَت لي وكنتُ أنا من يستسلم لها. قادتني إلى السرير، خلعَت رقائق السُكَّر عنها، كشفت تحتها عن أنثى أشهى من الفرح.

قادتني، قبَّلَتني، حرَّكَت فيّ غريزتي البريئة الخجلى التي خلَّتني خائباً على الرّغم من أنيّ كنتُ أقوى من الصخر. احتملتني، واحتملتني، غلبني الخوف، لعنة الخوف، لعنة العمر، لعنة التجربة، لجَمَني التنّين الخرافي ونيرانه الحارقة. دَنَت منيّ دلَّلتني، داعَبَتني وخلّتني أسكن فوق صدرها.

لا أعرف على أيّ كوكب بعيد أسير، كنتُ أرى الأرض كرةً صغيرةً أضمُّها بيدي وأعيد إطلاقها لتسبح في ملكوت زماني ومكاني مثل كوكبٍ ذُريّ. قالت كلمات قصائد أو أغنيات، طبَعَت آثار شفتيها حبَّتَيِ التوت على جسدي العاري، بعثرتني، جمَّعتني، أسكنتني وجودها. تحرَّكتُ، تعملقتُ، تأجَّجتُ وانتفضت.

اكتفيتُ من العمر، أريد أن أموت.

طلع الفجر علينا ونحن ما زلنا سهارى. جاء النهار مختلفاً، لون السماء كان عميقاً، والبحر كان يتسحَّب بلطافة يداعب حبّات الرَّمل الرّاقدة على شاطئه باسترخاء، الهدوء الحاط على الأشياء كان يحطّ في رأسينا. لا شيء أحلى من أنّ كلّ ما فيها كان يقول:

أنا امرأة سعيدة.

مُذهلٌ دخول كل شيء في حياتنا في حجمه الحقيقي كلما ابتعدنا عنه. كل ما كان في حياتي قبل الليلة كان ضئيلاً صغيراً مجهريّاً، حتى أسرتي.

***

ما نحسبه أحياناً بأنه البدايات يكون في الكثير من المرّات هو النهايات. دَخَلَت بوّابة المطعم وهي تجرّ حقيبة ملابسها الصغيرة خلفها، ظلّت متجهة نحوي، وقفتُ لاستقبالها، ضمَّتني إلى صدرها، طبَعَت قبلة على خدّي، قالت بهمس خرج بحروف أحرقت وجهي إنَّها لن تنساني طوال حياتها. توسَّلتُ إليها أن تنتظر قليلاً حتى أتيقَّن من أنّ الأيام القليلة التي عشتُها معها لم تكن خيالاً. قالت إنّي كسرتُ فيها أشياء عظيمة، وقالت إنَّها تسامحني للمرة الثانية لما فعلتُه بها، كانت حزينة، أو مرتاحة لم أقدر على قراءتها، طلبتُ منها أن نعود معاً إلى عمّان، توسَّلتُ لها، قالت:

أريد أن أرجع ضعيفة، لا أريد أن أظلّ قويّة حتى لا أبقى معك.

تكلَّمَت وكأنَّها تسحب الأحرف من بئر:

لا أريدكَ أن تقوّيني على نفسي.

رَفَضَت أن تعطيني رقم هاتفها، أو عنوانها، ولا حتى باقي اسمها غير هذا الذي لا أدري إن كان صحيحاً "رُبى". قلتُ فيما كانت تتململ وتتلفَّت حولها وكأنَّها تبحث عن مخرجٍ سريعٍ للفرار:

"رُبى" يجب أن تعرفي أنّ الأيام التي عشتها معكِ هي أجمل أيام عمري، لن أحتمل فكرة أن أضيِّع وقتاً أكثر وعمراً أطول لأحظى بأيام مثل هذه.

ردَّت عليّ ونحن ما زلنا نقف متقابلين، وبما يشبه الاعتراف:

لقد فجَّرتَ في حياتي ما كنتُ أخاف منه، لا أدري إن كان يجب أن أكرهكَ أم أحبكَ، لكن ما أعرفه وما يجب أن تصدِّقه أنّي صرتُ أريدكَ في حياتي.

تحمَّستُ لِما تتحدَّث به، حاولتُ مقاطعتها، لم تعطِني الفرصة لذلك، قالت:

أعرف أنّي سوف أخسر حياة حلوة، لكن للأسف أنا أحب حياتي كثيراً.

أكمَلَت وهي تبادر بالمغادرة:

تذكَّر أنْ تخصِّص لي مكاناً في حياتك، ثِق بالمجهول، فنحن لا نعرف ماذا يخبئ لنا.

قلتُ متوسِّلاً:

أنا وأنتِ نمتلك الوقت الآن، هي فرصتنا لأن نبني شيئاً يكون لنا، أريد أن أكونَ معكِ.

شدَّت على يدي، عادَت وعانقتني، ومَضَت.

***

المَعْبَر

رَحَلَت رُبى.

سقطتُ على المقعد. الأشياء من حولي بدأت بالتَّلاشي، الصورة الأخيرة التي انعكست على شبكيّة عيني كانت تلاشيها. خمدَت الأصوات من حولي بطيئاً حتى غابت، انقطَعَت أنفاسي، كفَّ قلبي عن الخفقان، وانتهيت.

غاب عنّي الوجود، سمعتُ صوت النادل وكأنه يسألني للمرّة العاشرة إن كنتُ أرغبُ في طلب شيء؟ تنبَّهت، تحرَّكت عن مقعدي، وقفتُ وسرتُ خارجاً دون أن أقول شيئاً. لم يكُن صوتي معي، ولم يعُد عندي قدرة على الإبصار، مشاعري كلها أُطفِئت. وصلتُ غرفتي وأنا ما زلتُ فاقداً وعيي. استلقيتُ على كرسي الحب، تنبَّهتُ بعد وقت لا أعرف مدّته على صوتٍ طَرَقَ الباب:

HOUSE KEEPER

تحرَّكتُ بصعوبة، فتحتُ الباب، كانت صبيّة صغيرة بخلقة بائسة واقفة قرب عرَبَتها الممتلئة بالمناشف والأغطية، طلبتُ منها أن تعطيني بعض الوقت حتى أجمع أشيائي.

غادرتُ الفندق دون أن أفكِّر بما سأفعله، سرتُ صوب الشاطئ الشَّعبي، كان فارغاً، وكانت الشمس معلّقة فوقه وكأنها تحرس

نارها من العابثين. بقيتُ ساعاتٍ أصطلي بحرارتها حتى قاربتُ على التَكَسُّر، وصارت هي تتسحَّب ببطءٍ لتختفي خلف الأرض المجهولة.

حسمتُ أمري بأن ألحق برُبى إلى عمّان، سوف أبحث عنها في كلّ بيت وحارة وشارع، سوف أسأل كل الهيئات الدوليّة والمحليّة عنها، وعن زوجها الذي لا أعرف مَن يكون. انطلقتُ في سيارتي وكأني أسابق الوقت صوب عمّان.

لا يوجد في الحياة شيء اسمه الحظ، هي المُصادفات التي تُلقي بنا في مواقيت محدَّدة في حوادث جديدة، وتعرِّفنا على أناس غرييين، وتسوقنا لنخوض غمار العمر. نحن مَن نعطي لفعائل العمر فينا صفاته حتى تواسينا أو تقوّينا، لأنّنا نعجز، أو نخجل من الاعتراف بأنّنا عندما نعيش مثل هذه الحياة، وندجِّنها، ونحتمل قسوتها، وننجز فيها ذواتنا، بأنّنا كنّا فرساناً مُجالدين، وعندما نُهزَم ونتحطّم بأنّنا جبناء.

لا حظّ حَسَن، ولا حظّ سيِّئ، الحظّ كذبة العاجزين، هي المُصادفات غير المرسومة، وغير المخطَّط لها ما تملأ خانة في أجندة حياتنا أو تفرغها، هي التي تبني أو تنزع حجراً مِن "ليغو" أعمارنا، الحاذق من البشر هو مَن يعرف كيف يواجه مُصادفات عُمْرِه، ويفهم كيف يستعملها.

عند الكيلو 180 ارتجَّت السيارة وبدت وكأنَّها تلتقط أنفاسها الأخيرة، أبطَأَت، أخرَجَت أصواتاً جافّة ثقيلة وسَكَنَت مرّة واحدة، قوّة دفْع سُرعتي الزائدة خلّتني أنحي بها نحو الصحراء بعيداً عن الشارع الرئيسي. تهادَت بصَمْتٍ وبطءٍ على الرِّمال إلى أن توقَّفت نهائياً. لقد تنبَّهْتُ أخيراً لمعنى الضوء الأحمر الصغير الذي كان يذكِّرني بأني قد نسيتُ أمر البنزين، حتى الصفير الذي أثاره عدم اكتراثي لهذا

الضوء لم أكُن أسمعه، إلى أن عاقبني بشماته وزفَّ لي بِصَمْتِهِ خَبَرَ أنّ الوقودَ قد نفد.

ركنتُ جانباً، كنتُ وحدي والسيارة والعتمة المخيفة. مضى بعض الوقت وأُطفِئت الأضواء بخُفوتٍ لا يُحَسّ، وكأنها تزيد من عقابي، ظلّت اشتعالتها تخبو بلا صوت حتى خَمَدَت. صرتُ وحيداً مع العتمة. خرجتُ من السيارة واخترتُ موضعاً على الطريق أتربَّص منه أيّ عربة عابرة لُمساعدتي، محاذراً من أن يصدمني سائق متهوِّر مسرع، بقيتُ بعيداً عن الطريق معلقاً فوق الرمل يصفعني هواء حاد مثل النصل.

لم أفهم معنى تجاهلي من الحافلات التي عَبَرَت من أمامي ومِن تلويحي لسائقها برجاء أن يتوقَّف. تظلّ مُنطلقة مثل السهم مبتعدةً عنيّ بسرعة البرق دون أن يعيرني قائدها انتباهاً وكأنّي شبحٌ خرج من باطن هذه الصحراء المقفرة. استمرّت الحافلات تزيد من سرعتها عندما تصير قريبة مني وكأنها تهرب من شيء يخيفها ويهدِّدها. لم أجد تفسيراً لهذا السلوك البشري الغريب، كيف لا يُبادر الناس لمدّ يد العون لَمن يحتاجه ولو ببضع كلمات تشجيع أو مواساة؟

الخوفُ من الآخر وعدم تآلفنا ككائن واحد متشابه هو ما يقصينا بعيداً بعضنا عن بعض، ليس هذا ما تعلَّمتُهُ في حياتي في البيت وفي المدرسة والجامعة وفي العمل بعدها، ما تعلَّمتُه كان عكس ذلك تماماً؛ بأنَّنا يجب أن نغيث المضطرّ والمحتاج والغريب والمهاجر. ماذا لو أنّ هذه الحالة انقلَبَت وصرتُ أنا في سيارتي الملأى بالوقود أمضي بسرعة الريح أحاول أن أتجاوز المَعْبر الطويل المُعتم محاولاً اللحاق بالنُّور، هل سيلفت نظري كائن معتم وسيارته المقصيّة بعيداً؟ هل

سأحمِّل نفسي عناء أن أدوس على مكابح السيارة بكل قوّتي لأخفِّف من سرعتها، وأتوقَّف بعد أن أتجاوزه بعشرات الأمتار وأرجع لمساعدته؟ أم إنّي سوف أتكاسل وأظلّ محافظاً على اندفاعي وأنسى بأنّي قد انتبهتُ لوجوده؟ قد أقف لمساعدته لو لم أكن منشغلاً بالتفكير برُبى التي سلبت منّي نفسي، وغابت وتركتني تائهاً ضائعاً، وممتلئاً بالخوف.

لا يقف لنجدة الآخرين سوى خالي الذهن.

شعرتُ بذراعٍ قويّة وكأنّها نزلت من السماء تلتفّ حول عنقي وتجرّني إلى الوراء بعيداً عن الطريق، لم تُجدِ مقاومتي، فقد كانت يدٌ وكأنها من الفولاذ على الرغم من صغر حجمها، قاومتُ، حاولتُ التفلُّت بحركات انفعالية غريزيّة من هذه القبضة التي أحكَمَت سيطرتها على عنقي وكتَمَت على أنفاسي. حاولتُ تحريكها لألتقطَ نفساً يساعدني على فهم ما يجري لي والتفكير بهوْل المفاجأة، بلا جدوى. بثوانٍ قليلةٍ أضحيتُ مقيَّداً وأسيراً لكائنٍ لم أتبيَّن شكله بعد.

على الرغم من إحساسي بضآلة الكائن الذي كان يحاصرني، إلا أنّي لم أستطِع بكل ما أُوتيتُ من قوّة أن أبعده عنّي، أو أن أمنعه من جرّي مثل الشاة. نصلٌ حادٌّ باردٌ انغرس في عنقي. كنتُ في تلك الثواني، الدقائق، الساعات، العمر، أعيش كابوساً ثقيلاً، لا أتذكّر أنْ كنتُ قد جرَّبتُ كيف يكون الكابوس، أو قد أكون عشتُه بعد وجبة عشاء ثقيلة، أو بعد مُشاهدة فيلم رعب. الكابوس الذي يتلبَّسني في هذه اللحظة جاء مبكراً، ابتدأ قبل أن أتَّجه إلى سريري، وأندسّ تحت اللحاف، أحشائي فارغة لا عشاء ثقيل فيها، ورأسي خالٍ من فيلمٍ مُرعبٍ، كلّ ما أحمله لا يعدو غير ألمٍ على فراق امرأة غيَّرَت عالمي.

ما يحدث لي الآن كابوسٌ ثقيلٌ مثل تلك التي تُفقِد الشخص القدرة على التحقُّق إن كان في سريرِه أو أنه يعيش في مَعْمَعَة الأحداث التي تستولي عليه؟ في الكوابيس التي عشتُها كنتُ أصرخ بصوتٍ عالٍ مُرتعبٍ فلا يسمعني أحد، ولا أسمع صوتي، لكنّي الآن أسمعُ صوتي وحشرجاتي، وأشُمّ رائحة فم الشخص القابض على عنقي العبِقة برائحة السجائر والخمر، أيّ كابوس هذا؟ ما هذا الرُّعب الغريب؟ مِن أين تجمَّعَت كل هذه الشياطين وحطَّت عليّ؟ كيف أمتلأ هذا المُستولي عليّ بكل هذا الحقد وأنا لم أعرفه من قبل، ولا سبق لي أن آذيته؟ أيكون زوج "ربى"؟ إن كان هو، فكيف حَدَثَ والتقطني هنا؟ كيف عرفَ أنّ وقود سيارتي سوف ينفد في هذه المنطقة بالذات؟ هل كان يتبعني؟ لكنّي لم ألمح أيّ عربة تقف قريباً أو بعيداً منّي. هل هبَطَ من السماء؟

بقيت مُعلَّقاً بالذراع وأنا أُجَرُّ مثل كبش نحو المذبح مُخلِّفاً ورائي خطين متوازيين محفورين بالرمل، هذان الخطان الذان تبينتُهُما بالبصر أو بالشعور هما ما بقيا لِيَدُلاّ على أنّي قد عَبَرتُ مِن هنا.

سمعتُ أصواتاً، رجالٌ يتهامسون، قرقعة سكاكين وأسلحة، أحسستُ بحركاتٍ فوضويّة ملأت المكان بالضجيج. لم أكُن قد اعتدتُ على الرؤية بعد حتى ألقَت بي الذراع الفولاذيّة على الأرض. صرتُ قادراً على تبيُّن مَن هُم حَوْلي. حفنةٌ من الرِّجال ملثّمي الوجوه وعَرَبَتيْ جيب، وأنا بينهم.

الخوفُ الذي يصيبنا ثم يسكن فينا هو الذي يقتلنا. الخوفُ الذي يتنامى فينا ليصير فَزَعاً ويرتقي ليُصبحَ رُعباً يُنجّينا حتى لو قُتلنا. ارتقى الخوفُ فيّ من لحظة أن انقضَّت عليّ ذراع الرجل الضامر

وصار رُعباً، فلم يعُد هناك ما يخيفني، فكّرتُ بأنّ خلاصي مِن ألمي قد تجلّى في هذه اللحظات. حاولتُ الوقوف، أعادني بُسطارٌ ثقيلٌ حطَّ على كتفي إلى الأرض. اختَلَطَت عليّ الأشياء، فلم أعُد أعرف ما الذي سوف أُقدِم على فعله، هل أتكلّم؟ أقول شيئاً أيّ شيء، أتوسَّل إليهم، أو أن أبكي؟ أم الأجدى مِن كلّ ذلك أن أرضَخَ لِما صرتُ إليه واستسلم؟ الرُّعب الذي كنتُ أعيشه لجَمَ لساني قبل أن يلجِمَ عقلي، وجفَّفَ دموعي فلم أبكِ، بقيتُ مُحافظاً على صمتي، شعرتُ بسائلٍ باردٍ يسحلُ على عنقي، رفعتُ يدي أتحسَّسُ هذه البرودة وأنا أتهيأ لرفسةٍ جديدةٍ من بُسطارٍ أو حذاء. تلمَّستُ سائلاً لزجاً دبقاً يغطّي عنقي انبَعَثَ من ثغرةٍ صغيرةٍ مشظاةٍ مِن لحمي دون ألم.

ماذا تفعل هنا؟

السؤال لي، رفعتُ رأسي وأنا أشدّ على عنقي محاولاً وقف نزْف الدم، أجبتُ باستسلام وبصوتٍ ميت:

نفد منّي الوقود.

ضجَّ الرِّجال الذين يحيطون بي بالضَّحِك، وكأنَّ ما قلتُه لا يعدو غير طرفةٍ مُضحكة، أخذوا يتقاذفون التَّعليقات بدفقٍ سريع:

في أيّ فندق نفد وقودك؟ مَن التي شَفَطَتْهُ منك؟ هل يعرف أبوكَ بأنكَ تنضَب بسرعة؟

سمعتُ كلماتٍ وشتائمَ ولعناتٍ عليّ وعلى جيلي، وعلى الأسرة المُترفة التي جعلت ولداً مثلي يمتلك سيارة بهذه القيمة.

الـ "ما بعد" هو الأكثر أهميّة من كل هذا الذي يحدث. ها هو المجهول الذي تريدني رُبى أن أثق بوجوده ينكشف لي. ماذا بعد؟ هذا

ما كنتُ أسأل نفسي عنه. تناول أحدهم تنْكاً بلاستيكياً من إحدى السيارات ومشى بها صوب الطريق العام حيثُ غَدَرَت بـــي سيّارتي، أقعى أحدهم قربـــي، مدَّ لي سيجارة، لم يكن لديّ الرّغبة بالتدخين أو بفعل أيّ شيء غير أن أغمض عينيّ وأغيب عن اللحظة، ولا أعود لوعي إلاّ بعد أن ينتهي كل ما يجري الآن.

عرفتُ صوت ماتور سيّارتي التي كانت تقاوم رمل الصـــحراء باندفاعات فوضويّة على غير هدىً دون أن تُشعل أضواءها، اصطفَّت بجانب سيارتي الجيب، ترجّل منها الرجل الذي ذهب حاملاً التَّنْـــك البلاستيكي. بدأوا يتشاورن في ما بينهم في تقرير مصيري. ما فهمتُه من مصطلحاتهم الغريبة لم يكن مُفرحاً:

"نطعنه ونواريه؟ نغزه؟ نربطه؟"، إلى أن وصلوا لقرار سريع في لحظات:

نتركه لمصيره.

هل المصائر التي تتربَّص بنا بهذه الكثرة؟ كم مِن مصير واجهتُ من لحظة أن تملّكتني الرّغبة في مناكفة السأم؟ غادرتُ أهلي، تركـــتُ عملي، هجرتُ "سارة"، نجوتُ من الموت تحت هامة جملٍ شـــاردٍ، همتُ عشقاً بامرأة غريبة، سلّمتُ نفسي طواعيةً لقطّاع طُرُق، صرتُ رهين أمرهم ومزاجهم. كيف لكلّ هذه المصائر أن تكون بهذه الكثرة في بضعة أيام من حياتي؟

حسموا أمرهم وخلّوني أرحل. ها هم يلقون بـــــي في وجـــهِ مصيرٍ جديد.

رأفةٌ طَعمُها غريبٌ تلك التي تملَّكَتهُم نحوي، النَّقيض لأفعـــالهم ونواياهم؛ فصام، وتشظّي لا أقدر وأنا في هذه الحـــال أن أفسِّـــره،

كيف تتلبَّس هذه الناس الحال الغرائبيّة ذاتها مرّةً واحدةً وتُفارقهم في اللحظة ذاتها؟ خطّطوا لسرقتي، فكّروا بقتلي، حزّوا عنقي، سحلوني مثل شاة على الأرض، داسوا عليّ، سلبوني سيارتي ونقودي، وأخيراً أطلقوني.

الدقائق التي انقَضَت من لحظة أن أطبق الكائن المسْخ الضئيل على عنقي وهو عازمٌ على حزِّها، حتى الدقيقة التي أطلقوني بها، مَضَت بي مثل رحلة عمر طويلة.

هل هم أبرياء فحرَّروني؟ أم جبناء يخافون من القادم المجهول؟ هم مثل "رُبى" يتحسَّبون من المجهول رغم كل ما فيهم من قسوة، وبالرغم من جرأتهم إلاّ أنهم مثلنا يخافون، كلّ واحد منهم كان يفكِّر بالاحتمال الأسوأ، إن كُشِفَ أمرهم؟

لم يشفقوا عليّ، من أين يفترض أن تأتي الشفقة لمجرم وقاتل؟ ليست الشفقة هي ما خلَّتهم يطلقوني، ضبابيّة وتناقض القادم الذي لا يعرفون ماذا يمكن أن يكون هو الذي دَفَعَهُم لذلك.

تعطُّل سيّارتي، وانكشافي كان القادم المجهول قبل أن يقنصوني، وعندما صرتُ صيداً سهلاً ومُنعزلاً، صاروا يتخيّلون القادم وكأنّهم يعيشونه. اتَّفقوا في ما بينهم أن يرسلوا واحداً منهم ليباغتني، ويجرّني ويُلقي بي تحت نعالهم، القادم كان مُشهَراً ومكشوفاً لهم. مأزقهم الآن في القادم الجديد بعد أن أنجزوا مهمّتهم الأولى بأسهل ممّا فكّروا، أو تخيّلوا، القادم بعد ذلك هو المُعضلة التي صاروا يواجهونها، أضحى هو المُبهم والمجهول، هو الذي فرَّقهم وأسكتهم، صاروا يفكِّرون فُرادى لا يوحِّدهم شيء سوى الصَّمت، يسألون أنفسهم عمّا هو الآت، ماذا بعد؟ إجابتهم جاءت بأن يتركوني لمصيري؛ وكأنهم

يغسلون أيديهم مِن دمي، قالوا إنَّه لن يكون سهلاً عليّ أن أصِلَ إلى أيّ حاضرة إلاّ بعد مسيرٍ طويل، هم يعرفون بأنّ لا أحد سيأمن لي ويتوقّف لالتقاطي في هذه الظلمة وفي هذه الأرض المنعزلة سوى الضِّباع. هذا ما جاء في حيثيات حكمهم، وكأنهم يبحثون عمّا يبرِّر تغلُّبهم على شهوة القتل التي كنتُ أراها في كلّ ما يفعلونه أو يقولونه. قرَّروا إطلاق سراحي وإيكال مهمّة قتلي للضِباع.

هل يمكن لإنسانة مثل رُبى أن تعرف بأنّ حياتي كلها من يوم أنْ سقط الاتحاد السوفييتي، إلى أن فارَقَتني وترَكَتني متكسِّراً ومهشّماً، كانت متوقِّفة على قرار يأخذه وينفذه قاطعو طريق؟ بَشَرٌ لم أكن قبل لحظات أعني لهم أو يعنون لي شيئاً، لم يكونوا يعرفوني، ولم أكن أعرفهم، ولا حتى إنّي كنتُ أعرف أنّهم حقيقةً يمكن أن يكونوا موجودين على الأرض.

هذه الناس التي لا أعرف أسماءها، ولا ألوانها، ولا مَن تكون، هي التي حَكَمَت عُمري. فكرة اقترَحَها أحدهم خلال جلسة سُكْر رخيصة، أو في حالة غضب من زمانهم، فكرة خلّتهم أولياء حياتي. هؤلاء الذين لا أعرفهم هم مَن أضحوا القيمة الأهمّ في عمري، لا بل صارت حياتي ملكاً لهم. فما عادت الأشهر التي عشتها في بطن أمي، ولا السنين التي عشتها في بطن مدينتي عمّان، هذه المدينة المُستفزّة، الغضبى، الساخطة على الدنيا، ما عادت تعني لي شيئاً الآن. هي أوقات وحوادث انقضت، ذكريات لا أتذكّر منها شيئاً. هنا القرار وهنا الحَسْم، عند هؤلاء الغرباء، هم مَن يقرِّر أن تكون حياتي أو أن لا تكون. عند هؤلاء الذين انشقَّت عنهم الأرض، وهبطتُ لهم من السماء، يُحْسَمُ أمرُ وجودي، أو نأيي عن هذا الكون العظيم.

ماذا كنتُ أنتظر وهم يتشاورون في ما بينهم بمصيري دون أن يشركوني معهم بالقرار الذي لا يعني أحداً أكثر منّي؟ بماذا كنتُ أفكر؟ كيف كنتُ أشعر بعيداً عن الخوف؟ ليس هذا هو الوقت لأنْ أعرفَ الإجابة عن هذه الأسئلة، إنْ حَدَثَ وبعثوني حيّاً، وإنْ حَسَموا أمرهم بإعادة روحي إليّ، سوف أبحث عن إجابة تقنعني، هذا إن حَدَثَ ونجوْت، ليس الآن، لقد تعطّل عقلي وتنحّى بعيداً عنّي.

ما كان يهدر في داخلي مِن رغبةٍ في العيش، لفتني إلى أنْ أعترفَ بأنّي حقيقةً لا أعرفُ شيئاً عن الدُّنيا، ولا عن ما تعنيه الحياة فوقها، في أعماقي النائية البعيدة كان يتحرَّك شيءٌ لطيفٌ يداعبني، ويلوح من بعيد مثل النُّور، يتراقص مثل ضوء شمعة، يضمرُ إن سمعتُ صوت الرِّجال مِن حولي حتى يوشك أنْ يخبو، ليرجعَ ويومضَ مِن جديد إن سكتوا. أكادُ أجزم بأنّ هذا الشيء هو ما يسمّى الأمل.

يا إلهي كيف يكونُ الأملُ ساحراً ومثيراً لهذه الدَّرجة؟ فهو لا يعدو غير أنْ يكونَ غيابَ الحاضرِ الشقيِّ التَّعِسِ عن المُخيّلة. يلوحُ من اللامكان، واللازمان، واللاكائنات، ينبعثُ مِن هدأة العقل، أو مِن غياب الوعي، ومِن تلاشي الزَّمن. عندما كنتُ أراهم متردِّدين في حسْمِ مسألةِ حياتي؛ أنْ يهبوها لي، أو أنْ يستلبوها منّي، مثلما سلبوا سيارتي ونقودي وموبايلي وساعتي. كنتُ أرى الأمل ينقر على بوّابة روحي بأناةٍ، وسلام.

السعادةُ التي تتملَّك الإنسان في مثل هذه اللحظات، لا يشبهها شيء في الدنيا غير الميلاد الذي لا نعي جماله إلاّ بعد أن نعي معنى وجودنا. هل سأكون ممتنّاً لهذه العصابة التي أبقَت على حياتي إلى آخر يومٍ أعيشه في الدُّنيا؟

عندما استعدتُ تذكُّر ما جرى معي وأنـــا أمضـــي هائمـــاً في الصحراء أبحثُ عن الخلاص، فكّرتُ بأنّي ممتنٌّ لهؤلاء المجرمين قطّاع الطُّرُق، أكثر من امتناني لأحد آخر على الأرض، و لم أفكر بأنّ هـــذا الذي أهذي به ليس إلاّ ارتداداً لنشوتي وفرحي بالنَّجاة من المـــوت، هل كان يجب على هؤلاء اللصوص أنْ يسلبوني حياتي التي هي ملكي أنا وحدي، ليمنّوا عليَّ عندما يعيدونها لي؟

***

ذو النَّدْبة

العَهدُ الذي أخذتُهُ على نفسي وأنا أمضي في المَعْبر المظلم الموصل إلى عمّان، وأقسمتُ أن أفي به، وأن لا أتخلّى عنه مهما واجهتُ في قادم حياتي، لا عودة لعمّان، لا للبحث عن "رُبى"، ولا لاستكمال مشروع العُمر مع "سارة" التي عرفتُ بأنّي لم أعُد أحبُّها، أو بأنّي قد أحببتُها يوماً، لن أريحَ أمي مِن خوفها عليّ، خوفها وحزنها لن يكونا بحجم خوفي وحزني على نفسي مهما صار عظيماً، لأعيشَ حياتي حقيقةً يجب أن أكون على عكس ما تعلَّمته عنها.

عندما سَرَقَ الرِّجال سيارتي وكل ما فيها وجرَّدوني من النُّقود التي أحملها إلا من بضع قروش كانت في جيبي رموا لي قبل أن ينطلقوا مبتعدين بالسيارات الثلاث هويَّتي ورخصة القيادة وكأنهم يقولون إنَّهم لا يريدون أن أموت غريباً. القروش القليلة التي أحملها لم تكُن كافية لتأمين طريق العودة إلى البيت. أخذوا منّي بطاقات الفيزا والأرقام السريّة ألتي لقَّنتُها لأحدهم وكتبها على موبايله، وهو يتوعَّدني بأنها إن لم تكن صحيحة فسوف يعرف كيف يصل إليّ. أكّدتُ له مستسلماً بأنها صحيحة، وأعلمتُه بأرصدة حسابي البنكي، لم أكن معنيّاً بغير أن ينتهي هذا الكابوس.

انطلقوا بالسيارات الثلاث وتركوني لأفرح بالنجاة. وقفتُ وأنا أضغط بعنق البلوزة التي ألبسها على موضع الجرح الذي بدأ نزفه يخفّ، مشيتُ إلى الطريق العام، وجَّهتُ وجهي صوب الشمال ومضيتُ دون أن أنظر خلفي أو أن أفكِّر بالتَّأشير لأيّ سيارة أو شاحنة عابرة، ولم أدِر عنقي صوب أولئك خاليي الذهن الذين نبَّهوني بأبواق سياراتهم وكأنهم يسألوني المُساعدة؟

كلما تُلبست بالأسى والألم وأوشكت أن أبكي من حجم الغضب الذي في داخلي كنتُ أركل الحجارة والتراب التي تعيق مسيري، لعنتُ كل ما هو مُقدّس وغير مُقدّس، لعنتُ أهلي و"سارة" و"رُبى"، ولعنتُ نفسي لأني لا أعدو سوى كائنٍ تافه، جاهل لا يعرف شيئاً عن معنى الحياة.

الوقت. ما الوقت؟

منذُ وضعتُ ساعتي في جيب السيارة حتى اللحظة التي أمضي بها باندفاع على غير هدى لحيث لا أدري، وأنا لا أعرف ما هو الوقت، ولا ما هو اليوم. أفكار شتّى تنازعتني، عَبَرَت في رأسي مثل رصاصة، في مخيّلتي صور وكلمات وحوادث كثيرة مجنونة وغريبة، عَبَرَت مِن أمامي أمّي وأختي و"سارة" و"ربى" وزملاء العمل والأصدقاء والجيران الذين لم أكُن أتكّلم معهم. تذكّرتُ سائق التكسي الذي سدّ الطريق في وجهي وألقى بي أمام جدارٍ عالٍ عندما حاولتُ أن أتفاداه. عَبَروا كلّهم في رأسي وغابوا.

جاء أبي فَرِحاً ليس لميلادي، بل لسقوط الاتحاد السوفييتي، مدَّ لي أخي "رائد" لسانه وخلاّني أراه وهو يتفنَّن في جمْع النُّقود والخطايا في الخليج. اكتظَّ دماغي بعملاء البنك المقترضين الأشقياء،

الصِّبية الذين يلعبون بكُرةٍ مهترئةٍ على الشاطئ الشعبيّ، الشاب الموغل في اصطناع الأدب على كاونتر الاستقبال في الكمبنسكي، الفلبينيّة التي تهبط من السماء، والنادل الذي أفرغ لي الحلبة لمُراقصة "رُبى". عدتُ لطفولتي، بل قبل ذلك بكثير، لحظة ممارسة أبي وأمي الجنس، رأيتُ قَذْفَ أبي الخاطئ في جوف أمي، وراقبتُ انفلاتي وتحرُّكي مثل الشيطان من خصيتيه أنا وملايين مثلي، ومزاحمتي ومدافَعَتي للملايين الذين يشبهوني، وكيف كنتُ أقصيهم بعيداً بعداء، شاهدتُني وأنا أسابق وأحرز الفوز، وأصل خط النِّهاية حيث الحافلة التي تنتظر الراكب الوحيد، كنتُ أراها تنبض بتسارع وهي تنتشي بتشكُّلها، وترتجف من النشوة، وتتحمَّس للانقضاض عليّ أنا المتحمِّس للسكون فيها.

عَبَرتُ إلى بطن أمي اللزج الدافئ، بقيتُ فيه ساكناً أترقّب لحظات تشكُّلي. أفرح عندما أرى عضواً جديداً ينمو فيّ، أتأمّل انشقاق ذراعي من كتفي، تبهرُني الكتلة الطريّة التي في آخرِهِ وهي تتفرَّع عنها بسلاسة نتؤات صغيرة تنمو لتصير أصابعي. تنبِّهني بلذّة نتفة اللحم الصغيرة الطريّة التي تداعبني بين فخذيّ. انقَضَت الشهور السبعة التي صرتُ بعدها مهيَّأً للدخول. لم تكترث أمي كثيراً لملاقاتي، ترضخ لطبيب العائلة الذي حدَّد هو تاريخ حضوري. بقيتُ في بطنها شهرين إضافيّين لا أفعل شيئاً غير أن أحلم. لم يكن يعذِّبها الشوق مثلما كان يعذِّبني. في الشهر التاسع اكتملتُ، وجئتُ، أستُقبلتُ بوجوهٍ كثيرة، الطبيب والممرضات، ثم أمي وأبي، شاهدتُ رشا الجميلة ورائد المشاكس، بعدها انهَمَرَت الوجوه؛ أهل أمي، أهل أبي، ضيوف، وورد وشوكلاتة. بكيتُ كثيراً،

وضحكتُ، وبدأتُ أتعرَّف على البيت والحضانة والحارة والمدرسة. في الحضانة معلمات يخشَيْنني، يتوسَّلن لي أن لا أبكي، يتحيالينَ عليّ لكي آكل، يمسحن خرائي، يعلِّمنني الأبجديّة، أكبر، يكبر مَن هم حولي ويتكاثرون، أصبح تلميذاً في مدرسة أجنبيّة، يتحرَّك قلبي صوْب صبيّة شقراء صغيرة طيِّبة، نظلّ متلاصقين، ما زلنا متلاصقين. "سارة" أبعد الناس عنّي.

هنا القمر، هنا العقبة، هنا "رُبى"، هنا قُطّاع الطُّرُق. هنا الطريق الصحراويّة، وهنا ها أنا أمشي في الليل والصحراء مُفعمٌ بالغضب. قرَّرتُ أن أبطئ من خطواتي حتى أسبق الزمن. الزمن غبيّ، فهو يحافظ على سرعته، يجب أن أبطئ من خطواتي وأخدعه، أريد أن أتأمَّل زماني ومكاني. أرغبُ بأن أنظر مليّاً في الأشياء، حتى لا يفلت منيّ ما أحبُّ أن أراه، ويفوتَني إن أنا تعجَّلت.

أريدُ أنْ أرى الأشياء على غير ما تحطّه هي في عقلي عنها.

***

لاحَ لي ضوءٌ بعيدٌ باهتٌ لم يشدّني حضوره كثيراً، لم أكُن قد أنجزتُ بعد نَبْشي في تفاصيل السنين الكثيرة التي مرّت عليّ، لم أشدّ خطواتي، بقيتُ ماشياً بالنَّسَق البطيء ذاته، خطواتي توشك أن تلحق بعضها ببعض، صار الضوء قريباً، كنتُ أحادث "سارة" وأعترف لها بأنّي لا أحبها، لم أقدِر على سماع جوابها ولا إبصار دموعها، صار الضوء قريباً منيّ كثيراً، ساطعاً ثابتاً معلّقاً على بوّابة خشب متهالكة عُلِّقت فوقها يافطة مكتوب عليها بحروف مكسَّرة بالعربيّة والإنجليزيّة "استراحة–REST". وقفتُ أراقب المكان من الرَّصيف المُقابل،

مشيتُ بطيئاً صوبه، أحسستُ وأنا على عتبته بتعب وإرهاق شديد.

سحبتُ الباب الذي أصدر زعيقاً ثقيلاً، دخلتُ، لا أحد، وقفتُ أتأمَّل المكان، برّادات ممتلئة بزجاجات الماء والعصائر والصودا. رفوف كثيرة تنوء بحملها من علب شيكولاتة، بسكويت، شبس، مناقل حديد، أسياخ شواء، مستلزمات بحر، أطواق نجاة، كرات وزوارق بلاستيكيّة ملوَّنة متكوِّمة في الزوايا، على الجدار عُلقت صورة للملك.

صفَّقتُ بيديّ وانتظرت، لم أسمع جواباً. أعدتُ التصفيق والمُناداة على اللاأحد. شعرتُ بحركة متثاقلة تأتي من خلف بوابة صغيرة تحاصرها علب محارم ورق وفوط أطفال ونساء. فُتح الباب، برز من خلفه مارد عجوز كان يغالبه النعاس. رحَّب بي وهو يتثاءب، سألتُه إن كان يسمح لي بتناوُل زجاجة ماء من البراد. أعطاني موافقته بهزّة من رأسه، اعتذر عن عدم تنبُّهه لحضوري، قال إنّهُ قد اعتاد أن يتنبَّه إلى أصوات السيارات حتى لو كانت صغيرة، تمتم وكأنهُ يكلِّم نفسه: "يبدو أنّي قد عجَّزتُ". قاطعتُه:

جئتُ ماشياً.

عندما سمع عبارتي عاد له صحوه، تأمَّل ملابسي، اقترب منّي، أخذ يتحسّس بأصابع ضخمة خشنة عنقي دون أن يستسمحني بطلب ذلك. هالهُ منظر الدم الذي يغطّي عنقي وبلوزتي، سألني وهو لا يكفّ عن تلمُّس موضع الجرح بتعاطُف:

صادوك أولاد الحرام؟

لم أجبهُ عن سؤاله، دفعتُ يده بلطف بعيداً عن عنقي، قلتُ:

– أنا بخير الآن.

لن أسِرَّ لأحدٍ بوقائع ما جرى معي. هذا ما اعتزمتُ عليه عندما رأيتُ الفضول يتعربش بعينيه. ما جدوى كل ذلك، كان ما هو كائن. هل أخبره بأنّ سيارتي قد تعطَّلَت، سوف يسألني أين هي الآن؟ لن أكتفي إنْ ابتدأتُ بالحديث عن سطو قطّاع الطُّرُق عليّ، وسلْب كلّ ما كنتُ أملكه، سوف يستدرجني لأعترفَ له بأنه قد تمّ السَّطو على كل حياتي، وبأنّ "ربى" قد سطت عليّ قبل أن يسطو عليها قاطعو الطريق، وأنّ الطريق ذاتها والتي كانت تصرخ عليّ مثل النَدّاهة أنْ أترك عالمي وأمضي معها، قد سطت عليّ؛ مثلما فَعَلَ القمر قبلهم كلهم عندما كشف بنورِهِ الذي أنزله فوقي تلك الليلة بأني كائنٌ فارغٌ، سطا عليّ أهلي ومدرستي و"سارة" وعملي، وكنتُ الأحمق الوحيد الذي لم يَسْطُ على أحد. لن أُخبرَ الرجل، لن أبوحَ لأحدٍ بخساراتي الليلة وأتجاهَل خسائر عمري العظيمة كلّها.

صدمتُ جملاً.

قلتُ مُحاولاً أنْ أطفئ فضول الرجل العجوز.

"لقد نجوتَ بأعجوبةٍ يا بنيّ"، تكلَّمَ بعد لحظة صمتٍ وتفكير.

لم يكُن حاذقاً بإخفاء عدم قناعتِه بصِدق ما قلتُه، التَّجاعيد المرسومة على كلّ ثنايا وجهه كانت توحي بأدب جمّ بأنه لا يصدِّق حرفاً ممّا أقول. هي التجاعيد ذاتها التي أفهمتهُ بأنّي لا أرغب في الكلام، ودفَعَتهُ لأن يحترم رغبتي. أمثال هذا الرجل يعرفون أنّ الجمل لا يعطي فرصة النَّجاة لَمن يصطدمون به.

الجرحُ الذي في عنقي لا يصنعه جمل، بل نصلٌ حادٌّ بقبضةٍ قويّة. قد يكون صاحب هذه القبضة اشترى النصل من دكّانه؟ هو مَن باع الخنجر للِّص الضئيل الضامر الذي استولى عليّ، ثم وَهَبَني حياتي بمشيئته.

وضعتُ على الطاولة التي أمامه القروش التي في جيبي، طلبتُ منه أن يأخذ ثمن زجاجة الماء التي كرعتُها بجرعةٍ واحدة. اقتَرَحَ أنْ يتَّصل بالشرطة لكي تتكفَّل بأمر إيصالي إلى أهلي، أو أن ننتظر شاحنة أو سيارة تتوقَّف للاستراحة هنا لتقلّني إلى حيث أريد. قلتُ له وأنا أنازع عينيّ لتبقيا مفتوحتين:

لا أرغب بالسفر الآن فأنا مُجهَد.

ماذا ستفعل إذاً، هل ستكمل طريقكَ ماشياً؟

سألني باستهجان.

لا أدري. هل يوجد مكان قريب أبيتُ فيه الليلة؟

في كلِّ مرّة تلتقي بها بغريب تجد أنّكَ قد التقيتَ بشيء ما يشبهك. الحوار هو ما يكسر الحواجز التي تباعد بين البشر، لو أني تناولتُ زجاجة الماء ودفعتُ ثمنها وجلستُ خارج الاستراحة و لم أعطِ الفرصة لهذا العجوز بالكلام معي والسؤال عمّا حدث معي، وحتى بتلمُّس جرحي، لعُدنا غريبين، ولفكّرتُ بما سوف أُقدم على عمله، لكنه عندما كان يرى إرهاقي وخوفي، وعندما تكشّفت له بسهولة، أحسّ بأني محتاج لملجأ أو زاوية أسكن فيها لنفسي، اقتَرَحَ عليّ دون مقدِّمات أن أستريحَ في المخزن الذي خلف الباب الذي خرج منه. قال إنهُ قد شبع نوماً، وإنّ النهار قد أوشك على البزوغ وقد آن وقت وضوئه وصلاته. بدا لي طيِّباً سهلاً وكأنه هو مَن أرادني أن أعينه على اجتياز ما تبقّى من هذه الليلة بسلام عندما صار يسوق الأسباب التي تجعله يترك لي مكانه في المخزن لأستريح فيه. أيّ صلاة وأيّ اكتفاء من النوم هذا الذي يحكي عنه والليل كان في أشدّه؟

دخلتُ إلى حيث أشار عليّ خلف الباب، صندوق خشب هجين ضخم، قطع غريبة جمّعتها مسامير وأبازيم، فتَعانَقَت وصارَت مكاناً لاستراحة الرجل. سرير حديد صدئ، فراش من القطن والصوف والقماش، وسادة تنفر منها رؤوس أعواد قشّ جاف، على الجدار عُلِّقت صورة للملك الرّاحل وكلاشينكوف.

لا الخشونة، ولا الرائحة العطنة، ولا انعدام النظافة، ولا الخوف، ولا تغرُّبي عن كل ذلك مَنَعَني من أن أسقط على السرير مثل القتيل، وأن أحتضنَ الفراش وكأنّه صدر "ربى"، وأن أذهب في إغماءةٍ عميقة.

الأحلامُ زوّارُ النائمين المرتاحين، والكوابيس زوّارُ النائمين المُتعبين، والغياب زائرُ مَن يشبهوني. كنتُ عطِشاً للنوم، لم تكُن هذه الليلة الأولى التي لم أنَم فيها، فكلّ لياليّ من لحظة أن رأيتُ "رُبى" للمرّة الأولى كانت ليالي سَهَر وأرق، هذه هي المرّة الأولى التي أنام فيها عميقاً دون أرق ولا أتململ.

استيقظتُ بمشيئتي، كان المكان هادئاً وكأنه بقعةٌ نائية على جزيرةٍ استوائيّة. استغرقتُ بعض الوقت حتى استجمعتُ نفسي وتذكَّرتُ أين أنا، فركتُ عينيّ، مشطتُ شعري بأصابعي، هندمتُ بنطالي وبلوزتي الممتلئة بالدم، ودخلتُ إلى حيث العجوز الذي كان يتبادل حديثاً هامساً مع رجلين هرمين، هبّوا ثلاثتهم يسلِّمون عليّ بحرارة وكأني ضيفٌ عزيزٌ طال انتظارهم لقدومه. هنّأوني بالسَّلامة، ودفعوا لي كرسيّاً من القش جلستُ عليه من غير أن أتكلم إلا بشكرهم، سَكَبَ العجوز الشاي الذي عرّفني باسمه قائلاً وهو يرفع كفّه المنبسطة ويُسكنها صدره: عمّك "عواد أبو الفهد"، وعرَّفني

بالأبوين الآخرين. مدَّ يده لي بكوب الشاي الذي بدا أنه الوحيد الذي يتداولونه في ما بينهم، تناولتُهُ من يده ورشفة حلوة تلو أخرى أذابت المرار الذي في فمي.

لم تَجدْ مجاملاتي المُبالغ بها، ولا شكري الكثير المتكرِّر للعجوز أبو الفهد أُذناً عند أيّ من الرِّجال، كنتُ وكأني أكلِّم نفسي، استسلمتُ لرفضهم الصامت لكل ما تفوَّهتُ به، ودُفعتُ لأن أبحث عن طريقة مختلفة للتواصل معهم بعد أن أشعروني بأني أثرثر بكلمات سقيمة لا تعنيهم، كانوا وكأنّهم يسعون لإفهامي أنّ هذا الذي قدَّمهُ لي الرجل صاحب الاستراحة هو ما تفعله البشر بطبيعتها. انسحبتُ من ثرثرتي الفارغة ومضيتُ معهم أشاركهم الحديث عن داعش، وعن تدخُّل الروس في سوريا الذي سوف يحسم المعركة، وعن ارتفاع الأسعار.

سَحَبَ العجوز مِن جيب بنطاله موبايل نوكيا قديم بالكاد يُرى مِن بين أصابعه، كَبَسَ على عدد من الأزرار وهو يقرِّبهُ من عينيه تارةً ويبعدهُ تارة، انتظر سماع صوت من الطّرف الآخر، قال بصوتٍ جهوريّ:

"أم الفهد، إبعتي الولد بالغداء، الضيف صحي".

قطعنا الوقت بالكلام، نظرتُ من باب الاستراحة أبحثُ من أين سوف يأتي الولد الذي تكلّم عنه، كلّ ما يحيط بالاستراحة لا يزيد عن كونه صحراء قاحلة، أخيراً جاء الولد، انشقَّت الأرض وخرج منها، كان يحمل طبق ألمنيوم مكشوف لا يغطّي ما فيه سوى أرغفة خبز رقيقة، لحق به ولدٌ آخر من العمر ذاته الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة كان يحمل بيده وعاءً ينبعث منه دخانٌ يعبق برائحة استفزَّت أمعائي وذكَّرتني كم أنا جائع.

سألتُ الولد بعد أن وضع حمله على طاولة صغيرة كنّا نحيط بها أنا والعجائز الثلاثة من أين جاء، فأنا لم أرَ عماراً قريباً، ردَّ عليّ وهو يشير بيده في اتِّجاه الغرب: من "دير الما". أضاف أبو فهد إنّ "دير الما" هي بلدتهم التي لا تبعد كثيراً عن هنا. سأل الولد العجوز الذي تبيّن لي بأنه جدّه إن كان يطلب منه شيئاً آخر وهو يتحفّزُ للانطلاق، ضَرَبَه الجدّ على إليته مُداعباً، قال له ممازحاً: لا نريد أنْ نؤخِّرك عن الحارة.

كان الغداء شهيّاً، التهمتُ بيدي لُقَماً كثيرة من الأرز واللحم دون أن أشعر بذاك الخجل الذي كان يعتريني في الولائم العامّة التي كنتُ أشارك بها في عمّان. بعد الغداء، وبعد كأس الشاي الثقيل الحلو الذي قَدَّمه لي "أبو فهد" بعد أن غسله، خرجتُ أستكشف المكان.

الطريق الصحراويّة ذاتها التي عبرتُ منها صوْب العقبة، ذات الامتداد اللانهائي، الحرّ والقيظ والسّراب الذي يلمع في كل الآفاق. لم أتذكّر إنْ كنتُ قد عبرتُ من هنا وأنا ماضٍ وراء نداهتي قبل أيام، أو أنّي قد فكّرتُ كيف تكون الناس التي تعيش في مثل هذه الأماكن. تأمَّلتُ الأفق البعيد القادم من الجنوب والبحر، هناك تركتُ "رُبى"، قريباً من هنا تركتُ مَن قطعوا طريقي. أدرتُ رأسي صوْب الشّمال؛ صوْب عمّان، هناك تركت وهمي.

هنا في أطراف "دير الما" كنتُ ليلة أمس، هنا سكنتُ، وهنا أحسستُ بأنّي آمنُ على عمري.

***

"دير الماء"

حدَّثَني أبو الفهد الذي صارت تجمعني به أُلفة غريبة عن "دير الماء"، هم يلفظونها "دير الما" وقد سمِّيت بهذا الاسم لوجود بئر عظيمة فيها لا تنضب ماؤها، وقد سكنها الرومان وبنوا فيها ديراً عظيماً هدمه الزمان والغزو، فلم يبقَ منه سوى أطلال لا تغري السائح بزيارتها. في ما بعد بحثتُ عن أصل هذه القرية وأصل اسمها، فلم أجد غير شرحٍ لمعنى "الما، ALMA" وهي كلمة إسبانيّة تعني "روح الفتاة"، أعجَبَني هذا الشَّرح أكثر، وإن لم أجد ما يدلّ على أنّ الإسبان قد غزوا هذه المنطقة، أو كان لهم حضورٌ فيها.

أخبرني "أبو فهد" أنَّ بلدتهم صغيرة لا يتجاوز عدد القاطنين فيها ألف شخص، السكّان الأصليّون لا يتعدّون نصفهم، غالبيّتهم يعملون في تجارة اللحوم والأعلاف، "دير الما" لا تعدو غير حظيرة كبيرة للماشية والأبقار والخراف والدواجن وعمّال من البشر لخدمتها. سألني إن كنتُ أعرف أنَّ ثُلث اللحم الذي نأكله في عمّان والعقبة يأتينا من المسلخ الكبيرالذي في هذا البلد؟

استغرَبَ سؤالي بعد أن انصَرَف الرجلان وتركانا وحدنا عن وجود فُرص عمل لي هنا؟ أنا كنتُ مستغرباً كيف خطر لي أن أسأل مثل هذا السؤال، وبماذا كنتُ أفكِّر عندما وجَّهته للرجل قاطعاً

كلامه عن حياة أهل "دير الميه". أجابني بأنّ المسلخ كافٍ لتشغيل كل المتبطلين عن العمل. وأكمل دون توقُّف:

هل تبحث عن عمل أم إنَّكَ هاربٌ مِن أمرٍ ما؟

لم ينتظر مني ردّاً، سألني بما يشبه الاعتذار بأنه يريد أن يعرف إن كنتُ مطلوباً للشرطة؟ أو أني مُلاحق من طلاّب ثأر؟ أو مديناً لأحد؟ طمأنتُهُ ضاحكاً بأنّي أكثر براءة من الماشية التي في المسلخ.

ودَّعتُه على أن نعود ونلتقي، بعد أن يئِسَ من إقناعي بالعودة إلى أهلي وبيتي. رَسَم لي طريق الوصول إلى "دير الما"، وإلى مزارع الماشية، والمسلخ، وأكّد عليّ أن أرجع قبل مغيب الشمس.

الغُربة التي جمَعَتني بأبي الفهد ليلة أمس من لحظة أن تنبَّه من نومه ليجدني واقفاً في استراحته، غارقاً بالدم، مُتعباً خائفاً، وملتجئاً إليه ليحميني، هذه الغربة لم تبارحني لحظة كشفتُ له عن عنقي وتحسَّس الجرح الغائر فيها، ولا عندما حاول أن يساعدني على المضيّ في طريقي إلى عمّان، ولا حتى عندما احتللتُ سريره ونمتُ عليه أو سقطتُ مغشياً عليّ.

لم تفارقني هذه الغربة لحظة تنبَّهتُ من نومتي العميقة بعد الظهر، وفتحتُ الباب المُفضي إلى الاستراحة التي عرفتُها أمس فقط، لأرى العجوز الذي أفهمني بأنه قد تركني نائماً لأحرس له المكان.

تركني نائماً ومضى صوب بلدته، صلّى الجمعة حاضراً، ثم عاد برفقة صاحبيه. انتظروا صحوي لأشاركهم الطعام، في اللحظة التي قدَّمني بها لضيفيه وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد، أحسستُ بأنّ هذا الرجل لم يعُد غريباً عنيّ.

لم تكن "دير الما" بعيدة، ولا كانت مسألة أن أجد عملاً في المزارع أو في المسلخ صعبة، فالرجل الذي دلّني عليه العمّال الذين التقيتُ بهم في المقهى التي صادفتني في طريقي، فكّر عندما رأى الدم الجاف الذي على بلوزتي، بأني جزّارٌ أو عتّالٌ في مذبح. تناوَلَ منّي هويّتي، عبّأ بياناتها على دفتر عريض، وطلب مني أن أستلم عملي في المسلخ في اليوم التالي. أخبرني أنّ مراقب العمّال سيختار العمل الذي يناسبني.

بأدب طلبتُ منه أن يساعدني على إيجاد مكان أقيم فيه، هزّ رأسه بملل وقال:

يبدو أنكَ غشيم؟

هززتُ رأسي موافقاً، أوضح لي بأنّ سكني سوف يكون مع العمّال في البركسات.

تخلّى العجوز صاحب الاستراحة والذي أوشك أن يصبح صديقاً لي عن سريره للمرّة الثانية. قرّر أن يغلق الدكان وأن يذهب للمبيت في بيته، أوصاني وهو يغادر أن أطفئ النور، وأُحكم إغلاق الباب، وأن أظلّ متذكّراً بأنه مستعدّ لسماع حكايتي عندما أرغب في الكلام. وعدني بأنه لن يبوح بسرّي لأحد حتى لو كنتُ قاتل أبيه. قلتُ له مطمئناً إنّي لو تكلّمتُ، فلن أتكلّم إلا إليه، لكن لا شيء عندي لأحكيه. فهمتُ بأنّ الرجل لا يرغب بأن يؤوي مجرماً عنده.

فَقَدَ مراقب العمّال الأمل بدقائق، صارحني بأني لا أصلح لعمل شيء غير توظيب الدّجاج. لم يحاول إخفاء صوته وهو يتأفّف ويقول وكأنه يكلّم نفسه:

أقطع يدي إن أتقن هذه المهنة أيضاً.

لم تكُن مهنة تغليف الدواجن صعبة، فمَن يقومون بهذا العمل كانوا من النساء العجائز والأولاد الصغار، فهي لا تعدو غير تهيئة الدجاجة وشدّ أطرافها المتفرِّقة من الذبح والنَّتْف والغسيل لتمضي باستقامة صوْب الطَّبَق الذي يُغلّف آلياً بعد أن تسكن فيه.

في آخر النهار كنتُ مُنهكاً، فالوقوف طوال اليوم في المكان ذاته، وممارسة الحركة ذاتها بالأيدي طوال الوقت، كان مُضنياً. غادرتُ مع رفاقي الصِّغار والنساء العجائز وأنا أشعر بأنّ يديّ لم تكفّا عن الفعل ذاته، حتى إنّي أسقطتُ السيجارة التي سحبتُها من العلبة لأشعلها على الأرض أكثر من مرّة، قبل أن أُسكنها بين شفتيّ وأنقضّ عليها بقوة حتى لا تفلت من قبضتهما.

الاستراحة التي كنّا ننالها كل ثلاث ساعات والتي لا تتعدّى رُبع الساعة، كانت تعلِن عنها صافرة طويلة عند بدايتها، وأخرى متقطِّعة عند انتهائها. الوقت القصير هذا لم يتركني أستمتع بتدخين سيجارة واحدة، فقد كانت بداية دقائق الاستراحة هي لحظة بداية شعوري بالتَّعب.

الأسئلة التي كانت تتوالى على رأسي من لحظة انطلاق الصافرة الطويلة لم تكُن غير تفجير حالات من الوعي والتنبُّه لِما هو غائب عن تفكيري، أسئلة كثيرة كلها تدور حول أمرٍ واحدٍ، ماذا أفعل هنا؟ وما الذي أوصلني إلى هذه الحال؟

ها هي عمّان قريبة، قاب قوسين، كلَّما اعتَزمتُ المسير صوب الطريق العام، وانتظار حافلة تقلّني إليها، كنتُ أشعر أنّ قدميّ ثقيلتان، ومغروستان مثل وَتَدَين في الأرض، ولا رغبة عندي في الانعتاق.

من هنا جاء السؤال الكبير:

كيف مات في داخلي الشَّوق لكلّ عُمري الماضي؟

الإرهاق الذي كان يتملّكني لم يعطِني الفرصة للتعرُّف على مَن أشاركهم السَّكن في البركس ذاته، كلّ ما كنتُ مصمِّماً على عمله، وكنتُ مشغولاً بالتفكير فيه وأنا أمضي مع العمّال بعد انقضاء ساعات العمل في اليوم الأوّل أن أغتسل، وأغسل الدم عن بلوزتي حتى لو قتلني التّعب. عندما استلقيتُ على السرير الذي اختاره لي واحد من العمّال، تساءلتُ قبل أن أغمض عينيّ، هل أنجزتُ ما عليّ؛ غسلتُ بلوزتي واغتسلت؟ تركتُ الإجابة عن هذا السؤال لصباح اليوم التالي.

***

أتقنتُ مهنة تكبيل الدجاج القتيل، تعوَّدتُ على الرائحة الخاصّة التي تنبعث منه، حتى إنّي صرتُ أحبُّها، وأضحَت جميلة. تعرَّفتُ على رفاقي في العمل، وعرفتُ حكايات كثيرة عن حياتهم. ما الذي يمكن أن يفعله الإنسان عندما يُجبَر على الوقوف مع عشرات ممَّن يمارسون الطقوس ذاتها التي يمارسها، في المكان ذاته طوال النهار؟ لكلّ واحد منهم حصّته من الأرض التي لا تتجاوز المتر المربَّع، تظلّ أياديهم مشغولة بحركة آليّة رتيبة لا تحتاج لاستعمال النَّظَر إلى ما يفعلونه، ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء غير الكلام؟

صار مِن السَّهل عليّ أن أشعل سيجارتي في وقت الراحة دون أن ترتجف أصابعي، نسيتُ منذ جئتُ إلى هنا أن أحلق ذقني، فأمتلأ نصف وجهي بالشعر. اكتسيتُ من دكان البالة الصغيرة ملابس جديدة، لكنّها مُستعملة من آخرين في قارات بعيدة عن الأردن نتشابه معهم في حجم

أجسادنا، وفي الذوق. اشتريتُ وشاحاً ناعماً بقيتُ أحيط به عنقي كل الوقت لأخبئ الندبة التي حطّت رحالها عليه واستوطنته.

تعرَّفتُ على طُرُق "دير الما" الضيِّقة والمقهى المطعم الوحيد في البلد وصاحبه الشاب الذي يُديره "وديع"، أخبرني بأنه قد جاء من "إربد" للعمل هنا بعد أن سمع بفتح المسلخ الجديد، لم يكُن يغادر "دير الما" إلا في مناسبات قليلة.

ظلّ "وديع" يرمقني بنظرات مريبة، كنتُ أفهم منها بأنه لا يرغب في وجودي هنا، دون أن أعرف السبب في ذلك، لم يطُل عداؤه لي، فما إن وَرَدَ عاملٌ جديدٌ حتى تحوَّلَت نظراته عنّي وحطَّت على الوافد الجديد. في أيام قليلة ألفتُ البلدة وأهلها، صاحبتُ عدداً من العمال عرفتُ منهم سيرة "وديع" القصيرة، أعزب، لا أهل له في "دير الما"، ويزور مخفر الشرطة مرتين في اليوم.

تعرَّفتُ على شباب البلدة الذين يجيئون من عمّان أو من معسكرات الجيش البعيدة لقضاء إجازاتهم مع أهاليهم، لا يسألون عمَّن يكون الغريب الجديد الذي يلتقونه في الطريق أو في المقهى بعد أن اعتادوا وجود الغرباء وأصواتهم ولهجاتهم، فألفوهم ونسوا عبْر السنين أنَّ بين الناس غرباء. كانوا عندما يُسألون كيف يتركون عمّان بجمالها وأضوائها ومُتعها ويجيئون إلى هذه الصحراء الجافة؟ يردّون جميعهم بالكلمة ذاتها دون أن يحاولوا تجميلها أو تغيير حروفها أو التفكير بما تعنيه، الحنين.

أمّا أنا فلم أشعر بالحنين لأحد، أو لأيّ شيء مضى من عمري. لا أدري من أين حطَّ على روحي هذا التنكُّر؟ كيف للإنسان أن يمقت أيامه الحلوة، وزمانه الجميل؟

كلَّما رجع أهل "دير الما" المغتربين إلى بيوتهم وأهاليهم كنتُ أسأل نفسي: ما الذي يحملهم على تحمُّل عناء السفر والعودة إلى هنا؟ وعندما كان يقول لي أحد رفاق البركس إنه يحنُّ إلى ناسِه، ويحسد أولئك الذين يعودون إلى "دير الما" لأنهم يُطفئون نار الحنين التي تشتعل في قلوبهم، كنتُ أتساءل: هل فقدتُ إنسانيَّتي فلم أعُد أحنُّ لأحدٍ ولا حتى لأمي؟ وعندما كنت ألتقي بالقادمين الذين صاروا أصدقاء لي مثلما هم أصدقاء لكل غريب، فهمتُ ممّا يحكونه عن وجع الابتعاد عن بلدهم وأهاليهم، وعن قسوة الغربة، وهم ينفثون من صدورهم وأفواههم حروفاً مختلطة بدخان السجائر، تلك الكلمة الحارقة، التي توشك أن تشعل شفاههم بالنار؛ الحنين.

كلّما حاولتُ التَّبش في روحي لأبحث عن هذا الإحساس الذي اسمه الحنين، أجدها خاوية، وكأنه حالة غريبة، مُرّة، قاسية، تُشهَر في وجهي كلّما لاحت لي من بعيد أصبع الاتِّهام بأني رجل بلا قلب، وأني لستُ ذاك الولد الطيب الذي كان.

أنظُرُ حولي، أرى الثمن الباهظ الذي يدفعه البشر المساكين لهذا الذي يسمّوه الحنين. تعباً، إذلالاً، وقهراً من استغلال الآخرين الذي صادف أن دخلوا أعمارهم.

عمال يكدحون، يجمعون بشقائهم قروشاً لا تُشبِع، ولا تُؤمِّن مِن خوف، ويفرَحون لأنهم سيُفرِحون بها مَن يحبّون. هم أعجز مِن أن يفهموا بأنّ هذا ليس حنيناً، إنه الشفقة.

السوري رفيق الكدح في المسلخ، يبكي عندما يتذكّر أنّ أهله يُقتلون في وطنه، يفكِّر بجوعهم وبتشريدهم وبقتلهم، فيقتله الحنين لهم. القادمون من عمّان يعودون وهم يحملون في جيوبهم ما توفّر

معهم من ثمن تعبهم ليُفرِحوا أهاليهم به، والجنود يعودون ليضعوا آخر قرش ادَّخروه في أحضان أمهاتهم، أو في أيدي آبائهم العاجزين، ويرجعون إلى معسكراتهم ليعدّوا أيام الشهر من جديد حتى تنقضي. ماذا يعني كل هذا غير أنّ الحنين هو الشفقة على الناس المُعدمة؟ فعلى مَن يجب أن أُشفق؟

هل هذا الإحساس الحارق الذي يريدُ أنْ يشطرَني، وأن ينبِّهني مِن سباتي العميق، والذي يجعلني أزدرد لُقَم الطعام بعناء، ومَن يمتلك زمام أمري، ويجعلني أبكي كلّما سمعتُ أغنية أو حكاية حزينة، هو الحنين؟ هل فقدي لـِ "ربى" التي لم يطُل مُقامها أمام عينيّ، وبين يديّ إلا قليلاً، حنيناً؟

الحنين عاطفة يحتكرها الفقراء.

قصاصة الجريدة القديمة التي كانت تلفّ سندويشة الفلافل التي كنتُ ألتهمُها، كانت تخفي تحت آثار الطحينة والبندورة صورة مألوفة لي. توقّفتُ عن مضغ باقي اللقمة التي في فمي، سللتُ قطعة الخبز المتبقّية من وجبتي وفردتُ القصاصة بين يديّ، دقّقتُ النظر، هذه صورتي، وهذا أنا، كنتُ حليق الذقن، مشرق الوجه، مبتسماً باصطناع تنفيذاً لأمر المصوِّر. تذكّرتُ الصورة التي كانت معلّقة على شجرة العائلة، عائلتنا، تلك الشجرة النحاسيّة المطليّة بالذهب، بالقمّة وجه أبي المبتسم بملء شِدْقَيْهِ كعادته، توازيها أدنى منها قليلاً صورة وجه أمي، تحتها وجه شقيقتي رشا فأخي رائد، في أسفل الشجرة كنتُ أنا.

ابتسمتُ عندما تذكّرتُ أنّ هذه الشجرة واحدة من الكذبات التي تملأ حياة والديّ ويصدِّقانها، إن كانت شجرة فكيف لي أن أقبع

في قاعها وكأنّي جذرها؟ ويتصنّم أبـــي على رأسها وكأنه أضـــعف غصونها؟ أبـــي لا يعرف ذلك، أمّا أنا فإني أعرف بأنّي لستُ سوى ورقة معلّقة، تهزّها نسمة، وتقطفها هزّة قويّة. شجرتنا جـــذورها في السماء، وأوراقها في بطن الريح.

فكّرتُ بأنّ إلحاح أمي قد دفع أبـــي لأن ينزع برواز النحـــاس عن شجرة عائلته الذي اقتناه في واحدة من رحلاته في العالم، والذي يقدِّره كثيراً، حتى ينزعني منه، رَضَخَ لطلـــب محـــرِّر الجريـــدة، أو للشرطة، بأن يعطيهم صورة واضحة لي، تُـــبرِز ملامـــح وجهـــي بالكامل. أسفل الصورة كُتب بخط عريض "خرج ولم....."، مـــا تبقّى من كلمات خبر خروجي ذهب مع سندويشة ثانية. لم أرغـــب في لفْت نظر أحد إليّ ولا لدهشتي عندما رأيتُ صـــورتي، أكملـــتُ ازدراد اللُّقم المتبقِّية من رغيف الفلافل، وصرتُ أبحثُ في عينيّ عـــن قصاصات أخرى لأقرأ باقي الخبر. جـــلَّ أوراق الجريـــدة كانـــت مكرمشةً ومكوّمة في سلة الزبالة، وبعضها ما يزال تحت يد "وديـــع" قرب مقلى الفلافل، الأمر الذي زاد من ارتباكي وخـــوفي مـــن أن يكون "وديع" قد انتبه لها. عدتُ ودقّقتُ النَّظر في الصورة، تأمَّلتـــها طويلاً، لم يكُن هذا الشاب الحليق المُبتسم المُنعم أنا، خلقـــتي الـــتي اعتدتُ النَّظر إليها في مرآة البركس المشقَّقة، والمعلّقة فوق المغسلة في كل صباح لا تشبه هذه، لقد كبُرت، برز لي شاربٌ ولحيـــة، ومِـــن عينيّ العسليّتين صارت تخرج نظرات غير تلك التي على وجه الطفـــل الناعم الذي في الجريدة، والتي كانت معلّقة أدنى شجرة العائلة.

لستُ من القسوة لأنسى كل حياتي الماضية، ولستُ من القـــوّة لأقدر على مقاومة حياة الشقاء التي دخلتُها برجليّ طائعاً. اســـتفزَّت

قصاصة الجريدة في داخلي رحلتي العجائبيّة والأحداث التي خبرتُها في أقلّ من شهرين، بَدَت لي أنّها أطول من الأربع وعشرين سنة التي عشتُها قبلها.

ليس لي الآن سوى التذكُّر، لو أنّي لم أغادر بيتي وعملي وأصدقائي لما كان لأيّ أمس من حياتي ذكرى. أنا هنا الآن وكلّ أمس فيه ذكرى. أريد أن أقبض بيديّ على قيمة حقيقيّة واحدة حتى أقدر أنْ أعتراف بأنّي قد عشت. أين تكمن الحقيقة في كلّ ما انقضى مِن عمري الذي لا يزيد عن كونه ذكريات متماثلة، مقضيّة، ومنسيّة؟ في أيّ بقعة في داخلي تعشِّش ذكرياتي الماضية؟ وفي أيّ بقعة تعيش "رُبى"، وقُطّاع الطُّرُق الذين سلبوني كل ما أملك؟ أحسُّهم كلهم يسكنون في المكان ذاته، حُلوهم ومُرّهُم واحد، جمالهم وقبحهم واحد. ألم يكن قطّاع الطرق هم الأجمل عندما أطلقوني ووهبوني حياتي؟ ألم يكن أبي قبيحاً عندما غيَّر من سلوك حياتنا وخلاّنا لا نحلم إلاّ بمُراكمة الثروة؟ عندما أنفق الكثير ممّا يملكه على تعليمنا، ألم يكن كلّ همّه أن يخلق منّا أنا وأخويّ استثماراً يُفترض به أن يُعاد له مُضافاً إليه الرِّبح؟

أبي يتحدَّث عن أخي رائد بحُبٍّ زائد، دون أن يبالي لوجودي، أو أن يكترث لأثر ما يقوله على مشاعري، عندما يُعلن في الجلسات الخاصّة والعامة بأنه لم يُنجب سوى "رائد". يكون عزاء أمي لي الذي تكرِّره دائماً بعد كل واقعة من واقعات أبي، مُحاولة أن تخفِّف عنّي، دون أن توجّه لي الحديث، تقول وكأنّها تضع بياناً متحققاً:

الآباء جميعهم يميِّزون أكبر أولادهم، فِطرة مِن الله.

لم يكُن أبـــي جاهلاً ولا عاطفيّاً، وأمي تعرف ذلك، وتعـــرف أنه يحب الابن الأكبر، وأرى أنها لا تختلف عنه كثيراً، فالابن الـــذي يمارس لعبة أبيه بإتقان، لا بد أن يكون مفضَّلاً خاصة عنـــدما يـــرى الأهل فشل الولد الثاني في هذه اللعبة؛ عندما يقرِّر أن يعمل موظفاً.

الربح الذي يسعى إليه أبـــي ليس من الضروري أن يجنيه هو، المهم أن نجنيه نحن. هو أو أنا أو أخي، وكذلك أختي التي علَّمَتها أمي منذ الصغر بأنها حرّة بأن تعرف أو تعشق مَن تريد لتعيش مُتَع شبابها، لكنها علَّمَتها أيضاً بأنها عندما تفكر بالزواج يجب أن تتأنّى كـــثيراً، وأن تتزوَّج من رجل يسعدها بما يملكه في جيبه، وليس بما في قلبـــه. رشا أيضاً أتقنت اللعبة وتزوَّجَت شاباً من عائلة مُنعمة. هل قَبل أهل صديقتي المتديِّنين علاقة ابنتهم بـــي إلا لأني ابن أسرة مُنعمة؟

ما الذي جرى منذ أن تغيَّبتُ عنهم، و لم أعُد أكلِّم أمي؟

انتظروا اتِّصالي الذي لم يحدث، صبروا على غيابـــي يومين أو ثلاثة، تحت إلحاح أمي بدأ أبـــي بالبحث عـــني، اتَّصـــل بفنـــدق الكمبنسكي وعرف بأني قد غادرته من أيام. سأل في المستشـــفيات، وفي أقسام الشرطة وفي المطار، تتبَّع استعمالي لبطاقة الفيزا. إن قـــام اللصوص باستخدام البطاقة وسحبوا رصيد حسابـــي سوف يطمئنّ بأني ما زلتُ حيّاً، سوف يتساءل أين ذهبت بكل هذه النقود؟ لستُ فرحاً بأني قد صرت محور اهتمام البيت والعمل، فأنا لم أكُن نكرة في المكانين، كنتُ حاضراً دائماً، وكان حضوري الأكثر طرافـــة عنـــد أصحابـــي، والأكثر معاونة عند أهلي، الأكثر طيبة عند صديقتي.

ماذا أفعل؟ كيف فقدتُ إرادتي بأن أكون أنا؟ أنا التي كُنتها.

***

العدُوُّ هو صديقٌ لمّا نصنعهُ بعد

الأيام الأولى في العمل كانت قاسية ومُعذِّبة. الإرهاق من الوقوف الطويل، وتكرار الحركات الرتيبة ذاتها في تجهيز الدجاج المذبوح، ظلّ يتعاظم في ذهني وجسدي، وأوصلني لحالة ترقُّب لنوبة تقضي عليّ، مع انطلاق الصافرة الطويلة الأخيرة مُعلنة انتهاء ساعات العمل. كنتُ أهرع لأقرب موضع يمكن أن أهوي عليه، واضعاً عليه مؤخرتي لأجلس وأخفِّف من ثقلي على قدميّ، سور المسلخ الخارجي، صخرة ملساء، تنكة زيت صدئة، أقعي بموضعي، أمدِّد رجليّ المتيبِّستين، أحرِّكهما، وكأني أقوم بالإحماء قبل بداية سباق عدو، ألتقط أنفاسي بصعوبة، أمضي بعد جولة راحة قصيرة صوب المقهى، ما إن يراني الصبيّ الذي يساعد "وديع" مُقبلاً حتى يسأل معلمه أن يجهِّز لي رغيف الفلافل المُعتاد، ألقي بجسدي على أقرب كرسي، أتناول من الصبيّ السندويشة وزجاجة الكولا وأنهمك بالتهامهما. يستغرقني أكل وجبتي وقتاً طويلاً، أجهد في مضْغ اللُّقَم ودفعها إلى حلقي على الرّغم من شدة جوعي. تناوُل وجبَتي القشيّة هذه لم يكن أقلّ عناءً من وقفتي في المسلخ.

بعد بضعة أيام، وقبل أن أهار بلحظات، تحوّل تعبي وإرهاقي عنيّ، غاب عن جسدي الألم والتعب وصارا شيئاً عاديّاً يشبهان كل

ما أقوم بعمله في كل يوم، مثل النوم، والذهاب لزيارة أبـــي الفهـــد باستراحته، أو الاسترخاء يوم الجمعة في ساحة البركس أو في المقهى.

كل شيء أضحى لي عاديّاً وطبيعيّاً، لم يعُد يشغلني كلّما عدتُ من المسلخ وسقطتُ مثل القتيل على السرير البحث عن إجابة عـــن سؤالي اليومي العادي:

ماذا تفعل هنا يا ولد؟

عمّان أقرب إليّ من حبل الوريد، كيف لم أعُد أشتاق إليهـــا؟ وأفتقد ناسها؟ لَمَ لا أُشفق على أمي وأطمئنها أني ما زلتُ حيّاً؟ كلّما تذكرتُ ما يمكن أن تكون عليه حالها بعدي، وأثناء وقـــوفي قـــدّام الجسر الذي يسوق لي الدجاج المذبوح لأجمِّله حتى يلتهمهُ أهل عمّان بحُبّ، كنتُ أقرِّر أن أرسل لها ما يخفِّف من حزنها، إلا أنّـــي أعـــود وأعدل عن فكرتي هذه، وأقرِّر أن أؤجِّل تنفيذها لوقـــت آخـــر، أو كنتُ أستبدلها بأخرى أكثر تشويقاً؛ بأنّي سوف أملُّ قريباً من هـــذه الحياة، وأني لا بدَّ أن أستسلم أخيراً، وأرجع لعمّان صاغراً مهزومـــاً. كانت تُصيبني رعشة مجنونة كلّما تخيَّلتُ نفسي وأنا أطـــرق البـــاب وأنتظر مَن يفتح لي، وأرى الصَّدمة التي سوف تحطّ علـــيهم وهـــم يكتشفون بأنّي قد بُعثتُ حيّاً من جديد.

ما حدث لي أنّي كلّما طالت إقامتي هنا، كلما خَبا شـــوقي إلى عمّان.

أنتَ شامي؟

سألني أحد رفاق العمل، كنّا نلعب الورق، ونحتسي الشاي في المقهى. فاجأني سؤاله الغريب، مِن أبسط العِلم عندنا تمييز الآخـــرين مِن لهجاتهم، وأكثر اللهجات انكشافاً هي الشاميّة، حتى إنه يمكـــن

تمييز بدو الشام إن تكلّموا، لهجتهم أقلّ جفافاً من لهجة بداوتنا، فهي تحمل في حروفها قلقلة تخرُج ناعمة من أفواههم، وحتى لون بشرتهم، فهي أفتح مِن لون بشرتنا. سألتُه أن يشرح لي ماذا يقصد؟ ردّ بأنه لاحظ بأنّي على عكس الأردنيّين الذين يعملون في المسلخ لم أغادر "دير الما" من يوم ابتدأتُ العمل، وبأني أقضي يوم الجمعة في استراحة العجوز أبو الفهد دون أن أغادر شمالاً أو جنوباً، عاد وسألني ببراءة:

هل يوجد لكَ أهل، أم أنتَ مقطوع مِن شجرة؟

ضحكتُ بصوتٍ مرتفعٍ وأجبتُه:

مقطوعٌ من شجرة.

شاركني الرفاق جميعهم بالضحك، لكنّ نظراتهم لم تخْفِ أنّ صاحبهم قد حرَّك فضولهم، وكأنهم كانوا يخطِّطون لهذا الحوار. دون تفكير قلت:

لستُ مقطوعاً من شجرة، أنا من فلسطين، أهلي وراء النهر.

في هذا المكان، في مقهى ومطعم "وديع" تعرَّفتُ بـِ "وائل" المتبطِّل الوحيد بيننا، قد يكون المتبطِّل الوحيد في "دير الما". هو يدَّعي بأنه يشتغل عتّالاً في ميناء العقبة، وأنْ لا مواعيد منتظمة لعَمَلِه لأنَّهُ مرهونٌ بمواعيد رسو السُّفُن، لذلك هو يقضي وقتاً طويلاً متسكِّعاً في البلدة.

كان "وائل" ضامراً، تكاد تبرُز عظام وجهه وصدره لشدَّة نُحوله. ملابسه رثّة ومُهمَلَة بصورة لافتة، ألوانها غريبة لا تتناسب وذوق شاب في مثل عمره، فملابسه التي هي مثل ملابسنا مصدرها واحد "البالة" كانت تبدو مضحكة، أو مُنفِّرة، فهو يرتدي في بعض المرّات بلوزة مرسوم عليه صورة ضخمة لميكي ماوس، أو رسم

لجمجمة، أو طائر بمخالب حادّة في وضع انقضاض على فريسته، شَعْرُ ذقنه دائماً في مرحلة الإهمال، لا يعرف مَن ينظر إلى وجهه متى حلق ذقنه آخر مرّة، على الرّغم من كل هذا الذي يقبِّح منظره إلاّ أنّ ملامح وجهه كانت تصرِّح عن جمالٍ مسروق، عيناه واسعتان، وفمه رشيق، وأنفه صغير، حتى إنّ شعر رأسِه المُهمَل كان ناعماً مسترسلاً.

"وائل" شاب قليل الكلام، سريع الانفعال، في ليالي الكلاسيكو الإسباني وعندما يكون المقهى مكتظّاً بنصف أهل "دير الما" لمُشاهدة مباراة كرة القدم هذه يكون منذ البداية متحفِّزاً لاختلاق معركة، مِن الطبيعي أن تكبر المعركة وتدفعه لأن يسحب الموس مِن على جنبِه بخفَّة ويشهرهُ بوجوه مُناصري برشلونة، وفي كلاسيكو آخر لا يُفاجئ أحداً إنْ استلَّ الخنجر ذاته ضدّ مُناصري الريال.

الطريف أنّ كل مَن يعرفونه كانوا يحبّونه، أو يتفادونه، حتى إني صرتُ أحسُّ بشيء من الودّ نحوه، لكنه ودٌّ مشوبٌ ببعض القلق، قامته، ونبرة صوته، وحركاته بَدَت لي مألوفة، وكأني أعرفه، وكأنّنا التقينا مِن قبل. لفَتَ نظري أنه كان يتجنَّب لقاءنا مُباشرة، إن حدث والتقينا مصادفة، في الطريق أو في المقهى، كان يُلقي عليّ السلام مِن بعيد ويتلهّى بفعل شيء ما، ثم يختفي.

لا أنكر بأني كنتُ ألتقطُه في منطقة ما في عقلي وذاكرتي، لكن لم أقدر على بعثها. الغريب أنّي كنتُ أرتاح لحضوره، وأحبُّ الحديث معه، وكنتُ أدفعُهُ عنوةً عن ذكريات ليلة الحادثة. بحثتُ عنه في العقبة، مَن يعرفونه يشهدون بأنه يعيش هناك أكثر ممّا يعيش هنا. أجزم بأنّي لم أعرفه في عمّان، ولا في العقبة، ومتأكِّد أنّ بيننا علاقة ما.

كان "وائل" هو المشتبه به الأوَّل في عمليّة السّطو على خزنة المسلخ، تحيَّن اللصوص عطلة يوم الجمعة، ووقت صلاة الظهر، وفي عزّ انشغال أهل "دير الما" بالاستماع للخطبة في جامع البلد الوحيد، وجلوسهم في ساحة الجامع، وعلى أطراف الطريق يصطلون حرّ الشمس وصوت الإمام المبحوح، حيث قام باستئجار مكبِّرات صوت ضخمة من قاعةٍ للأفراح لإسماع المصلّين، والقابعين في المقهى الممتنعين عن الصلاة، والنساء اللواتي لا مكان لهنّ للصلاة في مسجدِه، وقضينَ رُكن الصلاة راضياتٍ في بيوتهنّ؛ مساجدهنّ، ليسمع أهل "دير الما" جميعهم خطبته.

في تلك الساعة الروحانيّة قام ملثَّمون بخلع باب مبنى الإدارة في المسلخ، وقاموا بتكسير الإسمنت الذي كان يحيط بالخزنة الحديديّة الثقيلة، وجرّوها إلى السيارة البكاب التي كان محرِّكها دائراً بانتظارهم، وعندما رآهم السائق وهم ينازعون في دفع الخزنة الضخمة بعد أن عجزوا عن حملها، هبَّ لُمساعدتهم. ألقوا بحملهم الثقيل على ظهر البكاب، وانطلقوا مسرعين عَبْر الطريق الترابيّة المُعاكسة لطريق المسجد، مخلّفين وراءهم عاصفة من الغبار كانت تخفي آثارهم.

ظلَّ "وائل" محتجزاً لدى الشرطة لأكثر من أسبوع حتى تحقَّق المخبرون مِن حجّة غيابه والتي شهد عليها عشرة أشخاص أكّدوا أنّهُ كان يشرب العرق معهم على الشاطئ الشّعبي في العقبة، ويعاكسون الصبايا القادمات من عمّان في رحلات مدرسيّة أو جامعيّة.

جاء إلى المقهى وهو يمشي مختالاً، كاشفاً عن عضلات ذراعيه، وعن الوشم الجديد الذي دقَّه عليهما. تحلّق الشباب حوله يستمعون

لمغامراته في السجن التي أعاد تكرارها أكثر من مرّة بصُوَر وأحـــداث مُتغيِّرة. كنتُ أنا آخر مَن يعلم بأنّ "وائل" صاحب أسبقيّات، وبأنه مسجّل "خطر" لدى أقسام الشرطة.

قضيّة سرقة خزنة المسلخ تركت أثرين مهمّين في حياتي، كـــان الأول عندما تجمّع العمال والسكان لاستطلاع الحادث، وكان على رأسهم صاحب المسلخ الذي أُبلغ بالحادث حال اكتشافه بعد الصلاة مباشرة في مزرعته الخاصة القريبة من "دير الما"، صرتُ أبدي لـــبعض المحيطين ملاحظات تقليديّة وعاديّة بالنسبة لي حول شـــكل الخزنـــة وطريقة تثبيتها، والخلل في عدم تركيب كاميرة ثابتة وجهاز إنـــذار، كانت هذه من الأشياء البسيطة التي عرفتُها من عملـــي في البنـــك. عندما سمعني صاحب المسلخ وأنا ألقي بهذه التعليقات اقتـــرب منّـــي وسألني عن طبيعة عملي، بعد حوار قصير معه طلب مني أن أقابله في اليوم التالي. بعد مقابلتي له في مكتبه في اليوم التالي قـــرَّر أن يـــنقلني للعمل في قسم الحسابات، وأوكل لي مهمّة وضع نظام حماية للخزنة الجديدة، والمسلخ، والمزرعة في ما بعد.

أمّا الأثر الأهمّ الذي طالني من عمليّة السرقة هذه، فقد جاء بعد هذه الحادثة بأسابيع، وكنتُ وقتها قد أصبحتُ موظفـــاً إداريّـــاً في المسلخ، وتوقّفتُ عن أن أُصلب طوال النهار لأهندم الدجاج القتيل.

صار عندي الحريّة للخروج من المسلخ بالوقت الـــذي أريـــد، صرتُ أستعمل وقت الراحة مثلما أريد، أتّجه صوب المقهى أجالس "وديع" إن وجدتُهُ هناك نحكي بأي شيء، إلى أن جاء ذلك اليـــوم، كنتُ جالساً وحيداً أشرب الشاي وأشاهد التفلزيون عندما رأيـــتُ "وائل" يدخل دون أن يلفت نظره وجودي هنا في هذه الســـاعة، إلا

عندما وجدني واقفاً فوق رأسه، قبل أن يحاول التملُّص أو الادِّعـــاء بانشغالِه بأمرٍ ما، شددتُ على كتفيه حتى لا أعطيه الفرصة للوقوف والتملُّص:

تذكَّرتُكَ.

قلتُ وأنا أسحب كرسيّاً وأجلس قبالته.

حتى أعتى المجرمين عندما يجد مَن يُواجهه في مكان عام يصـــبح ضعيفاً خائفاً. الرُّعب الذي استولى على ملامح "وائل" لم يكُن مَـــن يراه يُصدِّق بأني أنا مَن وضعتُه فيه، حاول أن يستعيد قوّته، تململـــل، تردَّد في سحب خنجره، وإن كان قد همّ بذلك. كنتُ أسرَع منـــه، لم أكُن أحسُّ بذاك الخوف الذي بقي ملازماً لي مِن تلك الليلة، بـــل إنيّ كنتُ مرتاحاً لما أُقدم على فعله، قلتُ وأنا أرفع يـــديّ وأفـــكّ الشال المحيط بعنقي:

هذه بداية صداقتنا يا صاحبـــي.

ارتَبَكَ، وتلفَّتَ حوله وكأنه يبحث عن مهرب للنجاة. قلـــتُ وأنا أنظر بعمق عينيه المنكسرتين أمامي:

"يُقال إنَّ النُّدوب خرائط الروح"، كنتُ متأكداً بأنه لم يفهم ما قصدتُه بهذه الجُملة، أكملتُ مُحاولاً أن أُفهِمَه: "لقد ســـاقتني هـــذه الخريطة نحوَك".

مقدرةُ رجلٍ يرتدي بلوزة مرسوم عليها ميكـــي مـــاوس، أو جمجمة، على الادِّعاء والتمثيل لا يمكن أن تكون مُتقنـــة، اســـتغرَبَ حركتي، حاوَلَ إنكار معرفته بـــي سابقاً، فكَّر أن يقف وينســـحب أكثر مِن مرّة، كنتُ أشدُّه مِن ذراعيه وأطلب منه أن يظلّ جالســـاً، حاوَلَ أن يهدِّدني بكلمات وتلميحات أو بتحريك المـــوس المخفـــي

تحت إبزيم بنطاله، دون أن يردعني، إلى أن استسلم و لم يعُد مهتمّاً بتمثيل دَوْر البريء، رَمَقَني بنظراتٍ ناريّة، قال بوقاحة وبلا اكتراث:

أنا مَن حفر بعنقك هذا الثقب. يدكَ وما تعطي.

ثم علت نبرة صوته وصارت أكثر حدّة، أكمل: "لقد عرفتُكَ في أوّل مرّة شاهدتُكَ فيها، ماذا تريد منّي؟ هل تريدني أن أدفع لكَ تعويضاً؟".

تمالكتُ أعصابي، نظرتُ في عينيه بالطريقة ذاتها التي كان يجحرني بها، قلتُ له وكنتُ أعني ما أطلبه:

أريدكَ أن تعتذر.

بدا لي بأنّ حملاً ثقيلاً قد حطّ عنه عندما سمع مطلبي التافه مقابل الجرم الكبير الذي اقترفه بحقّي. ضحك مستهزئاً منّي وممّا أطلبه، قال بسخرية وهو يصفّق بيديه:

"آسف، ها، يا سيدي أنا شديد الأسف لأني طعنتك"، ثم بعينين طافحتين بالشرّ أكمل: "أنا آسف لأنّي لم أخلّص عليكَ في تلك الليلة".

أُقِرُّ بأنه قد أعادَ لي بعبارته الأخيرة حالة الرُّعب ذاتها التي تلبَّستني تلك الليلة، تمالكتُ نفسي، صمَّمتُ أن أواصلَ الدَّوْر ذاته الذي ابتدأتُ به دون أن أفكِّر بعاقبة ذلك عندما رأيتُه يدخل المقهى، لم أفكِّر بغير أن أواجهه. صَرَختُ به:

اسمَع، يجب أن تفهم بأنّي قادرٌ أن أرميكَ في السجن لباقي عمرك.

فَشَرت.

ردَّ بلا مبالاة.

"وائل، لا تتحدّاني"، قلتُ بصوتٍ خافتٍ لكنه كان ثقيلاً وواثقاً، "هل تتصوَّر بأني بعد ما عشتُه في تلك الليلة صرتُ معنيّاً بشيء؟ أريدكَ أن تعتذر". أعدتُ عليه الطلب الهزيل الواهي ذاته.

لقد اعتذرتُ لكَ، وإنْ كان هذا هو مطلبك، وما يرضيكَ ويجعلكَ تشعر بأنكَ رجلٌ، أعتذر بشدّة، أنا آسف.

قال وقد صار يشعر باللاجدوى من هذا الحوار التّافه، وكنتُ أحسُّهُ يكاد يتفجَّر في وجهي. عاد وقال إنّه آسف، كانت نبرة صوته أكثر هدوءاً.

سألتُه بسخرية إنْ كان يقصد "أسفه على عدم قتلي في تلك الليلة؟". ردَّ عليّ بأنهم لم يكونوا ينوون قتلي لكنهم كانوا يريدون إخافتي لكي لا أقدِم على أيّ فعلٍ طائش. وقال إنهم قد أرسلوا أحدهم ليتعقّبني ويطمئنّ بأنه لن يقتنصني ضبع أو ثعلب إلى أن وصلتُ الاستراحة. لم أصدِّق هذه الكذبة، لكنّي شعرتُ بشيء من الراحة وأنا أرى أنه من المُمكن أن يفكِّر بهذه الطريقة التي يمكن أن أصِفها بأنها إنسانيّة لدرجةٍ ما.

بعد أن افترقنا وعُدتُ إلى البركس أخذتُ أسترجع كلّ ما دار بيننا. تساءلتُ عمّا كنتُ أريده مِن طلبي منه الاعتذار؟ أيّ قيمة سوف أنالها من هذا الاعتذار؟ فلن يُعيدَ اعتذاره لي سيارتي، ولا نقودي، ولا ساعتي وهاتفي، ولا حتى حياتي التي تغيَّرَت منذ تلك اللحظة.

ما كنتُ أريده هو أن أُقنع نفسي بأنّي لستُ ضعيفاً لحدّ أن يُستَلَب منّي كل شيء دون أن أقاوم، ودون أن أعلن بالحدّ الأدنى رفضي، لو أنّي كنتُ أكثر جرأة لكان للقائنا نتائج أخرى مختلفة،

نتائج ستكون غرقى بالدم، "وائل" وعصابته لم يسلبوا ممتلكاتي، بل استلبوا حياتي، لماذا رضيتُ بكل ذلك؟ ألم يكُن من الأجدى أن أعودَ لبيتي وحياتي؟ ما الذي أريده؟ هل كنتُ أبحث عن "ربى" لتفعل بي ما فَعَلَت ثم تتركني وكأنّي لم أكُن يوماً في حياتها؟ هل نسيتُ أنْ أتزوَّد بالوقود حتى أقَع في براثن عصابة وائل وأقضي إلى هذا المصير الذي يعطِّل تفكيري؟ ما الذي يحمله هذا الرأس الذي يقف فوقي ولا أستطيع أن أقرأه؟

أوّاه، ما أقبح العمر.

أخَذَت أصواتنا بالهبوط، وصار حديثنا أكثر هدوءاً، أفهمتُه بأني لّما أقصد بمواجهتي له غير أنْ أحسمَ حالة الشكّ التي تنتابني كلّما التقينا، قلتُ دون أنْ أبدي مِنَّةً له إنَّهُ كان بمقدوري أنْ أبلِّغ الشرطة التي لن يُعجزها الحصول منه على اعتراف يُلقي به وبعصابته في السجن دون أن يشكّ بأني أنا مَن بلّغ عنه. واجهتُهُ بما أفكِّر به بخصوص قضيّة سرقة المسلخ، ويقيني بأنها مِن تخطيطه هو، وأنّ إثبات حجّة غيابه عن البلد وقتها من قِبَل عشرة أشخاص مرّة واحدة يؤكِّد أنه طرفٌ بها، بل إنه هو الرأس المدبِّر.

أبدى إعجابه بما قلتُ، وسألني مُمازحاً:

هل تريد حصّة؟

هززتُ رأسي نافياً، قلتُ: "أريدُ منكَ اعتذاراً صادقاً وحسب".

صَمَتَ فترة من الوقت، أشعل سيجارة جديدة، مدّ يده أمسك بيدي، قال بما يشبه الهمس:

هل تصدِّقني إنْ قلتُ لكَ إنّي من لحظة أنْ التقيتُ بكَ في بلدتنا، وعرفتُكَ، وأنا أشعر بالأسف على فعلتنا معك؟

ثم أكمل: "ماذا يمكن أن أفعل لأعوِّضك؟".

شَدَدْتُ على يدِه الممدودة إليّ:

يكفيني ما قلتَه الآن.

هبَّ وقفاً، وقفتُ، ضمَّني إليه وأخذ يردِّد في أذني:

سامحني أرجوك.

نسيتُ أمر العودة إلى عملي وأنا أستمع لما يحكيه عن حياتـــه، انقضت ساعات وهو يتكلَّم وأنا أستمع، احتسينا فنـــاجين قهـــوة، وكاسات شاي، وزجاجات كولا إلى أن بدأ العمّـــال بالتّوافُـــد إلى المقهى. قبل أن نتودَّع قال:

أريدُ أنْ أسالكَ سؤالاً يحيِّرني.

"تفضل"، قلت.

اقتَرَبَ منّي ووشوَشَني بصوتٍ بالكاد يُسمع: "لم نجد بالخزنـــة أكثر من ألف دينار، لماذا يدَّعي أخو الشرموطة صاحب المسلخ بأنها عشرين ألفاً؟".

فقعتُ ضحكة عالية، ضربتُ كفّي بكفِّه، قلتُ:

التَّأمين يا صاحبـــي.

لم يفهم ما عنيتُه بجوابـــي، وَعَدتُه أن أشرح له ذلك في مـــرّة قادمة.

***

هل أمَّنتُ "لوائل" حقيقةً؟ افترضتُ بما يتملَّكني مِن مشاعر بعد هذه المُواجهة بأنّ الجواب نعم، لقد انتَزَعَ من رأسي الشكّ، وأوصلني إلى اليقين. كنتُ متأكداً بأنْ لا سبيل أمامي للخروج من حالة الشكّ

التي كانت تتلبّسني بأنه هو اللص الذي حاصرني وحزّ عنقي وجرّني مثل الكبش، إلا بمواجهتِه.

عندما عرفتُ بأنهُ موقوفٌ لدى الشرطة للاشتباه بتورُّطه في سرقة المسلخ، وأنه صاحب سجلّ سوابق كبير زاد شكّي به، و لم أعُد أفكر إلا به، لم أجِد مِن مَخْرَج غير المُواجهة، لو أنه بقي مصمِّماً على النُّكران لاسترحتُ، لكن ليس بمثل راحتي باعترافِه. لقد عرفتُ لماذا يحبُّه أهل البلد، فهو ليس كائناً شرّيراً بالمُطلق.

السؤال الذي صار يلحُّ عليّ أكثر بعد أن هَدَأت نفسي قليلاً، هل أمَّنَ هو لي؟ هل صدَّق بأني قد اكتفيتُ تعويضاً عن جريمته بالاعتذار، وبأنّي لن أبلِّغ الشرطة عنه؟ إن كان "وائل" إنساناً يشبه هذا الذي عرفتُه بعد أنْ واجهتُهُ بجريمتِهِ اليوم في المقهى، فهو بلا شكّ سوف يفعل ويصدِّق. قد يكون لِما عرفتُهُ عن ناس "دير الما" إلى اليوم هو ما يجعلني أطمئنّ، على الرغم من أنّي كنتُ أتساءل كيف لهذا البلد المُسالم أن يُنبِتَ مخلوقاً على شاكلة "وائل"؟

قد يقوده حدسُه لأن يثق بما قلت، لا أعتقد بأنّ الحدس يمكن أن يكون دون الإدراك، هل هذا الكائن المسجَّل "خطِراً"، اللص، وقاطع الطريق "وائل"، يملك الإدراك؟

الوقت، الوقت هو الشيء الوحيد الذي سوف يجيب عن سؤالي، أتمنّى أن لا تكون الإجابة مكتوبة على جثَّتي المُلقاة في منطقة بعيدة في الصحراء مطعونةً بخنجر أو مُخترَقَةً برصاصة.

***

أبطئ قليلاً في مُراقبة الحياة،
فالزَّمَن يُحافظ على سرعتِه

لم تكُن معرفتي بالرجل الذي أولجني بوّابة "دير الما" أبو الفهد لأنْ تبدأ وتنتهي حيث التجأتُ إليه في تلك الليلة. يمكن أن أتذكَّر بأنّ مُجريات تلك الليلة بكلّ ما لاقيتُه فيها من عناء، لم تكُن سوى حالة من مُركَّب لحالات كثيرة مررتُ بها مِن ساعة أن تسلَّلتُ من البيت دون أنْ أخبرَ أحداً عمّا اعتزمتُ القيام به، حتى هذه اللحظة.

ما أجهَضَ تفكيري ولَجَمَني، أنه عندما انقَضَّ "وائل" ومجموعته عليّ، تأجَّج في داخلي الشَّغَف بالحياة، أحسستُ كم أحبُّ عمري، وأقدِّس وجودي على الأرض، وازداد حرصي على أن لا أموت، وأن أنجو، وأن أخرُجَ مِن هذا الموقف الصَّعب الذي جرّوني إليه. كنتُ مُرتعباً في انتظار ما سيقدِمون على فعلِه عندما رأيتُ الإجرامَ في ملامحهم، وكلماتهم، وأفعالهم. قرأتُ فيهم أنَّهم يفتقرون لتلك المشاعر التي تندرج تحت باب ما يسمّى الرَّحمة، وأنَّهم لا يملكون القدرة على أن يفكِّروا، أو أن يستعملوا عقولهم بشيءٍ آخر غير الفَوْز بغنيمةٍ دسمةٍ من هذا الصَّيد السَّهل. كان بمقدور أصغرهم حجماً "وائل"؛ هذا الذي لم أكُن أعرفه وقتها، أن يُنهي حياتي بتكَّة خفيفة، لا تزيد عن سَحْلي وذبحي، كان يمكن أن يكمل ما ابتدأه،

وأن يحز بنصل خنجره عنقي من النقطة التي صنعها، حتى أُذني.

ما تزال ذكرى تلك الليلة طريّة في رأسي، لا أتخيَّل بأنه قد يأتي عليها يومٌ وتيبَس، على الرّغم من ارتعاشة جسدي كلّما تـــذكَّرتُ هَوْلَ ما مرّ بـــي، إلا أنّي ما زلتُ أتذكَّر تلك اللحظة التي أطلقـــوني بها، وأعادوا لي حياتي وحريّتي، طوال مسيري تلك الليلـــة في بهـــيم العتمة، دون أن آبه لِما قد يواجهني في الطريق مِن ضباع، أو ذئاب، وقد استعدتُ عمري بمعجزة. ولا يمكن أن أنسى أنّي وأنا هائمٌ على وجهي بالظلام، كنتُ أتمنّى أن أموت!

كيف تحوَّل حبّي للحياة إلى كراهية بزمنٍ قياسيٍّ قصير؟ يمكـــن أنْ أقولَ الآن إنَّنا نحن البشر لا نتمنّى إلاّ ما لا نحـــبُّ أن يتحقَّـــق، لذلك تكون الأمنيات عظيمة وغالية، لأننا كائنات مولعة بالمغـــامرة، أو تقتلنا رتابة أعمارنا، نظلّ نتمنّى ما لا نريد تحقُّقه حـــتى نعطـــي لأنفسنا مبرِّراً للبقاء على الأرض، وكأننا نقـــول: "أيهـــا العمـــر لا تنقضي حتى أصل إلى مرادي منك"، تمنَّيتُ الموت بعد أن نجوت منه، كنتُ متيقناً بأنّ الموت قد أجَّل حضوره عندما أطلقـــني اللصـــوص، وكنتُ واثقاً بأنه لن يأتي تلك الساعة التي تمنيته بها، فقد هُزم قبـــل دقائق في معركته مع قاطعي الطريق.

أبو الفهد العجوز قليل الكلام كان ينتظر أن أتكلَّم، لم يُشعِرني بأنه معنيٌّ بماضيّ أو بسماع قصّتي بقدر ما هو معنيٌّ بحاضري. قَتَـــلَ الفضول الذي في داخِلِه، وخلّى فضولي يقتلني، بقيتُ أتساءل محتـــاراً كيف يُطيق صبراً عليّ ولا يسحب منّي سيرتي قسراً؟ هل هي خـــبرة السنين؟ أم هو الملل من الكثير الذي شافَ وعرَفَ وجرَّب؟ أم هـــي ثقته بأنه سوف يأتي الوقت الذي أرجوه، أو أتوسَّـــل إليـــه كـــي

يسمعني، وأنْ يقبَلَ أن أُقصَّ عليه حكاية رحلتي التي لا أعـــرف إلى الآن لماذا كانت؟ هل مِن المفترض بشاب في عمري أن يكون عنـــده حكاية تستحقّ أن تُقال؟

أوكَلَ "أبو الفهد" لي مهمّة العمل في الاستراحة كل يوم جمعة. برنامج يوم العطلة يبتدئ بعد أن أتناول إفطاري مع رفاق السَّـــكَن والذي لا يحدث إلا في هذا اليوم، حيث نصنع منه مناسبة احتفاليّـــة، نأكل فيها كبد وحواصل الدجاج، مع صحون الفـــول والحمُّـــص، ونحتسي كميّات كبيرة من الشاي قبل أن يذهب كل منّا إلى شـــأنه، بعضنا يرجع للنوم وآخرون يتهيؤون للصلاة، أمّا أنا، فكنتُ أغتسلُ وأبدِّلُ ملابسي وأقطعُ الطريق الصحراويّة إلى حيـــث الاســـتراحة، يكون "أبو الفهد" بانتظاري وقد تهيّأ للذهاب إلى البيت للاســـتحمام وللصلاة.

أنتظر المسافرين الذين يتوقّفون لشراء حاجياتهم، أراقبهم بحذر، وأزيد التمعُّن في وجوه الزبائن خشية أن يعرفني أحدٌ منهم. لم أحكِ لأبـــي الفهد عن مخاوفي هذه خشية أن يحسَـــب أنّـــي لا أرغـــب بمُساعدته. كان معتاداً قبل أن أدخل في حياته أن يقفل اســـتراحته في أيام الجُمَع لكي يصلّي الجمعة حاضراً. وكان هـــذا اليـــوم لقضـــاء واجباته العائليّة والعشائريّة التي تبقـــى معلّقـــة طـــوال الأســـبوع، فالأعراس، وحفلات الطهور، والعطوات، والصُّلحات، والمُصـــاهرة كلها تتمّ في يوم الجمعة، باستثناء الموت والعزاء اللذان لا يوم محـــدَّد لهما.

أنا مَن اقترح على "أبو الفهـــد" أن أنـــوبَ عنـــه بالعمـــل في الاستراحة، بعد أن سمعتُهُ يشتكي من خسارته لذروة عمل الأسبوع

في هذا اليوم، فالذاهبون إلى العقبة من عمّان لقضاء يوم العطلة يكونون في تلك الساعة قد صاروا قريبين من منطقتنا، وقد استهلكوا ما يحملونه من شرابٍ باردٍ أو شيبس وبسكويت وشوكلاتة.

ما كان يحدث حقيقةً أنه في الساعات التي كان يتركني بها، ويتَّجه صوْب البلد، تضجّ في الاستراحة حركة غير اعتياديّة، تتجمّع أربع أو خمس سيارات أو حافلات دفعةً واحدة، تحمل فيها طلاب مدارس وجامعات، يدفعون الباب، يتسابقون على تناوُل حاجياتهم من البرّاد أو من صناديق الشيبس، بعضهم كان يسرع نحو الحمّام البدائي الذي بناه أبو الفهد خلف الاستراحة مُتابعاً اللوحة المكتوب عليها بخطّ اليد W.C، آخرون يفردون سجّاداتهم ويصلّون بعد أن يسألوني عن اتِّجاه القِبلة. أنهمكُ بتحصيل أثمان البضاعة ومُراقبة الزبائن وما يتناولونه خوفاً مِن أن يقوم بعضهم بالسرقة.

تلك الساعات تكون بحقّ ساعات الذروة، أتنبَّه لنظرات الرِّضا التي تكون مرسومة على وجهه بعد أن يرجع من البلدة وهو يحصي النقود التي في الصندوق، فأفرح. مع الوقت صرتُ أنبِّههُ إلى نفاد بعض البضائع، وأشير عليه أن يزيد في كميّات أصناف معيَّنة، أو تقليل أصناف أخرى لأنَّ الطَّلَب عليها ليس كثيراً.

اعتاد "أبو الفهد" أن يشتري بضائعه مِن سيّارات الموزِّعين الذين يزورون المنطقة مرتين في الأسبوع محمَّلين بكلّ ما يلزم لاستراحتِه. اقترحتُ عليه أن يكلِّف "وائل" بشراء بعض الحاجات التي توجد في العقبة لأنَّ أسعارها سوف تكون أقلّ بكثير مِن أسعار الموزِّعين، لم يتشجَّع للفكرة، وقال إنّ "وائل" سرسري ولا يؤتَمَن. طلبتُ منه أن يوكل لي هذه المهمّة، بعد أن أفهمتُه بأنَّنا سوف ندفع

لـِ "وائل" مُقابل هذا العمل، أكّدتُ له بأنّ "وائل" لن يقبض قرشاً واحداً منّا قبل أن نستلم منه البضائع التي نطلبها منه.

عندما فكَّرتُ باستعمال "وائل"، كنتُ متأكداً أنّ هذه الفكـــرة سوف تأتي ببعض الوفْر لصديقي العجوز، وهذا ما تأكَّد منه "عواد" بعد صفقتين عقدناهما مع "وائل"، غير أنّي كنتُ أسعى لأن أطمـــئنَّ لـِ "وائل"، فأنا ما أزال مُستريباً منه.

بعد أسابيع قليلة تحوَّل "وائل" إضافة للمهنتين اللتين يتقنـــهما؛ البلطجة والعتالة في الميناء، إلى تاجر شنطة، صـــار يـــوفِّر للنســـاء الوحيدات اللواتي لا يقدرن على الـــذهاب إلى عمّـــان أو العقبـــة حاجياتهنّ الخاصّة بربحٍ قليلٍ مثلما كان يدَّعي.

في أحد الأيام، بعد أن انتهيتُ من لعب الورق مع العمـــال في المقهى، شعرتُ برغبة في الكلام مع أحد ما، لا أعرف ما الذي كان يدور في نفسي، غير أنّ مشاعري كانت مختلطة بين رغبتي بالضحك أو بالرقص، وشعوري بأني أريد أن أبكي، تنازعتني نفسي بـــين أن أختلط بالشباب وأنهمك بلعب الـــورق، ومشـــاهدة فـــيلم علـــى التلفزيون، وبين أن أنزوي وحدي بعيداً عنهم، كنتُ لا أفهـــم مـــا أحسّ به، هل أنا مُحترٌّ أم باردٌ؟

وجَّهتُ وجهي صوْب الاستراحة، لم أكُن أفكِّر بشيء محـــدَّد أسعى إليه، قد تكون رغبتي بالمشي والحركة هي ما دفعني لهذا، وقد أكون فكَّرتُ بأن أريحَ صاحبـــي، وأعطيه فرصة للرجوع للبيت. لم أعرف إلاّ عندما فتحتُ عليه باب الاستراحة وكان قد أنهى الركعـــة الأخيرة في صلاة العشاء، عندما رفع رأسه ليراني واقفاً خلفه. هلّـــل وجهه فرحاً، سألني وهو يقف ويرفع بيده سجّادة الصلاة عن سبب

هذه الزيارة غير المتوقَّعة، أجبتُه وأنا أضحك مستعملاً لهجته البدويّة الجافّة:

اشتقت ليك.

وسعت ضحكته:

تسخر مِن لهجتي؟

لا، أدرِّب لساني عليها.

ضحكنا بصوتٍ مرتفع. اعترفتُ له بأني لا أعرف سبباً لقدومي، وبأني قد أكون راغباً في مساعدته، أو أن أعطيه فرصة للراحة في البيت. فهمتُ منه بأنه كان يفكِّر بإغلاق الاستراحة والذهاب إلى البيت، فاليوم منتصف الأسبوع، وحركة السفر إلى العقبة قليلة. اتَّفَقنا أخيراً أن نغلق الاستراحة وأن نعود معاً إلى "دير الما".

في طريق العودة، قطعتُ عليه حكاية كان يحكيها لي عن مسافر ما، لم أكُن أسمع ما يقوله، فقد كنتُ شارداً أفكر في ما كان يختلج في داخلي، وما هو السبب في الحالة التي أنا بها. قلتُ بلا مقدِّمات:

"أصبح عمري اليوم خمس وعشرين سنة"، لم أعطِه الفرصة للكلام، وقبل أن يتكلّم أكملتُ: "لا أدري حتى اللحظة إلى أيّ عالم أنتمي".

"عواد" يملك بداهة شفّافة، فهوعندما يتكلّم ينطق بكلمات بسيطة، للوهلة الأولى يخالها المستمع لَغْواً، أو مجرَّد كلمات، لكنه عندما يتمعَّن بما ينطق به العجوز يكتشف بأنه يُنصِت لرجلٍ يمتلك الحكمة.

لم أكُن أنتظر أن يقول لي كلّ سنة وأنتَ سالم، أو أن يعلِّق على مسألة عمري ومظهري الذي صار يوحي بأني أكبر من سنّي

بكثير، وقف واستوقفني معه، نظر في وجهي بعينيه اللتين تشبهان عيني صقر، لا أدري إن كان يراني حقيقةً مع العتمة التي كانت تلفُّنا؟ أم إنه قد حفظ صورتي وحتى مشاعري غيباً. كنتُ أميِّزُ ملامحه، وإيماءاته المطبوعة في ذاكرتي وكأنّي أراها واضحة، ردّ عليّ بصوته الهادئ الخشن بسؤال:

هل مِن الواجب أن يكون لنا مكانٌ في هذا العالم ننتمي إليه؟

فوجئتُ بسؤاله، فأنا عندما قلتُ ما قلت كنتُ أريدُ أن أفرِّغ نفسي مِن أمرٍ يُثقل عليها، لم يكن في نيَّتي أن أحاوره، بل كنتُ أرغب بالحديث مع إنسان يحسُّ بي، وأستريح للحديث معه دون أن أراجع نفسي طويلاً قبل أن أنطق بحرفٍ ممّا يشغلني. لن أجد أحداً يمكن أن يفهمني ويريحني غيره. لم أفهم ما قصده بسؤاله، أعترفتُ له بأني لا أفهم. أكمل مسيره أمامي، لحقتُ به، توقَّف عن المشي، صرتُ قريباً منه، أكمل:

اسمع يا ولدي، الناس لا تنتمي إلاّ لبعضها، الأماكن تتغيّر؛ حسب مشيئتنا نهاجر، نسافر، ونُهجَّر ونُطرَد، ندخل السجون، والمستشفيات، والمقابر، مِن السَّهل علينا أن نبدِّل الأماكن، لكن من الصَّعب أن نغيِّر أنفسنا.

أنا غيَّرت.

قلتُ وكأنّي أعترفُ بجريمةٍ ارتكبتُها، أحسستُ بأنه يبتسم، كنّا قد أوشكنا على دخول البلد، وصرتُ أراه الآن أوضح من خلال انعكاس الأضواء القليلة التي تحيط بالمسلخ، عندما سمعتُ تأفُّفه وصوته الذي كان وكأنه يلومني على ما قلته:

هل يمكن أن يكون الآخرون هم مَن غيّروك؟

تسمَّرتُ في مكاني، رأيتُه يبتعد بخطواته الواسعة السـريعة دون أن يلتفت نحوي، سألتُ نفسي:

هل وجدتُ الإجابة أخيراً عن سؤالي؟ هل الآخرون هم سـبب اغترابـي؟

انتبه لتخلُّفي عنه، أدار وجهه صوبـي صرخ بـي:

تعبت يا ولد؟

حرَّرتُ ساقيّ ولحقتُ به.

***

الفَهْد

انقَضَت أيام على مشوارنا هذا، عندما أرسَلَ لي واحداً من أحفاده يخبرني أنّ جدّه يريدني لأمرٍ ما، سألتُ الولد إن كان يريدني في الحال؟ ردّ بأنّ جدّه قال حسب وقتي. لم أتعجّل، غادرتُ المسلخ، تناولتُ طعامي في المقهى، وتوجَّهتُ صوْب الاستراحة. كان أبو الفهد متهيئاً لحضوري، فقد قدّر موعد مغادرتي العمل وتناوُلي الطعام ومسافة الطريق إليه. كان واقفاً بقمبازه الذي يبرز طوله الباسق، معلّقاً على رأسه شماغه الأحمر. قبل أن أصل إليه أخذ يعالج الباب بالمفتاح إلى أن أغلقهُ بقفل الحديد، أمسكني من يدي وساقني بجانبه:

أريد أن أعرِّفكَ على ابني فهد.

من لحظة أن صرتُ قريباً من هذا الرجل اعتزمتُ أن أردَّ له بعضاً ممّا قدَّمه لي، فهو لم يلحّ بالسؤال عن حياتي؟ ولا عمَّن أكون؟ أو ما هي قصتي؟ قابلتُ كلّ ذلك بالشيء ذاته، فلم أسأله عن حياته الخاصة. كنتُ أسمعه وهو يتكلم عن أولاده، وبناته، وأحفاده بمناسبات ما، دون أن أبادر بالسؤال عنهم، لقد عرفتُ أنّ له ولدين في العسكر، وأنهما يعملان ضمن قوات حفظ السلام، وبأنهما لم يحقِّقا هذا الامتياز إلا تقديراً لخدمته الطويلة في الجيش. وعرفتُ أنّ له ولداً ثالثاً في شرطة "مدينة إربد"، ورابعاً يعمل مدرِّساً في العاصمة

عمّان، وأنّ بناته كلهنّ متزوِّجات.

عندما كان يتحدَّث عن أولاده كان يذكر أسماءهم وتسلسلهم بالعمر، و لم يسبق له أن ذكر اسم "فهد" الذي كان يُكنّى باسمه إلا في هذه المرّة. كنتُ أعتقدُ أنّ لقب "أبو الفهد" ليس إلا لقباً من تلك الألقاب التي يتفنَّن العرب في إطلاقها بعضهم على بعض من باب الإعجاب أو السخرية. رجل بقوّة وصلابة عواد لا بدَّ أن يكون قد قام بالكثير من المواقف الشجاعة في شبابه، والتي أعطته مثل هذا الاسم أو اللقب، كأن يكون قد حمى "دير الما" من غزوات الحرميّة، أو أن يكون قد صرع فهداً أو ضبعاً بيديه المجرَّدتين.

فُوجئت بأنّ هذا "الفهد" كائناً متحقِّقاً، وها هو يُبعث لي دون أن أفتِّش عنه. سوف أتحقَّق من وجوده الآن مواجهةً وحسّاً، لن يظلَّ اسماً مثلما هي حال باقي أخوته الذين لم أتعرَّف بأحدٍ منهم بعد. ها قد حانت اللحظة التي أتعرَّف بها بواحدٍ من أبناء صديقي، تريَّثتُ قليلاً وصرتُ أفكر بأنه من المحتمل أن لا يكون هذا الفهد موجوداً حقيقةً، قد أكون تعجَّلتُ في حسم أمره، لِمَ لا أفترض بأنّ ما سوف يعرِّفني عليه العجوز لن يعدو غير قبرٍ مهجورٍ في الصحراء يحمل في بطنه حكاية فهد؟ أو أن يريني شيئاً يكون شاهداً يدلُّ على لقبِه دون أن يكون بالضرورة إنساناً حقيقيّاً؟

الصحراءُ ملكوتٌ غامضٌ، انكشافها وتماثلها لا يكون أمراً عبثيّاً، فلا بدّ وأنها تحمل في بطنها عوالم وأسرار وكائنات قد تكون أكثر امتلاءً وسحراً من البحار. قرَّرتُ أنْ لا أسأله أو أتعجَّل بمعرفة الجواب، اكتفيتُ بالرُّضوخ، ومضيتُ خلفه وأنا أحاول أن أجاري خطواته الطويلة السريعة وهو يدقّ رجليه بصلابة على الأرض.

أخذنا طريقاً عكس اتِّجاه "دير الما"، ما إن اجتزنا الشارع وبدأنا بولوج الصحراء حتى اشتدَّت عزيمة الرجل، وشدّ ساقيه أكثر، وانطلق مثل غزالٍ بريّ. لم يلوِ عنقه نحوي، كان يستحثُّني على مُجاراتِه في سرعتِه مِن تقدُّمه عليّ بخطوات كثيرة، صرختُ:

أبطئ يا شيخ، أنا مُتعبٌ مِن العمل في المسلخ طوال اليوم.

دون أن يلتفتَ نحوي قال:

شِدّ حيلك يا ولد.

رضختُ وشددتُ مِن حيلي حتى تقطَّعَت أنفاسي. انقضى على مسيرنا أكثر من نصف ساعة، كان حذائي يغوص في الرمل ويخرج وقد حُمِّل بذرّات تراب ينفذ بعضها إلى داخله، فيشعرني بحكاكٍ وضيقٍ دفعني أكثر من مرّة للتوقُّف والارتكاز على ساقٍ واحدةٍ لأنفِّضَهُ ولألتقطَ أنفاسي.

كانت الشمس قد بدأت بالسُّكون إلى مغربها مودِّعة بغسقٍ أحمر طريٍّ ساكنٍ زاد مِن هدوء الدنيا. عندما لاح لنا في الأفق شقّ أسود رثّ كانت تهزّه رياح الغروب الناعمةً. وقف أبو الفهد للمرّة الأولى يراقب المكان، لم يكن ينتظر أن ألحق به، بل كان يستجمع أنفاسه للمُقابلة التي جاءها بإرادته، وكأنه كان قلقاً وخائفاً من مُواجهة قد تحمِّله عبئاً أكثر منّي أنا الذي لم أزَل عاجزاً عن الفهم. لحقتُ به، كان شارداً بعيداً وكأنه لا يحسّ بوجودي. وقفتُ بجانبه أنظر حيث يبعث بناظريه، وضُحَت لي صورة المكان، خيمة سوداء متهالكة يوحي شكلها بأنها فارغة أو مهجورة، وعلى بُعْدٍ منها بناءٌ مِن طوبٍ عارٍ مرصوصٍ دون إتقان.

"هنا يعيش ابني فهد"، قال وهو يُخرِج من فمه نفخة حارّة، "تعال سوف أعرِّفك عليه".

مشى بخطى وئيدة صَوْب الخيمة وابتدأ بالكلام:

لا تجعل شكله يفاجئك، فهد هو الوحيد من أبنائي الذي أكمل دراسته في الجامعة، هجرنا بعد الجامعة للعمل في الخليج دون أن يودِّعنا، انقطعت أخباره عنّا سنين طويلة، كنّا نتتبّع أخباره من بعض أقاربنا المغتربين، وعلمنا بأنه ناجح في عمله، وبأنه قد تزوّج وأنجب أولاداً، وبأنه يعيش حياة مُنعمة. هذه الأخبار كانت تريحنا وتخفِّف من حزن أمه عليه.

كفَّ الرجل عن الكلام، شعرتُ بأنه كان يغالب دمعة تُلحُّ على عينه، لكنّه غَلَبَها وخلاّها ساكنة في محجرها، أكمل:

بعد غيبة طالت كثيراً، فجأة وبعد أنْ أعيانا انتظاره وجدناه أمامنا، لم نتعرَّف عليه في بادئ الأمر عندما رأيناه واقفاً أمامنا، لقد هرم، ولحق شعرَ رأسِه بياضُ الشَّيب، تجعُّدات وجهه كانت تحكي لنا قصة عذاب وتعب. لم نسأله عمّا غيَّره، ولم يحكِ هو لنا، افترضنا أنّ كل ما كنّا نسمعه عن حياته المُترفة لم يكن صحيحاً. برجوعِه غفرتُ له، واكتفيتُ بأنه قد عاد سالماً. بعد شهرين مِن عودته أستأذن منّي أن يسكن بعيداً عنّا، لم أحاول أن أخالفه هذه المرّة، ولم تستطِع دموع أمِّه أن تردعه.

أوَّل مَن استقبَلَنا كان كلباً ضخماً أخذ ينبح من بعيد وكأنه ينذرنا من الاقتراب أكثر، عندما وجد بأنّا واصلنا المسير هبَّ مثل الريح باتِّجاهنا، لم توقِف اندفاعته سوى الصَّرخة التي نَهَرَهُ بها أبو الفهد الذي اختبأتُ خلفه مُرتعباً مِن منظر وجهه وأنيابه التي كانت

تُشحذ للانقضاض علينا. تباطأت سرعته عندما نهره صاحبي، أخذ يمشي بمُحاذاتنا متحفِّزاً لأيّ حركة قد تبدُر منّا.

عَبَرْنا بمُحاذاة الخيمة صوب بيت الطوب يرافقنا الكلب الذي لم يأمن لوجودنا بعد. كانت الخيمة تحوي فراش صوف، ووسائد وسخة، وبعض الحطب، وأواني، وإبريق شاي اختفى لونه الأصلي وصار أسود، وطاسة وكأس عُفِّرا بالتراب، وبقايا نار في منقل مبعّج.

"يابا يا فهد"، نادى صاحبي بصوتٍ عالٍ.

كرَّر النداء أكثر من مرّة، فاندَفَعَ بابٌ من الزنك كان واقفاً بتهالُك ليغطّي ما هو مختفٍ داخل حجارة الطوب المبنيّة بإهمال. برز لنا وجهُ رجلٍ كثّ الشعر واللِّحية، للوهلة الأولى حسبتُ بأنّي أرى توأم الرجل الذي أرافقه، فقد كان شديد الشَّبَه به، لا يفرِّقهما سوى عدد السنين التي قضاها كل منهما على الأرض، بنيتهُما كانت واحدة، وحركتهُما وطريقة مشيتهُما كانت واحدة. لمّا صرنا قريبين من الرجل بدى لي أنه أصغر عمراً على الرغم من علامات الشقاء التي كانت تغطّيه بالكامل، كانت تحكي أنه في آخر العمر.

"أهلاً يابا"، قال بصوتٍ فاتر.

سلَّم على أبيه بيده، على عكس ما يمارسه الأبناء في "دير الما". ما يبادر الأولاد على القيام به عندما يلتقون بآبائهم، ومهما بلغ بهم العمر، أن يسرعوا بالانحناء وتقبيل يد الأب خطفاً وبسرعة، إلاّ إذا ردَّه أبوه، غير ذلك فإنّ الآباء يمدّون كفّهم غير المتمنِّعة، لتُقاد بسلاسة لقبضة الولد الذي ينقلها بين فمِه وجبينِه. يسهل على أيّ إنسان يعيش هنا أن يرى هذا الطقس وأن يعتاد عليه، فهو يُشاهَد أمام بيوت "دير الما"، وفي الطريق أيام الخميس، أو في آخر

يوم في الشهر، عندما يلتقي الأبناء الغائبون بآبائهم يوم عودتهم من أعمالهم.

لم يُقدِم فهد على فعل ذلك، بل مدّ يده بالسلام على أبيه مثلما فعل معي، بعد أن تفرَّسني طويلاً. لم أقدِر على التحقُّق من أنّ ما قَبَضَ على كفّي هي يدٌ من لحمٍ ودم، أم مقبض خشبٍ جاف؟

"مين ضيفك؟"، بلسانٍ بدويٍّ ثقيلٍ سأل أبيه وهو يرمقني بتوجُّس وريبة.

غريب حطّ في بلادنا. اسمه زياد.

ردّ الأب وهو يقدِّمني له.

لم أكُن لأتصوَّر بأنّ مثل هذا المخلوق الذي كان يلحُّ عليّ جفاف معاملته، ووحشيّة منظره، بأن أديرَ ظهري، وأطلقَ رجليّ للريح، بأنه سيصبح في يومٍ ما استراحتي الثانية في "دير الما".

***

انقَضَت حفلة تعارُفنا وزيارتنا لفهد بسلام، بعد أنْ دعانا للدُّخول إلى بيته الفارغ من كل شيء عدا بضعة بُسُطِ صوفٍ باليةٍ وممزّقة، ووسائد محشوّة بالتبن تشظّت منها عشرات الرؤوس الجافّة فُردت في أرجاء المكان.

تبادل الرجلان الحديث عن أخبار البلد والأهل والأشقّاء المغتربين والشقيقات، بدا كلامهما لي بعد أن جلسنا على البُسُط المتآكلة، وأسندنا ظهورنا للجدار الخشن، وكأنهما يعيشان في قارَّتين مُتباعدتين، وليس ما يفصلهما لا يتعدّى مسير خمس دقائق في سيارة دفْع رُباعي. بعد أن ألفَ فهد حضوري سألني عن حالي، وأبدى

عجبه من وجودي في بلدتهم وصحبتي بأبيه، سردتُ عليه كذبتي التي يعرفها كلّ مَن يسألني عن وطني وأهلي؛ بـــأنّي فلســـطيني وأهلـــي يعيشون غرب النهر.

هذه الكذبة البيضاء انطَلَت على كل مَن يعرفني باستثناء عميد أصدقائي القلّة؛ الشيخ عواد أبو الفهد، كان كلَّما سمعني أردِّدها يهزُّ رأسه متعجِّباً ويخفي عن الحاضرين ابتسامته الساخرة، كان يـــدفعني للشكّ بأنه قد تحقَّق من هويّتي الحقيقيّة من إدارة المسلخ، فلطالما رأيتُه بصحبة عدد من موظّفي الإدارة يحتسي معهم الشاي.

على الرغم من ثقتي بصاحبـــي، وشعوري بأنه ليس فضـــوليّاً، منذ تلك الليلة التي عرفتُه بها أوّل مرة، إلاّ أنّ الشكّ كـــان يـــزوريني أحياناً وأفكِّر بأنه من غير المعقول أن يظلّ جاهلاً بهويّتي. صار يحـــذر مِن أن يسألني عن حياتي بعد أن رفضتُ أن أخبره شيئاً عنها. فضوله أو خوفه لا بدّ دفعاه ليسأل مَن أكون.

لم يعِر فهد هذا الأمر اهتماماً، ولم يجد فيّ ما يثير فضـــوله، لا مظهري الذي يوحي بأني لم أشْقَ في حياتي، ولا صوتي، ولكنتي التي تدلُّ عليّ بسهولة.

عرفتُ منه مثلما عرفتُ من أبيه بأنه قـــد تعلّـــم في الجامعـــة الأردنيّة، وعمل سنين طويلة في إحدى دول الخليج، عندما دفعه أبوه للكلام وكأنه يريد أن يذكِّرني بأنه لم يخفِ عنّي شيئاً.

كان فهد مُقِلاً بالكلام، وكان يشرُد بعيداً عنّا وعن كـــل مـــا يحيط به. يتحوَّل بلحظات إلى الغياب، يصير كائناً متوحِّداً، يُشـــهر غيابه بانسحابه من حضرة المكان دون أن يبارح مجلسه، وبنظراته التي تضحي مُغتربة، أو مهاجرة إلى اللامكـــان، وفي صـــمتِه العميـــق،

وارتعاشة جسده المفاجئة عندما ينبعث من ثلاثتنا أنا وأبيه والكلب صوتٌ أو حركة.

لا نتقن الصَّمت إلاّ إذا أخرجنا مِن دواخلنا الآخرين. من يومِ جئتُ إلى "دير الما" بدأتُ أنتبه إلى أنّ الصمت هو العلامة التي تجعلني أتيقَّن بأني ما زلتُ حيّاً، وكأنّي اكتفيتُ من الكلام، وأُتخِمْتُ ثرثرةً مع مَن كانوا يحيطون بي. ملايين الكلمات نطقتُ بها لأتحقَّق بأني ما زلتُ حيّاً، ولأؤكِّدَ حقيقة وجودي. كثرة لغوِنا إلحاحٌ ساذجٌ على أنفسنا لنظلّ مصدِّقين بأنّنا لم نُمت وبأنَّنا أحياء.

الكلمات التي نتكلَّمها ليست أكثر من حوار مع أنفسنا وليس مع الآخرين.

ألم يكُن يكافي أن أقول لِـ "رُبى" أحبك، وأسكُت بعدها لتفهم كم أنا مولهٌ بها؟ وكم عشقتُ روحها وجسدها؟ وبأنّها قد تكشَّفَت لي، وكشفتُها لذاتها، وهي العصيّة على الانكشاف؟

"شكراً" التي قلتُها لعواد الذي آواني وحماني، ألم تكُن تعني كم أنا ممتنٌ لك أيها الرجل، لقد علَّقْتَ في عُنُقي دَيْناً عظيماً لن أنساه ما عِشت، ولن أخذلك؟

"رُبى" عَرَفَت كم أحببتُها وتعلَّقتُ بها، وعواد يعرف كم أنا ممتنّ له. المعضلة تربض في داخلي، فأنا لا أعرف إن كنتُ قد حقَّقتُ وجودي الذي أشكُّ بوجوده عندهما، مثلما فَعَلا هما فيَّ وحقَّقا وجودهما في ذاتي، فقد يُعيناني على أن أصدِّق بأني موجود.

حالات الصمت التي كانت تصيبني في الماضي رغماً عنيّ كانت تخلّيني أستسلم لفكرة أني لستُ موجوداً، ولكي أفلت من حالتي كنتُ أكلِّم نفسي، أرفع صوتي، أصرخ. ولم أكُن أُسمع غيري؟

لا صوت ولا كلمات مع الوحدة، رغم أنوفنا. عندما تخلَّيْتُ عن الموبايل كنتُ أريدُ أن أحقِّق وجودي دون أن أتكلّم، وكنتُ أرغبُ في تمرين عقلي على مفهوم آخر غير ذاك الذي كان يخيفني، ولأتيقَّن مِن أنّي ما زلتُ حيّاً على الرغم مِن وحدتي وصمتي.

ملَّ "فهد" من وجوده، فآثر الوحدة والصمت، حتى لا يذكِّره أحد بأنه ما يزال حيّاً. مَن هو مثل "أبو الفهد" لا يتخلّى عمَّن يحب، قد يكون فاهماً لرغبة ابنه في أن يموت، لذلك فقد كان يعرف كيف يلج عالم ابنه ويعيده إلى الدنيا بسلام. كلما غاب "فهد" عنّا بصمتِه القاتل المفاجئ، وإن كان يشاركنا الكلام، أو حتى ينتظر أن يجيبه أحدنا عن سؤالٍ طرأ على خاطره، وتلفّظ به، ونسي بأنه قد سأله، كان يمدّ أبو الفهد أصابع يده الحانية بسلام لتلامس يد أو كتف "فهد"، فينتفض هذا الثاني وكأنه يؤوب من رحلة بعيدة، يعلن عن حضوره بابتسامة بالكاد تبرز من بين شفاهه المُحاصَرَة بشعر لحيَتِه وشاربِه.

اقتَرَحَ أن يعدّ لنا الشاي، لم ينتظر موافقتنا، أقعى على ساقيه وصار يعالج بابور الكاز الذي كنتُ أراه للمرّة الأولى في حياتي مشاهدةً وليس من خلال الصُّوَر، حتى اشتَعَل، تناول من وعاءٍ قريب طاسة ماء سكبها داخل الإبريق الذي كان أقل سواداً من ذاكَ المُلقى في الخيمة، حَفَنَ بيده حفنة من السُكَّر لقمها الإبريق، كان ما يزال مقعياً قرب البابور وعيناه منصبّتان على النار التي تتراقص تحت الإبريق، سحب علبة السجائر، وضع في فمه سيجارة، أشعلها من نار البابور المتكاسلة والمختنقة، دسَّها بين شفتيه، وخلاّها معلّقة هناك وغاب.

انقَضَت لحظات أوشكت السيجارة خلالها أن تحترق بين شفتيه، مددتُ يدي لامستُ ركبة أبي الفهد برفق، أشرتُ له أن ينظر إلى ابنه، تسحَّب من مجلسه، اقترب من "فهد" بهدوء، مدّ يده، سَحَب عقب السيجارة، ورماه بعيداً. بحركة الأب رجع "فهد" لنا، كان الماء قد بدأ بالغليان.

ودَّعناه وعُدنا من الطريق التي جئنا منها. ظلَّ عواد صامتاً طوال الوقت، لم يتكلم بشيء، ولم يسألني عن ما خلَّفَتْهُ فيّ هذه الزيارة؟ شعرتُ وكأنه يلوم نفسه لأنه كشف لي مَن يكون ابنه فهد، كانت محاجر عينيه قاسية، ووجهه متيبِّساً، أحسستُ بشفقةٍ عظيمةٍ عليه، وصرتُ أفتِّش عمّا يُفترض بي أن أقوله وأساعده كي يخرُج من الحال التي صار عليها، لم أجد ما يُقال. صرنا قريبين من الاستراحة عندما سألتُه بصوتٍ هادئ وأنا أدّعي الحياد، وكنتُ أخشى على نبرة صوتي أن تعلو وتنبِّهه فيُباغَتُ مثلما كان يُباغَتُ "فهدهَ":

هل يزوركم فهد في "دير الما"؟

انتَظَرَ وقتاً قبل أن يجيبني عن سؤالي بالنَّفي، عدتُ وسألتُه وأنا مصمِّم على أن أُعيد الرجل إلى نفسه:

متى زاركم آخر مرّة؟

توقَّف قبل أن يقطع الطريق إلى الاستراحة، رَمَقَني بغضب وقال:

منذ متى انطلق لسانكَ وصرتَ كثير الكلام؟

لم أعِر اهتماماً لكلماتِه، ضحكتُ، عدتُ أُلحُّ عليه بأسئلتي، كيف يأكل؟ هل هو متزوج؟ هل لديه أولاد؟ هل تراه أمه؟

نهرني صارخاً:

اسكت يا ولد.

قلتَ إنّكَ سوف تعرِّفني على "فهد"، أريد أن أعرفه، لِمَ كلّ هذه العصبيّة؟

الأشهُر التي عشتُها هنا جعلتني أعرف أيّ صنف من الرِّجال هو "عواد"، بعيداً عن حكمته التي يراها كل مَن يعرفونه، فهو إنسان طيب، بطيء الغضب، يكاد صدره يتَّسع للناس كلها، ردّات فعله هادئة، يسهل كشفه مِن مُشاهدته وهو يتعامل مع الزبائن العابرين مِن كلّ أصناف البشر، الرِّجال، النساء، المراهقين، المؤدَّبين منهم والوقحين، رجال الدعوة الذين يزورونه في كل شهر، ولا يحبّ زيارتهم، وحتى البلطجيّة والسُكارى الذين يبدأون احتفالهم وصخبهم في عمّان أو في العقبة قبل أن يصلوا استراحته بعشرات الكيلومترات.

كانت تصطفّ أمام الاستراحة سيارة في داخلها عائلة صغيرة تتكوّن من أب وأم وثلاثة أولاد. لا يبدو أنّهم قد انتظروا طويلاً. فَتَحَ لهم أبو فهد الباب، فهَرَعَ الأولاد إلى الداخل يتسابقون لتناول حاجياتهم، لحق بهم الأب واحتلّ "أبو الفهد" مكانه خلف الصندوق. بعد أن انتهوا وتناول مِن الأب ثمن مشترياتهم، غادروا مودَّعين بابتسامته وتمنِّياته بالسلامة، سحب كرسيه وجلس عليه وهو يرمقني بنظرات لم أرَ فيها ضيقاً أو عتباً.

رجع "فهد" إلى "دير الما" للمرّة الأولى على هذه الحال منذ أكثر من سنتين، بعد رحلة اغتراب بدأها في منتصف تسعينيات القرن الماضي. انقطعت أخباره و لم يعُد أحدٌ يعرف له أرضاً أو عنواناً. لم يَنَل اليأس من عزيمة أبيه ولا إخوته، ظلّوا يسألون عنه كل عابر طريق. أشغلوا وزارة الخارجيّة، والأقارب، والأصدقاء المُغتربين الذي

كانوا يطمئنونهم عنه في أوّل الأمـــر إلى أن انقطعـــت أخبـــاره، و لم يعودوا يسمعون عنه، نال اليأس منهم، ورفعوا راية الاستســـلام، إلى أن جاء ذاك اليوم الذي وجدوه فيه يطرق باب البيت.

أخبرني العجوز أنَّ ابنه ظلّ صامتاً طوال أســـابيع، انـــزوى في غرفته القديمة، وصار يقتات على لُقَم الطعام التي تتوسَّل أمه إليه كي يأكلها. فجأة رأوه يغادر ملجأه ويدخل عليهم ليعلن بأنه قد قرَّر أن يبني بيتاً في الصحراء ليعيش فيه. كانت هذه أوّل كلمات نطق بهـــا منذ أن عاد. قال "أبو الفهد" إنه رغم غرابة هذا القرار إلا أنه أفـــرح أهله، وخلاّهم مرتاحين لأنه سوف يعود للحياة من جديد حتى لـــو كانت عودته هذه إلى الصحراء. ساعدوه في بناء هذا البيت الـــذي اختار موقعه في نقطة متوسِّطة بين "دير الما" والاستراحة لتبدو وكأنها رأس مثلث. لم يحمل معه إلى هناك سوى ملابسه وفراشـــه وبعـــض الأواني، و لم يرجع بعدها لـِ "دير الما".

فهمتُ من عواد بأنّ "فهد" لا يقتات إلا على صنف واحد من الطعام، السردين. صار أحفاد العجوز يزورون عمّهم، أو خالهم، مرّة في الأسبوع يحملون له علب السردين، والسجائر والشاي والخبـــز، يجالسونه بعض الوقت ويرجعون ليُطَمئنوا أمه أنه بخير. كانـــت الأم تقوم بزيارته كلما توفّرت وسيلة نقل تساعدها علـــى الوصـــول إلى مقام ابنها دون عناء كبير، فهي لم تعُد تقوى على السَّـــيْر مســـافة طويلة في الصحراء على قدميها. اعتادوا غربة ابنهم القريبة، وحمدوا الله أنه ما يزال حيّاً.

"هذه هي حكاية فهد"، قال لي العجوز الذي كانت ملامـــح وجهه ملأى بالألم.

انقضى على معرفتي بفهد أيام أو أسابيع حتى أوشكتُ أن أنسى وجوده، و لم أرجع لسؤال صاحبي عنه، إلى أن حدث في يوم جمعة كنتُ قد وصلتُ الاستراحة قبل وقت الصلاة لأستلم إدارتها، ولأساعد صاحبي في إرضاء ربِّه بالصلاة جماعة. قبل أن يترك لي المكان انحنى تحت طاولة الصندوق، وصار ينازع علبة خشب كبيرة، رفع رأسه بعدها وهو يحمل في يده دفتراً بغلافٍ يوحي شكله بأنه قد عانى كثيراً ليظلّ ممسكاً على الأوراق التي كانت أطرافها سائبة في داخله. لم يمنحني العجوز الوقت لأسأله عنه عندما وضعه أمامي وقال:

هذا كلّ ما تركه لنا "فهد" بعد أن قرَّر أن يتركنا. وجدتُه وأنا أبحث في الأشياء التي خلّفها وراءه. لم يعرف أحد بأمر هذا الدَّفتر سواي، فكّرتُ بأنه قد يكون نسيه و لم يعُد يتذكّر أمره، قلّبتُ صفحاته وأنا لا أقصد أن أقرأ ما فيه. الحال التي رجع فيها "فهد" لنا لم تكُن لتسُرّ أحداً، عدوّاً كان أو حبيباً، صومه عن الكلام وانقطاعه عنّا أنساه نفسه، بعزلته نسيَ أمرَ هذا الدَّفتر، قلتُ إنه سوف يكون عذري لزيارته والاطمئنان عن حاله. كنتُ قد قرّرتُ عندما غادرنا للمرّة الثانية أن لا أسأل عنه.

صَمَتَ برهة، بَحْلَقَ في السقف وكأنه كان يحاول تذكُّر أمرٍ ما، فكّر أن يقول شيئاً ثم عَدَلَ عن قراره. رمقني بنظرة لم أفهم معناها. أكمل بأسى:

لقد أتعبني الجري خلفه أكثر من عشرين سنة. مِن باب التسلّي قلّبتُ صفحات هذا الدَّفتر ووجدتُ فيه ما لم أكُن أفكِّر بأنه قد

يحدث لأحد أعرفه في الدنيا، وإذ بِهِ يحدُث مع أكبر أولادي.
قال وهو يدفع الباب، ويَضَع خطوتهُ الأولى خارج الاستراحة:
أعتقدُ أنه قرَّر أن ينساه قصْداً. وأنه تركهُ لي. اقرأه، أنتَ متعلِّم ويمكن أن تفهمه أكثر منّي.

***

أعترفُ بأنَّ الفرح الذي تملَّكني عندما تناولتُ الدَّفتر وابتدأتُ بتقليب صفحاته على عجل، كان فرحاً من طعمٍ آخر. إنَّ محرِّك الجمال الذي دار في قلبي، وأجزمُ بأنه ارتَسَمَ على وجهي، لم يكُن لتلهُّفي على معرفة حكاية صاحبنا "فهد"، بل كان بسبب هذا الرجل العجوز عواد الذي أشعَرَني بأنّي قريبٌ منه كثيراً، وأنه يثق بي، فهو عندما يضع ثقته برجل صغير غَرّ، مثلما كان يصفني في بعض المواقف، يفهم بحدسِه أنّي أهلٌ لثقته، مثلما أعرف بأنّي أهلٌ لهذه الثقة.

خالَطَ فرحي شيءٌ من الأسى، وحطَّ على صدري ثِقَلٌ عندما أخذتُ أقلِّبُ صفحات الدَّفتر، وأنقلُ عينيّ على الكلمات المكتوبة بسرعة، لم يكُن صعباً عليّ أن أعرف بأنّ هذه مذكّرات شخصيّة، أو اعترافات، بعد أن توقفتُ عند بعض الصفحات، وطرتُ بناظري فوقها، وصرتُ ألتقطُ عناوينها وأدلفُ لأسطرها الأولى، بدى لي هذا الدَّفتر وكأنه محضر اعتراف يصعب على مَن يقرأه أن يصدِّق ما احتواه، وبأنّ مَن كَتَبَهُ قد عاشه، و لم ينسجه مِن خياله. على الرّغم من قسوة ما كنتُ أقرأ مِن عبارات، ومِن أثر الصَّدمات التي كانت تهزّني كلّما قلبتُ صفحةً جديدةً، إلا أنّي لم أفقد فرحي بصاحبي.

رجع أبو الفهد عصراً من "دير الما" ليجدَني ما زلتُ منهمكاً بتقليب صفحات الدَّفتر بعد أن عَبَرتُ مسرعاً على الصفحات الأولى. سارعني بالقول وهو يلاحظ تعلُّقي بالدَّفتر بأني أستطيع أن أحتفظ به.

قد أكون مُحقّاً إنْ فكَّرتُ عند انتهائي من قراءة الدَّفتر، بأنّ الرجلين كليهما الأب والابن لم يعدِما هذه السّيرة والمذكرات البشعة إلاّ لأنّهما كانا يبحثان عمَّن يكفيهما هذه المهمّة، لقد فكّر "فهد" بأنّ أباه مَن سيتكفّل أمْرَها، و لم يجِد أبوه مَن يخلِّصهُ منها، إلى أن جئتُ له من عالم الغيب، وألقى بي قاطعو الطريق في طريقه.

لقد اعترف لي بأنه لا يريد أن يظلَّ متعلِّقاً بهذا الدَّفتر، وبأنه لا يفهم لماذا ظلَّ محتفظاً به وهو يعرف بأنه قد يأخذ منه ابنه إلى الأبد؟ فهو عندما سمح لي بأن أبقيهِ معي كان يلقي عن كاهله حَمْل الآثام التي اقترَفَها ابنه، هذه الآثام التي جَبُن عن تحمُّل عواقبها، مثلما ضعُفَ عن تحمُّل عنائها في صدره. لقد كتَبَها "فهد" على الورق ليؤرِّق بها العجوز، وحتى يهرب مِن فعلتِه، ويبرِّر لنفسه جُبنه عن مُواجهة عاقبة أعمالِه.

سحبتُ يدي التي تحمل الدَّفتر إلى الوراء. قَبَضَ عليه وهو ما يزال معلَّقاً بيدي، قال وهو يلتقط أنفاساً ثقيلة:

سيظلّ معكَ، لا أريد أن أوصيك، هذا أمانتك.

وعدتُهُ أن لا يراه أو يسمَع به أحد. طَلَبَ منّي بتردُّد أن أُقسم لهُ بذلك. قال لي وهو يضع يده الثقيلة على كتفي، ويُلقي بثقلٍ أعظم على وجهي مِن عينيه اللتين كانتا تقيِّداني داخلهما:

بهذا الدَّفتر أضَعُ حياة ابني أمانةً بين يديك، تذكَّر طوال عمرِكَ إنْ خُنتَ هذه الأمانة بأنَّكَ تكون قد ذبحتَ أباً وابنه بالخنجر

ذاته، تذبح فهد ابني بِكري، وتذبحني لأنّي سوف أفهم بأنّي لم أعرفكَ حقّ المعرفة.

لم يسمح لي بالكلام، ولا حتى بأن أُقسِم لهُ مثلما طلب منّي، ولا أنْ أعِدَهُ بأن أظَلَّ حافظاً على سرِّه طوالَ حياتي. لم يكُن ينتظرني كي أُقسِمَ له أو أعِدَه، فقد كان يثقُ بحدسِه أكثر ممّا يثقُ بما يمكن أن أعِدَهُ به.

ودَّعتُهُ ومضيتُ مُسرعاً إلى "دير الما"، أسابقُ خطواتي للوصول إلى البركس الذي صار لي فيه زاوية خاصّة، وأُعطيتُ مساحةً تزيد عن حجم السرير والخزانة الصغيرة التي بجانبه، فقد صار بمقدوري كغيري مِن قُدامى العمّال، أن أرفَعَ ستارةً تَهبُ لي خصوصيّة يفتقر لها الآخرون، وذلك بعد أن أصبحتُ مساعداً لمُحاسب المسلخ.

عَبَرْتُ مِن أمام مقهى "وديع"، ألقيتُ السلام مِن بعيد على بعض الرفاق، دخلتُ مجمّع البركسات، كان عددٌ من العمّال متجمِّعين في الساحة لقضاء حاجاتهم، لم يعِرني أحدٌ منهم انتباهاً. أخيراً وصلتُ زاويتي، بدَّلتُ ملابسي على عجل، أغلقتُ الستارة، تربَّعتُ فوق سريري وبدأتُ بالقراءة.

الخطُّ الذي كُتِبَت به المذكّرات أو الاعترافات كان واضحاً، وكان مرتَّباً في مواقع وفوضويّاً في أخرى. تغيَّر لون القلم الذي كُتِبَت به، شُطِبت عبارات أو جُمَل أو صفحات بعصبيّة، وبضغطٍ على الورقة حتى إنّ بعضها مُزِّق من إلحاح الكاتب على شطبِها، فصَنَعَ الحبرُ خطّاً على الصفحة التي تليها، مُزِّقت صفحات عديدة بعُنفٍ مخلِّفةً شظايا الورق الصغيرة التي ما زالت متماسكة وكأنَّها تُعاند جلاّدها.

عندما كنتُ في خلوتي مع الدَّفتر قبل رجوع "عوّاد" من الصلاة، شككتُ بأنّهُ يريد أن يختبرني، وإلاّ فهل مِن المعقول أن يسلِّم أب مهما كان قاسياً، أو كان ابنه عاقاً، أن يسلِّم حياة ابنه، ويأتمن أحداً عليها بهذه السهولة؟ لم أكُن مصدِّقاً لما قرأته!

مِن الصَّفحات الأولى، ومِن الكلمات الأولى، والسَّطر الأوَّل، تلقَّيتُ لطمةً خلّت الاستراحة تدور بي، هل مَن كتب هذه الأوراق، هو هذا المستوحش المتوحِّد "فهد" ابن صديقي؟ كيف استطاع أن يمارس كل هذه الأفعال؟ كيف تجرّأ وكتب ما كتبه، ولم يمزِّقه عندما أخرج مِن داخله كلّ ما كان يسكن فيه؟ هل كان يعترف؟ وإن كانت هذه اعترافاته بحقّ، فهل كان يبحث عن الخلاص؟ أم إنه كان يُفكّر بالانتحار وَجَبُن؟ عندما تَرَكَ مذكّراته أو اعترافاته ولم يتذكَّر أن يأخذها معه، هل أرادَ لِمَن يجِدها أنْ يريحهُ مِن عذابه ويقتله؟ إنْ كان الأمر كذلك، فلماذا لم يقدِم على تسليم نفسه؟ هل جَبُن عن فعل ذلك أيضاً؟

هيأتُ جلستي على السرير، قلّبتُ صفحة الغلاف السّميكة، ودخلتُ نقطة الدم الأولى بعينين مرتعشتين، وأنفاس لاهثة، وابتدأتُ رحلة الرُّعب منذ البداية، مرّةً ثانية.

***

الجزء الثاني

الفَيْض

الدَّفتر وأنا

الأوراقُ ليست كثيرة، ما مُلئت به لا تتَّسع لها ذاكرة، قـــرأتُ، قطعتُ أشواطاً في تقليب الصفحات بلا تسلسل، بعضـــها علـــق في رأسي وكثيرها غاب، الأحداث البشعة كانت واحدة، لم أقدِر على رسم شخوصها في مخيّلتي؛ مَن ذبحهم، ومَن سباهنّ، ومَـــن قتلـــهم، جميعهم كانوا متشابهن مثل الكلمات التي ظلَّ يكرِّرها نفسها كلّمـــا تعرَّض لسرد حادثة، لم يكتُب شيئاً عن أولئك الذين سيقوا للحرب أو الموت، أو الذين قَتَلَهم، لم يَصِفْهُم ولم يحكِ عـــن أعمـــارهم ولا أشكالهم. لقد أشعَرَني برتابةِ ما كان يُمارسه، فلم تعُد قصصه عـــن القتل والذَّبح تستوقفني. الأفكار التي كانت تتوالد في نفســـي مثـــل الأرانب كانت تخيفني وتخلّيني مُرتعباً من الآتي، فكَّرتُ بأن أكـــفّ، وأنْ أكتفي بما قرأت، إلاّ أنّ شيئاً ما ظلَّ يستحثّني كي أُكمل، قـــد يكون استجابتي لما طلبه منّي صديقي للمرّة الأولى بمســـألة خاصّـــة وتعنيه، وقد يكون شوقي المستتر لرؤية الدم والأشلاء البشـــرّية، أو لرغبتي في اختبار سادّية وهمجّية الإنسان.

لقد تعرّى "فهد" أمامي مِن كلِّ شيء:

الصَّفحات الأولى

أريدُ أنْ أتكَلَّمَ للمرّة الأخيرة. بعدها سوف أصمتُ إلى الأبد.

لستُ خاطئاً، ولكنّي جاهل. خطيئتي واحدة، بـــأنّي لم أكُـــن طوال حياتي أنا، بل كنتُ غيري.

آثامي هي جَهالاتي، فهل أُحاسَبُ على جهلٍ لم أصنعه؟

لم يكُن رضوخي واستسلامي لذاتي ورغباتي إلاّ لأنّي أردتُ أن أنخرطَ بالبشر وأصبح مثلهم.

لقد فشلتُ بأن أكونَ مثل أبـــي، وعجزتُ أن أكـــونَ مثـــل غيري. ما يعذِّبني أنّي ما وجدتُ نفسي إلى الآن.

البداية:

بعدَ أنْ خرجتُ سالماً مِن أزمة الرَّهن العقاري التي أفقدَتْني كلّ ما ادَّخرتُه طوال عشرين سنة من الكفاح، وبعد تسوياتٍ مع الدّائنين بدأتُ في إعادة ترتيب أوضاعي الماليّة، كان لوقفة زوجتي، وصديقي "بسام" معي في تلك الأزمة دورٌ كبيرٌ بأن اجتزنـــا هـــذه المرحلـــة. رجعتُ للسوق بحالٍ أفضل كثيراً من مئاتٍ غيري.

تلك كانت أصعب تجاربـــي، وأنا أعودُ لأقفَ على رجلـــيّ، صرتُ أكثر حذراً، وأكثر ريبةً، رزقني الله بـــِ "عوّاد"، امتلأت حياتي بما كنتُ أحلم وأتمنّى؛ ثروة، زوجة مُحبّة، وولد.

لم أتَخَلَّ عن حذري من تقلُّبات السوق عندما وضعتُ ثقـــتي بعهدة الصديق الذي لم يتخلَّ عنّي خلال الأزمـــة الكـــبرى. كـــان "بسام" صديقاً وفيّاً، وإنساناً طاهراً، وهو الـــذي ظـــلّ واقفـــاً إلى جانبـــي في أصعب الأوقات. لم تَلُح لي أبداً أيّ علامة تحذِّرني مـــن

أنّ "بسام" سوف يكون أكثر بطشاً عليّ من أزمة الرهن العقاري، التوكيلات التي أعطيتُها له لمساعدتي في إدارة أعمالي، باعَني فيها قِطَعاً في البورصة، وفي العقارات، انتبهتُ بعد أن فات الأوان، وبعد أن اختفى وكأنه ملحٌ وذاب.

لا أحبُّ تذكُّر الأشهر التي قضيتها في السجن، وخرجتُ منه مُنهكاً. لم تنقضِ أشهر حتى اختَفَت زوجتي واختفى معها "عوّادي الصغير". لم تكُن زوجتي تحب "بسام"، طوال سنين علاقتي به، لم تكن تحتمل ذِكر اسمه في بيتنا، وتكره أنْ يزورَنا، أو أن يدعونا لبيتِه. "بسام" متزوِّج ولديه أسرة كبيرة، كل ذلك لم يمنعني مِن أن أفكِّر بأنهما قد هربا معاً.

عندما دقَّ "أبو مصعب" على باب صفحتي على الـ: فيس بوك" كنتُ أحتسي زجاجة بيرة، وأعمل دردشة مع صبيّة صغيرة حول مُتَع الجنس. أجبتُ طلب صداقتِه للسبب ذاته الذي قبلتُ به طلب صداقة الصبيّة التي كنتُ أدردش معها؛ قتْلُ الملل والوقت.

دردشتي مع "أبو مصعب" كانت أكثر إثارة، فقد كانت تحرِّكني، وتفتح عقلي على بشاعة حياة البشر، وحياة العرب، وحياة المسلمين. لم أجد شيئاً أخالفه به، كلّ ما كان يقوله كان حقيقةً عشتُها وعرفتُها، ذكَّرني بما أعرفه؛ بأنّ حياتنا أدنى مستوى مِن حياة الحيوانات.

الوصيّة التي كتبتُها عندما التحقتُ بالمجاهدين لم تكن وصيّتي الأخيرة، لأني عندما عبّأتُها لم أكن أشعر بدنوّ أجلي، وما أوصيتُ به لا يشبه تلك التي أفكِّر في كتابتها إن نازعني ملك الموت، كلّ ما هناك أنّي قمتُ بملء فراغات على ورقتين مطبوعتين تشبهان إلى حدٍّ

كبيرٍ طلب الوظيفة. البيانات التي عبّأتها لا علاقة لها فيّ، وفي ما أفكِّر أن أكتبه إن أردتُ أن أكتبَ وصيَّتي.

الوصيّة التي ناولني إيّاها أحد الأخوة، لا تعدو غير تقديم طلب استشهاد، مُقدَّماً إلى جميع المسلمين مِن بعدي، أوصيهم بأن يبقوا على عهد الله، وأن يقاتلوا المشركين، والكفّار، وكلّ مَن يخرُج عن أمير المؤمنين.

أوصيتُ بأن لا يلطم الأهل على فقْدي أو أن لا ينوحوا، وأن لا يقدِّموا طعاماً ولا سجائر للمعزّين.

تُرِك لي مساحةٌ لأملأ فيها ما يخصّني مِن أمر الدُّنيا، وما يُباح لي فعله، توزيع ثلث تركَتي لَمن أريد مِن الناس بعد أن أسدِّد كلّ دَيْن عليّ.

لم يكُن عندي ما أملكه.

لا أتذكَّر مَن لهم دَيْنٌ عليّ.

سألتُ الأخ الذي قدَّم لي وصيَّتي لأملأها ضاحكاً، إن كان يجوز لي أنْ أوصي بما سُرق منّي، إن حَدَثَ وتمَّ القبض على السارق. نَهَرَني الأخ قائلاً:

هذه لحظات إيمانيّة لا تسخِّرها.

في نهاية وصيَّتي لم أجد أحداً قريباً منّي أُوكِل له مهمّة تنفيذها سوى صديقي الذي لم أرَه، ولم أعرفه "أبو مصعب".

(الوصيّة الثانية،

مُلحقة بالأوراق التي كُتِبَت فيها الوصيّة الأولى)

وصيَّتي، هذه الأوراق التي أكتبها هنا.

أريد أن تظلّ علاقتي مع الحياة مستمرّة. مَن سيقرأ هذه الأوراق سوف يعرفني ويعرف مَن أكون.

هذه الوصيّة ليست مدخلاً لموتي، بل بوّابة لحياتي.

سوف أعترف بجميع خطاياي إن كنتُ قد أخطأتُ أو أثِمتُ، ليس طلباً بالمغفرة، بل لأحمِّل هذه الخطايا لقَدَري البغيض الـــذي لم يجعلني أرى جمال الأشياء الجميلة.

(صفحاتٌ جديدةٌ)

كنتُ إذا ما أصابَني الوجْـــد، لا أسِـــرُّ بحـــالتي إلا لـــزوجتي، ولـِ "بسام" الذي كان يبكي معي، أو عليّ. كانت زوجـــتي تهـــزأ بـــي وتقول إنّي أعيش لعنة الشَّرق.

مرّات كثيرة سألَتْني لماذا بُعث الأنبياء في أرضنا نحن؟ لم أكُـــن أعرف بمَ أجيبها، أتجاهل سؤالها وأنزوي لحالة وجـــدي. لم يكـــن وجدي إلاّ من سماع أغنية حزينة، أو مشاهدة فيلم عربـــــي قـــديم بالأبيض والأسود أذكُر أني شاهدتُه في إحدى دور السينما في عمّان أو في العقبة أيّام الدِّراسة.

اعتادت زوجتي مؤخَّراً كلَّما اختلفنا في أمرٍ ما، وإن لم يكـــن يعني حياتنا، أن تقول:

أنت إنسان ملعون، وراضٍ بلعنتِه.

مِن أين حطَّت عليّ هذه اللعنة التي كانت تحكي عنـــها؟ مِـــن خطيئة اقترفتُها؟ أم مِن عمىً خلاّني لا أبصر غير ما أريد أن أراه؟

(صفحة في وسط الدَّفتر)

لا أحبُّ أن أفكِّر في تفاصيل عمري، طفولتي، أهلي، عملـــي، غربتي وكلّ ما جرى لي فيها. لا أفهم لماذا كانت تجيئني كل هذه في القتال، وعند النِّكاح؟ من اللامكان، واللازمان، كانـــت تتلبَّســـني

حوادث عشتُها وأناس عرفتُهم كرهتُهم أو أحببتُهم، كان حضورهم أكثر حضوراً من المُجاهدين الذين بصفّي، ومن الأعداء الذين على الجبهة الأخرى. في أوقات الراحة، وأنا ألتقط أنفاسي، وأشعل سيجارة، كنتُ أهجر مطرحي، أرحل بعيداً، أفتِّش وأسأل أين ذهب كل هؤلاء؟ فلا أجدُ جواباً. لم أكن أرغب بأن أنسى العالم الذي كنتُ فيه، أريد لذاكرتي أن تظلَّ محتفظةً بأشياء أخرى غير هذه التي تملأ حياتي. أريد أن أعيش من جديد وجوه وأصوات الناس، مشاعرهم وانفعالاتهم، أحزانهم وأفراحهم، بُغضهم وحُبهم. لماذا يتملَّكني كل هذا الخوف؟ ممَّ أخاف؟ ولماذا حتى أخاف؟

لقد انتهى كل شيء، وها أنا هنا بعيدٌ عن بِرَك الدِّماء وأراضي الجثث؟ وما زال يقتلني شعوري بالخوف كل الوقت. ويفتِّتني الصَّمت الذي التجأتُ إليه ليحميني.

(حكايا وصفحات بلا عناوين)

في اليوم الأوَّل لي في الجبهة، قتلتُ رجلاً.

تربَّصتُ به بمنظار بندقيّتي، كان يتحرّك خلف ساتر من التراب بلا اكتراث. أنهيتُ للتوّ صلاة الفجر، انصعتُ لأمرِ القائد بأن ألتحقَ بالمجموعة التي تحرس الجبهة الشرقيّة. الفجر كان هادئاً وجميلاً يستفزُّ الإنسان لعمل نشاطٍ ما. بمثل هذه الصَّباحات كنتُ أهرول، وأمارس تماريني الرياضيّة، وأسبح.

تلقَّفتُ أمر القائد بالحال، قفزتُ داخل الملجأ الترابي بخفّة، سلَّمتُ على الأخوة، وانبطحتُ على الأرض أراقبُ بمنظار بندقيّتي خط الأعداء، والتلال الترابيّة، وأكياس الرّمل التي تحميهم. لا يفصلنا عنهم غير بضعة أمتار من العراء فقيرة. عندما لمحتُ خوذتهُ تتحرّك

خلف الساتر، تبرز، وتختفي، ترتفع قليلاً متعلّقاً بها نصف وجهه ثم تعود وتغيب وكأنّ صاحبها يُعدُّ طعامه، أو يشعل سيجارة، أو يصلّي الصبح.

لم أكُن متيقِّناً من قدرتي على اقتناصِه، لكنه عندما نسي أين هو في تلك اللحظة أعطاني وجهه كاملاً، ولأنّ أصبعي كانت على الزناد، والرصاصة كانت متأهِّبة للانطلاق من بيت النار، ولرغبتي بعمل شيء ما، ضغطتُ على الزناد، انطلقت الرصاصة، استقرّت في جبينه، هوى، لم تعُد خوذته تتمختر أمامي.

لم أكترث لأصوات الرصاص الذي صار ينهمر من جبهة قتيلي الأوّل مثل المطر، ولا لبسطار القائد الذي داس على ظهري بعنف، ولا لِلَعناتِهِ وشتائمِهِ التي انهالت عليّ، وهو يعطي الأوامر والتعليمات بعصبيّة وارتباك لكي يتهيأ رجاله للمعركة. كنتُ أحسُّ بالسعادة. اليوم واحد من أيام حياتي الحلوة.

في آخر ذاك النهار كنتُ أستريح في المكان ذاته الذي قتلتُ فيه الرجل فجراً. كانت الأرض قد شربت دمه وخلّفت وراءه بقعة سوداء.

بعد صلاة العشاء أثنى القائد على شجاعَتي أمام الجميع، وأعطاني الإذن بأن أكون أوّل من يحوز على الغنائم. هو القائد ذاته الذي ما يزال أثر بسطاره على ظهري بَصْمَةً وَوَجَعاً. في ذلك اليوم أبليتُ بلاءً حسناً بمواجهة الأعداء الذين دحرناهم إلى مواقع بعيدة عنّا.

لم يكُن هناك ما نغنمه، غير بنادق ومسدّسات، وبضع ملابس ممزّقة، وعلب سجائر، ودمٍ صبغ التراب باللون الأسود. لم ينسحب

الأعداء إلاّ بعد أن سحبوا معهم مدرَّعاتهم وقتلاهم. معركتنا اليوم كانت لاحتلال بقعة من الأرض في صحراء قاحلة. الصحراء من خلفنا، وأمامنا، وعلى جانبينا، لا شيء سوى الصحراء وترابها الأصفر الساخن.

قبل شهرين من ذلك اليوم، و لم أكن قد غادرتُ "أنقرة" بعد، طَلَبَ منّي الصديق "أبو مصعب" الذي لا أعرف مَن يكون حتى اللحظة، أن أبعث برسالة على الـ "واَتْساب" لرقم أرسَلَهُ لي أعلنُ فيها الولاء والطّاعة لأمير المؤمنين حال وصولي إلى "أضَنَة" وقبل أن أدخل الحدود السوريّة، واقتَرَحَ عليّ نصّ الرسالة بأن يكون بهذه الصيغة:

"أبايع أبا بكر البغدادي، على المنشط والمكره، في العسر واليسر، إلاّ أنْ نرى كفراً بواحاً، من الله فيه برهان".

وأفهَمَني بأنّي يجب أن أنتظر الردّ على رسالتي قبل الإقدام على أيّ فعل، كتَبَ لي أنَّ الردّ الذي سأستلمه سوف يحدِّد خطواتي القادمة، والأشخاص الذين سألتقيهم الموكل لهم تأمين وصولي إلى الجماعة.

أطعتُ ما أُمِرْتُ به من صديقي الذي لا أعرفه بغير الرسائل التي كنّا نتبادلها بواسطة الـ "فيس بوك". لا أذكر مَن منّا اقتَنَصَ الآخر.

***

قضيتُ سنتين في الجبهة، نالتني في المعارك إصابات خفيفة كان معالجو الميدان يتكفَّلون بها. إلى أن تعرَّضتُ لإصابة بالغة، نُقلت إثرها إلى المستشفى.

بعد عشرة أيام من العلاج في مستشفى "أضـــنة" الحكـــومي، عولجتُ خلالها من آثار الشَّظايا التي أصابتني في المعركة الأخيرة على مشارف حلب، بعد أن نجوتُ من الموت بأعجوبة. لا أتـــذكَّر مـــا حدث غير أنيّ كنتُ أتقدَّم على رأس مجموعة صغيرة مـــن الرِّجـــال في سيارتنا المسلّحة وقت وَقَعَ انفجار كبير، اهتـــزَّت بنـــا الســـيارة وارتفَعَت عن الأرض، رأيتُ مَن معي يُصابون، لا أتذكَّر إنْ كنـــتُ قد قفزتُ من السيارة أو أنّ قوّة الانفجار هي التي قذفتني خارجهـــا، غبتُ عن الوجود، كنتُ أسمع أصواتاً دون أن أميِّزها، لم أنتبه إلاّ في المستشفى.

عندما استفقتُ من غيبوبتي فهمتُ مِن الممرضة الـــتي كانـــت تتكلم العربيّة بأني قد وصلتُ قبل يومين، وأني لا أعاني مـــن شـــيء سوى أثر الصَّدمة الذي كان وقعه عليّ أعمق مِن جراحي. أبلغـــني الطبيب الذي يشرف على علاجي بأني لن أقدر على مُواصلة الجهاد قبل شهور. غادرتُ المستشفى وأقمتُ مع عدد من الأخوة المُصابين في بيتٍ يقع أقصى حدود المدينة. لم يكُن لدينا ما نفعله، ولم يُسمح لنا بالتَّدريب إلا بعد أن تلتئم جراحنا.

في الآونة الأخيرة انشغلنا بحـــوادث كـــثيرة، دخلنـــا معـــارك ضارية وشرسة وانتصرنا فيها، شُغِلنا بالسَّبايا والغنائم، ونعمنا بخـــيرٍ كثير.

بعد أن تقدَّمنا في السهول والجبال القريبة من حلب وصرنا على مشارف المدينة. دخلنا عدداً من القرى التي استقبلنا أهلها بـــالورود والأرز. كنتُ أشعر للمرّة الأولى بالأمان. فلم يبقَ أحدٌ ليقاتلنـــا، لم نجد غير العجائز والنساء والأطفال.

في كلّ قرية صغيرة أو كبيرة عشتُ تجارب جديدة. تمرَّغــتُ في أجساد نساء جميلات، أكلتُ مثل ثور، رَقَصَت نفسي وغنَّــت، وزدتُ بأن ذبحتُ جاسوساً. لا أنسى اللحظة التي أمَرَني بها القائد أن أذبح ذاك الخائن جهاراً نهاراً، وأمام أعين سكان القرية قصاصاً. لم يقــاوم يــدي التي أطبَقَت أسفل فكِّه، رفعتُ رأسه صوبــي، استسلم لخنجري وهــو ينسحب على عنقه الطري ويقطع حنجرته، لم أعُد أرى الدم الذي كان يتدفَّق منه ويُغرق يدي وأنا أسمع التَّكبيرات من حولي. ألقيتُ به بعيــداً ليتمرَّغ وجهه بالتراب، أشهرتُ خنجري وكبَّرتُ مع المُكبِّرين.

(صفحة في آخر الدَّفتر)

ماذا أفعل؟ هل أبحث عن مَنفَذ لصوتي الذي يعجز عن الخروج من فمي؟ لما لا أسرد حكايتي للرجل الذي يقف خلف الباب محمَّلاً بأثقال هائلة من الآلام لكي أرتاح؟ أعرف بأنه مشتاق مثلي لسماع صوتي مثلما أنا مشتاق لأن أضمَّهُ وأبكي.

(صفحة كُتبت حديثاً)

أعرف بأني أكذب على نفسي، مَن مِن البشر معــنيٌّ بصــوتي وذكرياتي؟ سَرَقَت زوجتي منّي ابني وهَرَبَت إلى أرضٍ لم يهتــدِ لهــا أحد، سافرتُ أبحثُ عنها في بلدها، اتَّهَمَني أهلها بقتلها. أيــن هــي الآن؟ هل ضلَّت طريقها مثلي وسُلبت مِن "أبــي مصعبها"؟

(صفحة في آخر الدَّفتر)

هل سيصبر عليّ أبــي بعد أن عُدتُ إليه. لقد أعجزتُه بعنادي وطَيْشي حتى عندما فَرَضْتُ عليه أن يدفَعَ ثمن دراستي مِن خبــزِهِم.

أخوتي ما يزالون مُستريبين مِن أمْرِ غيْبَتي، وأكثر مِن أمْرِ عودَتي. لـــن يقدروا على فهم معنى ما جرى لي.

ثقلٌ عظيمٌ يحطُّ على صدري، يُقطِّع أنفاسي، ويشلّ حركتي.

***

الضّلال

بقيتُ ساهراً طوال الليل، لم أسمع احتجاجات جار سريري القريب، وطلبه منّي أن أُطفئ الضوء، ظلّت عيناي معلّقتين بالصفحات المكرمشة والممزّقة، والخُطوط المتحوِّلة، المتلوِّنة، المتنازعة على التوحُّد، بلا جدوى.

حواديث وحكايات مختلفة ومتشابهة.

بشرٌ مشوَّهون.

كلماتٌ موغلةٌ بالوصف، شدّةٌ فيها ولين، هدوء وصخب.

حياةٌ غريبةٌ تتقافز حوادثها أمام وجهي مثل فئران مذعورة.

طلع الفجر، كنتُ قد رأيتُ وعشتُ في ليلةٍ واحدةٍ عالماً جديداً، بَشِعاً.

لم أعُد قادراً على فهم ما أقرأه أو تفسيره، همّي الأوحد كان أن يطلع عليّ النهار، وأن أتّجه إلى حيث صاحبي الذي تركتُه متأمِّلاً، أو نادماً، لأواسيه عمّا اقترفه عندما أنجب هذا الولد إلى الدنيا.

ما إن لاح نور النَّهار من زوايا نوافذ البركس، حتى قفزتُ من سريري، ارتديتُ ملابسي على عجل، دسستُ قدمي بالحذاء، ودون أن أغتسل يمَّمتُ وجهة "أبو الفهد".

أعرفُ مواقيت العجوز، فما إن يصلّي الفجر حتى يرتدي الكَبْـــر وينتعل حذاءه وينصب قامته ويمضي نحو استراحته إن لم يكن نائماً بهـــا من الليلة الماضية. لاحت لي الاستراحة، رأيتُهُ جالساً على كرسي قـــشٍّ صغيرٍ على عتبتها. سلّمتُ عليه، ورجوتُه وأنا أبتسم أن لا يوبِّخني لأنّني لستُ في عملي في المسلخ. ناولتُه الدَّفتر ورجوته أن يقلِّـــب صـــفحاته ليتحقَّق منه. شَتَمَني بتحبُّب وهو يراقبني وأنا أدلف داخلاً إلى الاستراحة لأرجع بعد بعض الوقت وبيدي زجاجة بلاستيكيّة ملأتُها بالكاز.

صار يراقب ما أقوم به باستهجان، قبل أن يُجهَد وهو يخمِّن ما أنا مُزمِعٌ على عمله، سحبتُ من بين يديه الـــدَّفتر، مشـــيتُ بضـــع خطوات بعيداً عنه، ألقيتُه على الأرض، سكبتُ فوقه الكاز، وعلـــى عجلٍ أشعلتُ عود ثقاب ألقيت به على الكومة الغرقـــى بـــالبترول، دون أن تبدر عنه أيّ حركة:

لقد خيَّرتَني بأن أفعَلَ به ما أشاء، ها أنا أرضخ لمشيئتِكَ.

لم يبارح موضعه ظلَّ معلّقاً عينيه بألهبة النار التي كانت متحفِّزة لإنجاز مهمّتها والإجهاز على سرِّه الخطير. بقينا صامتين نراقب النار وهي تلتهم الأوراق الكابوسيّة التي قضَّت مضجعه وجعلتهُ حائراً بما يمكن أن يفعله بها. ما إن أيقنتُ بأنه لم يتبقَّ من الدَّفتر غير الرمـــاد، نكشتُه بطرف حذائي تحرَّكت بقايا شعلات كانت متقطِّعة أنفاسها في القاع والتَهَمَت آخر قصاصة فيه. قلتُ له قبل أن أودِّعه:

كلّ هذا وهمٌ وهُراء، فلا هو جاهَدَ ولا قَتَلَ ولا سَبى. بل جُبنَ عن مواجهتِكَ.

شعرتُ بأنّي قدَّمتُ لصديقي جَميلاً عظيماً يوازي ثقته وأملـــه بـــي، لكنه ما زال لا يعادل ما قدَّمَهُ هو لي عندما ضـــمَّني تحـــت

جناحه ليلة التجأتُ إليه. عُدتُ إلى "دير الما"، إلى المسلخ، وكنتُ قد تأخَّرتُ عن العمل للمرَّة الأولى.

* * *

الدَّفتر

(صفحة)

القتلُ والسجن، دخول المعارك، الجوع والظمأ، الآلام، كلُّها أمور عاديّة وسهلة، لا تعُد تخيف إن حَدَثَت كثيراً. اغتصاب صبيّة لم تتجاوز العاشرة مِن عمرها في المرّة الأولى حالة تشبه الموت، كنتُ وكأنّي أُغتَصَب. دُفِعتُ لذلك رغماً عن شهوتي. أذكر أنَّها توسَّلت لي بدموعها ورُعبها أنْ أقتلها، كانت حصَّتي التي لن أساوم عليها أحداً ولا حتى الموت.

(صفحة)

كلّ مَن نِلتُ حقّي فيهنّ من السبايا لم يمتِّعني، الأميركيّة أم "عواد" وحدها مَن كانت تعرف كيف تمتِّعني. صوتها يحضُرُني الآن وأنا أكتب هذه الكلمات، أسمعُ صوت غنجِها وتأوُّهاتها، أراها تتلوّى تحتي وأنا أمتطيها. لا أريد أن أراها بغير ذلك. لكنّها هي ذاتها التي كانت تقف بوجهي متحدِّية إن علا صوتي، أو حاولتُ رفْعَ يدي أمام وجهها. لم أكُن أنجو مِن لعناتها التي تصبّها عليّ وعلى أهلي، وجنس البشر البربري المتوحِّش الذي أنا منه.

هَجَرَتني، هرَبَت من البيت قبل شهور مِن تعارُفي على "أبو مصعب"، رجعتُ من عملي كعادتي في المساء و لم أجدها، لم تترك لي رسالة قصيرة تخبرني بها عمّا اعتَزَمَت أن تقوم به، أخَذَت "عوّاد"

معها. لا أدري لَمَ كنتُ مصمِّماً على تسمية ابني بهذا الاسم "عوّاد"، حتى مَع رفض زوجتي ذلك. "عواد" الصغير لا يشبه جدَّه.

لن أُفاجَأ إن عرفتُ بأنّها مع عشيقٍ لها. لن يعني لي هذا شيئاً صادماً. حزني كلُّه على فراق صغيري الذي سوف يعيش في كنف أبٍ غيري.

ما زلتُ جاهلاً بالسبب الذي دفعها لهجري. إن كانت قد هربت مع رجل آخر فمَن يكون؟ وكيف عَرَفَتْهُ؟ هل هو رجل أفضل منّي ويعرف كيف يعاملها؟

لقد فاض بها، وهربت المجنونة من قفصي لتدخل برجلَيْها طواعيةً في قفصٍ جديد. هل فعلتُ مثلها وهربتُ من قفصٍ لأدخلَ آخر برجليّ؟

***

كابوس

صحوتُ مِن النوم فزِعاً.

كنتُ أمشي فوق أكوامٍ من الجثث، أدوس عليها بخطى بطيئة دون أن أقع أو أتعثّر، أمضي بطريقي، أسترق النَّظَر فلا أعرف وجه أحدٍ منها، قتلى بلا آثار طعن أو رصاص، جثث رجال محاربين ببزّاتهم العسكريّة، نساء وصبايا وأطفال، لم أعرف كيف حدث وتراصّوا وكأنهم ما يزالون أحياء يسعون لعُبور طريقٍ ما وعرةٍ مجتمعين؟

دستُ فوق وجوه وأعناق وبطون وأفخاذ وبقيتُ ماشياً حتى بلغتُ مستنقعاً ضحلاً، أخَذَت العتمة تلُفّني، خطوتُ داخل المستنقع، كان ماؤه بارداً دبقاً، انغمستُ به أكثر مع كل خطوة كنتُ أخطوها، صار الماء لزجاً كثيفاً، جاهدتُ بالمسير، لا أرى نهايةً للمستنقع أمامي، صار يزدادُ عُمقاً واتّساعاً كلما اجتزتُ مسافةً فيه، صرت وكأني ساكنٌ في جرح عظيم، نظرتُ ورائي أريدُ أن أرجع من حيث أتيت، صرتُ في بحيرةٍ كبيرة، عيون الموتى ما تزال ترمقني بنظراتٍ غريبة، لا أفهم كُنهها، لم تكن ترجوني لكي أساعدها، أو أن أسبلها لترتاح مِن النَّظر إلى الوجوه الميتة الأخرى، وإلى الدنيا التي منَّت عليهم بأنْ أدخَلتهُم بابها في وقتٍ ما.

الناسُ تخافُ الموت لأنه لا يأتي إلّا مرّة واحدة، المرّة الواحدة لا تعطي الفرصة للتجربة، على عكس كل ما نعيشه في حياتنا، لقد تعلّمتُ بأنّ الموت وإن كان صعباً وقاسياً إلا أنه لا يخيف، معايشته، وتجربته أكثر مِن مرَّة واحدة تقتل الخوف منه. في الحرب يعتاد البشر الموت.

عجيبة أحوال الناس الذين يتمنّون الموت، ولم يسبق لهم أن جرّبوه. كنتُ وأنا أواصل مسيري فوق الأشلاء والجُثث أفكّر بأنّ الموت في أحيان كثيرة أكثر إيلاماً وقُبحاً من الحياة. أفكّر؟ أم إنّي أحلم.

بَلَغَ الماء الثقيل عنقي، قاومتُه، رفستُ الأرض القريبة برجليّ، سبحتُ مثل ضفدع، صرتُ أعلو والماء ينساب عن جسدي، سموتُ رافعاً رأسي نحو السماء، برز نصفي الأعلى، الأرض تعلو بي، أُجهِدتُ، كدتُ أستسلم وأرمي بجسدي بين الجثث، لكنّي وبما تبقّى لي من قوّة اندفعتُ إلى الأمام، وصلتُ بأعجوبة إلى ضفّة البحيرة الأخرى، صرتُ بكلّي على اليابسة، الماء الدّبق ينساب عنّي، تأمّلتُ نفسي؛ كنتُ غارقاً بالدِّماء. أطلقتُ صرخةً مُفزعةً هزَّت الأرض مِن حولي، التفتُّ، لم يكن يحيطُ بي شيءٌ غير العدم. سقطتُ عن السَّرير، صحوتُ. البركس هادئ إلّا مِن صوتِ شخيرِ رفاقي المُتعَبين.

***

(صفحات مُتتابعة)

جاهدتُ لكي أحصلَ على معدَّل يؤهِّلني للدراسة في الجامعة، وصارعتُ لكي أعمل في الخليج، كنتُ أريد أن أجني ثروةً تساعدني في معركة الحياة. بقيتُ ذاك الفهد الذي استلبه أرباب عمله، واستغفله صديقه، وعافته زوجته، لم يتبقَّ له غير اسمه الذي صار يخجل منه. عندما طلبوا مني أن أختار لقباً أو اسماً حركيّاً لم أجد أضعف من اسم "طرفة ابن العبد"، ولخشيَتي مِن أن لا يقبلوا به لأنه جاهليّ، سمّيتُ نفسي "ابن العبد" وأنا أعرف أيّ ابنٍ أعني.

لم أكُن قد بلغتُ حافة اليأس عندما حسمتُ أمري، وأبلغتُ الأخ "أبو مصعب" برغبتي في الالتحاق بالمجاهدين. لم يسبق له أن طلب منّي ذلك، كان يكتب لي عن فضيلة الجهاد، وعظمة الشهادة، وعن الحال التي تردى لها المسلمون. كان ينقل لي أخبار انتصارات المجاهدين على الكفرة والطواغيت، ويسرد عليّ قصصاً عن قتال الملائكة إلى صفِّهم، ويقسم بأنه رأى بأمّ عينه أحد المجاهدين وهو يُسقط طائرة بمدفعه الرشّاش. لم أكُن أفكِّر في مجادلته، و لم أجادل نفسي. لم تكُن حياتي تعيسة، لكنها كانت فارغة. يا للأسى فهي ما تزال كذلك.

تقاعد أبي من الجيش وفكَّر بأن يفتح الاستراحة، كنتُ وقتها قد أوشكت على إكمال دراستي الثانويّة، صار يكلِّفني بالوقوف مكانه بعد أن أرجع من المدرسة ويذهب هو إلى البيت، هذه المهمة كانت هي السبب في نجاحي في امتحان الثانويّة، ففي الوقت الذي تخفّ به حركة المسافرين لم أكُن أجد ما أفعله غير القراءة في كُتُبي.

لا أعرف كيف حضَرَت لذاكرتي لحظةَ قتَلتُ أوّل رجل، بالرغم من الفوضى التي تسبّبتُ بها، ومِن توجُّعي مِن رفسة القائد وشتائمه، كيف وَرَدَت لخاطري تلك الحادثة التي وَقَعَت لي في الاستراحة منذ سنين؟

لم أستغرب تذكُّري لتلك الحادثة، لكنّي كنتُ عاجزاً عن تفسير ما رَبَطَها بقتلي لهذا الجنديّ الذي كان وكأنه يستفزّني لقتلِه، لقد انتابَني شعورٌ بالنَّشوة وكأنّي كنتُ أمارس الجنس بخياليّة، أو حُلميّة أسطوريّة وأنتهي بارتواءٍ يطفئ كلّ خلايا بدني. كنتُ في الاستراحة أطالع مادّة صعبة من مواد امتحان التوجيهي عندما سمعتُ أصوات عجلات سيارة تصطفّ بصَخَب قريباً من الاستراحة، رفعتُ رأسي لأرى ذاك الشاب الذي قفز من سيارته المكشوفة دون أن يفتح بابها، واندَفَعَ داخلاً عليّ مثل الرصاصة، لم يلقِ التحيّة، ولم يفعل مثل باقي الزبائن الذين يتناولون بضاعتهم ويضعونها أمام الصندوق.

بادر بأن طلب منّي بلهجةٍ وقحة أن أترك ما أقوم بعمله، وأن أناوله بعض الأشياء التي كانت قريبة منه، سألتُه أن يختار ما يرغب بشرائه بنفسه. لم أفهم وقتها كيف تحوَّل إلى شخصٍ آخر غير ذاك الذي كان يتراقص على موسيقى أغنية كانت تنبعث من مسجلة سيارته بصخب، انقلَبَ فجأة، وكأنه قد تلقّى صفعة قويّة، وفجأة كشّر عن أنيابه، احمرَّ وجهه وهو يسمعني أردّ على طلبه بتلك الطريقة. أذكر بأنه صرخ فيّ بصوتٍ هزّ المكان بأنّي موجودٌ هنا لخدمته، وبأنه هو ومَن مثله مِن الزبائن السَّبب في وجودي على الدنيا.

عندما رأى الكتاب الذي بين يديّ أبدى اندهاشه مِـــن أنّـــي أدرس. سألني ساخراً:

هل تفعلون هنا شيئاً غير رعْي الغنم؟

كانت الصبيّة الشقراء الجميلة التي ترافقه قد لحقت به عنـــدما تفوَّه بعبارته الأخيرة، جاءت لتذكِّره بشراء شيء ما، نظرتُ صوْب السيارة التي ما يزال ينطلق منها صوت الموسيقى بصخب، كان فيها شابٌ آخر يجلس على المقعد الخلفي مع صبيّة لا تقلّ جمالاً عن هذه التي دَخَلَت الاستراحة الآن. من الممكن أنّ شدّة جمالها هو ما خلاّني أستعيد هدوئي، وأقرِّر أن أقدِّم للشاب ما يريده، إلى أن سمعته يصفني للحلوة التي أنارت المكان، بالبهيم. لا أتذكّر غير أنّي قـــد هشّـــمتُ وجه الشاب الجميل، وكسرتُ ذراعه.

مِن أين انبعثَ وتمثَّل أمامي هذا المخلوق، وصـــرتُ أراه وهـــو يرفع يديه متوسِّلاً أن أكفَّ عن ضربه، عندما قنصتُ الجنـــدي مِـــن خلف الساتر الترابـــي، وأطلقتُ عليه الرصاصة التي رأيتُها تخترـــق جبهته في النقطة الصغيرة التي كانت تفلت من خوذته؟

فَرَحي هذا هو ما جعلني لا أكترثُ لغضب القائد، في اللحظـــة التي تيقَّنتُ فيها مِن أنّي قد أتقنتُ التَّصويب على الرجل، ونلتُ منه، انتابني الإحساس ذاته الذي تملَّكَني وأنا أهال بالضَّرب علـــى ذلـــك الشاب، مُتعتي كانت بضعفهما وعجزهما عن مقاومتي.

نحن البشر كثيراً ما نكون في جبهات الحـــرب دون أن نـــدرك ذلك.

***

فاجأتني "أضنة" بمطرها الغزير، وندف الثلج الناعم الذي كان يهبط بسلام على الأرض. الطقس يشبه ذاك الذي كان حين بعثتُ برسالتي مِن هنا لأبايعَ أمير المؤمنين، وأتعهَّدَ له بالسمع والطاعة. نفّذتُ وعدي ولم أخلفْه، ولم أنَل شرف لقاء وجهه، ولا وجه ربّي سنتين وأشهُر حَمَلتُ فيها أكثر ممّا حَمَلَ عمري كلّه. بعد أن أكملتُ سنتي الأولى، اكتفيتُ مِن عدّ الأيام، لم أعُد أميِّز فصول السنة، غير مِن إحساسي بالبرد، أو بالحرّ، أشعر بأنّي أعيشُ خارج الزَّمن، ولم أعُد أتذكّر كم بلغتُ من العمر، أضحَت عواطفي بالية، صارت أفكاري مشتَّتة، سريعة التَّغيير، أحْمِلُ في اليوم الواحد العشرات منها، في المعارك كنتُ أشعر بأنّي أُرضي الله، وعندما كنتُ أرى القتلى كان يتملَّكني الشكّ.

لم أكُن قادراً على مشاركة الآخرين أحاديثهم وجلساتهم، كنتُ أرى أنّهُ يفصلني عنهم حاجزٌ عظيم، فلا طريقة كلامي وكلامهم، ولا ما نحكي به واحد، حتى إنّ عواطفي لا تشبه عواطفهم. التجأتُ إلى الله فهو مُخلِّصي وهو الوحيد الذي أقدر أنْ أناجيه، وضعتُ بيني وبينه كتابه، نأياً عن الآخرين. أحسستُ بشكِّهم فيّ، وعدم رضاهم عن عزلتي. لم يسألني أحد منهم عن أسباب خلوتي لوحدي إلى أن تجرّأ شاب كان يقاتل لجانبي، وكان يدهشه كثرة ما قتلتُ مِن الطواغيت. سألني في لحظة هدوء على الجبهة عن سبب وحدتي، نظرتُ إليه مندهشاً من سؤاله، وأجبتُهُ باستنكار:

هل خلوتي بخالقي وحدة؟

وكأنَّ رصاصةً انطَلَقَت مِن الجبهة المُقابلة واستقرَّت وسط جبين سائلي، لُجم، وصَمَت، وببطءٍ انسلَّ مُبتعداً عنّي. لقد فهمتُ بأنّي مختلف، وبأنهم لا يحبّون المختلفين. زادت وحدتي وخلوتي، صرتُ

أفكِّر بما آل إليه أمري، صرتُ أتلبَّس بالشعور بالعَبَث، وباللاجدوى من الحياة، سواءً هنا، أو في الخليج، أو في حياتي الماضية في "دير الما". لا شيء سوى العبث.

لم أكُن أجد متنفَّساً غير أجساد السَّبايا. خِبتُ مرّات معهـــنّ. خيبتي لم تكُن تذلّ رجولتي مثلما كانت تفعل بـــي مع زوجتي، بعد أن كثُرَت وقت أزمة الرَّهن العقاري.

عَلِمَ القائدُ بأنّي لم أحظَ بما شرّعه الله لي مثل غيري، فلم يحدث أن غادرتُ واحدةً منهنّ وتركتُها منكّسة أو مُهانة أو ميتة. سألني في جلسة كان فيها مزاجه مرتاحاً، عن رجولتي ورغبتي بالنساء. أفهمتُه بأنّي مُتيَّم بهنّ. صار يتخيّر لي أبهاهُنَّ وأحسنهنَّ وأجملـــهنَّ خلقـــة، وصرتُ أغادرهنّ مطأطئات الرؤوس، فزعـــات ومبعثـــرات. حـــتى أضحَت السبيّة هي كلّ غايتي، نجوتُ من الموت كـــثيراً لأجلـــهنّ، وفررتُ من الأسر مرّات لكي أحظى بهنّ. اعتدتُ في وقتٍ قصـــيرٍ على أجسادهنّ، كنّ يشعرنني بعظمتي، وبقوّتي، وبأني سلطان زماني.

لا أنسى تلك الصبيّة التي تداولنا عليها، بعد أن ظلَّت أمها تتوسّل لنا، وتُقسِم بأنّ ابنتها لم تبلغ العاشرة بعد. اكتمال جسدها، وفتنتـــها لم يمنعانا من أن نتداول عليها أنا وستة آخرون داخل أحد البيوت المدمَّرة، جعلناها تفترش الأرض و لم نتركها تلتقط أنفاسها إلاّ لحظة انتهاء أحدنا منها وارتدائه ملابسه ومغادرته، ليتولاّها مَن عليه الدَّوْر.

صرتُ أجدُ متعةً عظيمةً في فعل ذلك، و لم أعُد أتـــوانى عـــن الدخول في معركة مع أيّ رجل مِن أجل امرأة. اعتدتُ على النســـاء السَّبايا مثلما اعتدتُ على القتل.

* * *

الوقتُ هو العدُوّ

هل يقدر المُصاب بالفصام أن يفهم نوع المرض الذي يعاني منه، مثل ذاك المُصاب بالرَّشح أو بالدِّسك أو حتى بالسرطان؟ إن كان ذلك ممكناً فأيّ شخصيّة فيه هي التي تعرف أنه مريض؟ هل أكون إنساناً مفصوماً أو مريضاً دون أن أعلم هذه الحقيقة؟ ما معنى ما أفعله؟ لماذا هجرتُ حياتي الماضية كلها والتجأتُ لهذه الحياة؟ كيف حدث أن رحلتُ عن ماضيّ حتى أنّي لا أفتقده، ولا أشتاق لشيء فيه؟ هل تخلّت عنّي إنسانيّتي وصرتُ مثل "فهد" لا يعنيني شيئاً سوى ذاتي؟ لِمَ لم أحاول أن أفكر بالألم والحزن الذي تركته ورائي؟ أمي التي تقدِّسني أنا صغيرها الكبير، كيف رضيتُ أن أفطر قلبها؟ أبي، إخوتي، أصحابي، وحتى "رُبى" كيف أنأيتُهُم بعيداً ولم أعُد أتذكّر أحداً منهم؟

تلك الصبيّة الصغيرة التي تحبني "سارة"، كيف حدث وأهملتُها، وحرَّمتُ عليها أن تدخل أفكاري ولو ألَحّت بالطَّرق على رأسي؟ تلك التي كنتُ أصونُها حتى في أحلامي، وأخاف أن أخدش طهرها، كيف حكمتُ بنفيها عن وجودي وعن تذكُّري؟ لماذا حتى تكون كل هذه الانهيارات في حياتي؟ هل أصابتني عدوى اليوم الذي جئتُ به إلى العالم؟ انهار الاتحاد السوفييتي الذي لا أعرف ماذا كان ولا لِمَ

انهار، شلَّتني فكرة انهيار الأشياء مِن يوم قرأتُ عن هـذا الانهيار المدوّي، فأردتُ أن أجرِّبه؟ قد أكون عرفتُ كلّ ما عرفته وأنا أبحث في "غوغل" للتلهّي في ساعة ملل مِن الدِّراسة، أو في يوم ميلاد لي انقضى على غير ما أُحبّ، بأنه دولة عظيمة تشظَّت وتمزَّقت لتصبح دُولاً، في يوم تمزُّقها وتشظّيها جئتُ إلى الأرض. أصابتني بعَدْواها وبتُّ متشظياً مثلها. في ذلك التاريخ العجيب أيضاً هُزمَت دولة عربيّة في حرب تسمى "عاصفة الصحراء"، وتشظَّت، كان تاريخ ميلادي يوماً من أيام هذه العاصفة التي ابتدأت قبله بأيّام قليلة، لم أعتَد على تذكُّر هذه العاصفة على الرّغم من أنّ كل شيء حولنا كان يذكِّرني بها، علق في ذهني حدث ذاك اليوم الكبير الذي أُجهز فيه على عشرات الدُّوَل بقرارات أو بخيانات دون أن تُسفك فيه نقطة دم. وعلقت فيّ فكرة انهيار الأشياء وكأنّي أحاول أن أهرب من هذا المصير.

عندما تركتُ العقبة وهرولتُ صوب عمّان كنتُ مصمِّماً على البحث عن "رُبى"، حتى لو اضطرّني ذلك لأن أسأل عنها في الجرائد وفي الإذاعات، كأنّي كنتُ أخوض معركة من أجل أن لا أتشظّى أكثر، وأن أجد ذاتي الواحدة. هي حرب مثل حروب "فهد" هذه التي تربض فيّ، أخوض غمارها دون وعي، ودون أن أعرف بأي طرفٌ فيها.

قبل أن ينفد منّي البنزين وأنا أسابق الزمن، كنتُ أفكر بسيناريوهات لطرائق أبعث من خلالها برسالة لربى دون أن يفهم أحد معناها إن وَقَعَت في أيدٍ غريبةٍ غيرها، فكّرتُ بأني لو لم أنجح بالوصول إليها فإني سوف أستغلُّ ثِقَلَ أبي ومعارفه وأسأل عنها

علناً، كنتُ سأدفعه بقوّة للحصول من الفندق الذي تعارفنا فيه على بيانات هوّيتها الحقيقيّة. فكّرتُ إن حَدَثَ ورفض أن يساعدني بأن أهدِّده بالانتحار. أو أن أنتحر دون أن أهدِّد أحداً.

كل ذلك أين ذهب؟ وكيف ذهب بهذه السرعة؟ تُرى هل أنا إنسانٌ مفصومٌ مثل "فهد"؟

ثم لماذا حتى أفترض بأن يكون فهد كذلك؟ هل أبحث عن تبرير منطقي لفصامي المكشوف والمُعلن؟

***

(صفحات)

خلال إقامتي في "أضنة" بانتظار أن يُعاد تأهيلي للقتال، جاءني رسول من أمير الجماعة طلب أن يختلي بي بعيداً عن البيت، خرجتُ معه كان المطر غزيراً، عرفتُ هذا الرسول، كان واحداً من الدُّعاة الذين التقيتُ بهم في أكثر من مكان، لم يكُن مُقاتلاً، هو مَن كان يضع الخطط للقتال، ويرسم الخرائط التي توصلنا إلى أهدافنا. أتذكَّر أنّ هذا الرجل كان يملك ذاكرة فولاذيّة، وكان قادراً على التنبؤ بمواقع تجمُّعات الأعداء وأماكن كمائنهم، ما كان لافتاً في هذا الرجل هو غضبه اللامنقطع، صرنا نتمنّى أن نرتقي لما هو فيه، بعد أن سألنا عن غضبه المستمرّ وأفهمونا بأنها غضبة الغيرة على المسلمين.

التقيتُ "أبو الدرداء" أكثر من مرّة في حلقات عامة، كنتُ أستمع إليه وهو يخطب ويحثّنا على الإسراع بالشهادة، لنظفر بنعيم الجنة وحورها العين. حدث واجتمعتُ به في مجالس وَضْع الخطط

للمعارك. تعرَّفتُ عليه عن بُعد، وبقيتُ أرى بأنّ وراء هذا الرجل أمراً مريباً يخفيه. شككتُ أن يكون خليفتنا البغدادي، أو أنه الأقرب إليه، إلى أن وقَعَت تلك المذبحة، وصرتُ أحسبهُ مثلما كان يحسبني، مِن أعداء الدين.

في واحدة من المعارك التي كنتُ على رأسها، قبضنا على عدد من جنود الطاغوت أحياء، على عكس ما كنّا نفعله ونمتثل للأوامر؛ بأن لا أسْر لعدوّ، بل يجب قتله في الحال. لم نكُن نحمِّل أنفسنا عناءَ سَوْق أسرى أو جرحى يستنزفوننا، نسقيهم من مائنا، ونطعمهم من خبزنا. كنّا نُجهز على كلّ مَن يقع من الأعداء بين أيدينا قبل أن يصبح أسيراً، فعلنا ذلك كثيراً دون أن يهتزّ لنا جفن. المقاتل الذي يواجه عدوه لا يفهم في المعركة غير أنّ هذا العدو لن يتحوَّل ليصبح غير ذلك، إلا إن صار ميتاً. لم نكُن نعطيهم الوقت للبكاء، أو التوسُّل، ولا حتى للاستغفار، ما تعلّمناه أنّ هذا الضعيف الآن، هو ذاته الذي كان يُطلق علينا قنابله ورصاصه قبل قليل ليقتلنا.

ما حدث في تلك الواقعة أنّ معركتنا كانت سهلة، لم نلقَ مقاومة تُذكر، ولم نجد إلا مجموعة من الرِّجال الذين يرفعون أياديهم فوق رؤوسهم وقد صاروا راكعين على الأرض قرب أقدامنا. أخرجوا مصاحفهم من جيوبهم، وأقسموا عليها أنهم مسلمون مثلنا، وأنهم لا يملكون من أمرهم شيئاً غير تنفيذ الأوامر.

قربهم منّا، وسماعنا لأصواتهم، كَسَرَ مبدأنا في قتلهم، فكّرنا بأنّا لو أطلقنا عليهم الرصاص فإنا سوف نصيب بعضنا لشدّة قربهم. عندما رأيتُ دموعهم، وسمعتُ توسُّلاتهم اتَّفقتُ مع جماعتي أن نأخذهم أسرى، وأن نترك تقرير مصيرهم للقادة.

لم أكُن أحسُّ بأيّ شفقة نحوهم، كل ما فكّرتُ فيه بأنّ بمقدورنا أن نستفيد منهم، لا أعرف كيف، نجعلهم دروعاً بشريّة، أو نستعملهم لحفر الملاجئ، أو نبادلهم بأسرانا. لم أكُن معنيّاً كثيراً بالبحث في هذا، ولأنَّ لا أحد من مجموعتي عارض فكرة أسرهم، وقد كان معسكرنا قريباً، فقد حظي أولئك الجنود بفرصتهم لأن يظلوا أحياء.

عُدنا للمعسكر نقودهم أمامنا مثل الشياه، لم يوبِّخنا القائد على ما فعلناه، على العكس فقد أعجبته فكرة أن نحتفظ بهم حتى يُتاح لنا فرصة مبادلتهم بأسرانا، طلب أن نسقيهم الماء، ونطعمهم القليل من الخبز وأن نلقي بهم في الزنازن.

لم ندرِ مِن أيّ سماء هبط علينا "أبو الدرداء" هذا؟ أو مَن الذي أبلغه بوجود أسرى عندنا، دخل علينا وهو يزبد ويرعد. لم نكُن قد استرحنا بعد عندما بدأ باستجوابنا، وسؤال كلّ واحد منّا عمَّن كان صاحب فكرة الإبقاء على حياتهم.

شعرتُ بالخوف، و لم أعُد قادراً على سماع ما كان يقوله أصحابي، الذين أقرّوا جميعهم بأني أوّل مَن فكَّر بالإبقاء عليهم. لم يعطِني الفرصة لأن أردّ عليه، أو أبرِّر وجهة نظري على الرغم من أنيّ قد ابتدأتُ بلوم نفسي واتِّهامها بالجهل عندما فعلتُ ما فعلتُ وأبقيتُ على حياة هؤلاء الرِّجال.

دون أن يسمع حجَّتي اتَّهَمَني بأنّي ضعيف الإيمان، وبأنّي جبان، وبأنّي أُضِلُّ جماعَتي عن الحق. رددتُ على ما يصفني به، ليس خوفاً مِن عاقبة أن تُلصق بي تهمة ضعيف الإيمان والتي تعادل الخيانة العظمى وحسب، بل لشعوري بأنه قد مسَّني في إيماني، وهذه مسألة لم أكُن لأساوم عليها أحداً.

انقَضَت دقائق تداوَلَ فيها "أبو الدرداء" مع القائد بأمر الأســـرى، صدر بعدها الحُكم بإعدامهم في الحال. شعرتُ بشيء من الراحة عندما لم أسمع بالحكم عليّ بالإعدام معهم. ما أفتى به الرجلان بقتل الأسرى لم يشعرني بالحزن أو الأسى على الجنود، فهذه ليست المرّة الأولى التي ننفِّذ فيها حكم الموت بالأسرى، أو الكفرة، أو الخارجين عن طوعنا. مـــا لم يجعلني مرتاحاً لهذا القرار هو توجُّه "أبو الدرداء" لي بالأمر أن أنفِّذ أنـــا هذا الحكم. لم يكُن بيدي شيء أفعله غير أنْ أرضخ.

لن أنسى في حياتي تلك النظرات التي رمقوني بها عندما أمـــرتُ جماعتي أن يبقوا على حياتهم، ولا نظراتهم التي رشقوني بها وأنا أديـــر ظهورهم، وأدفعهم لأن يجثوا على ركبهم، قبل أن أضع في مـــؤخرة رأس كل واحد منهم رصاصة.

ها هو "أبو الدرداء" معي في "أضنة" المضيئة، المُشعّة، المُبهجـــة، الهادئة إلاّ من أصوات أغنيات هاربات من مذياع، أو من تلفزيون في المقاهي المنتشرة الكثيرة. كان حليق الذقن، مقصراً شـــعره، وكـــان صوته خافتاً.

تذكَّرتُه بعد أن عرَّفني بنفسه، كان وجهه ممتلئـــاً بالكراهيـــة، وببثور خلّفها موس الحلاقة عليه، هي السحنة ذاتهـــا الـــتي يأكلـــها الغضب، لم يصادف أبداً أن رأيته يبتسم، أو ينطق كلمة لا تكـــون مغمَّسة بالدم.

قبل أن يفاتحني بما جاء به إلى هنا، توقَّفتُ قليلاً مع نفسي لأفكر بأنّ مَن يحمل كلّ هذه البغضاء في وجهه لا يمكن أن يؤتمن ولا حتى على أولاده، فكّرتُ بأنه يحمل معه لعنة يريد أن يحطّهـــا هنـــا. دون وعيٍ منّي سألتُه عن أولاده. كان الوقت مناسباً لأن نتكلّم بشيء ما

يكون خاصّاً، فلو أنيّ أذكر الكلمات التي سمعتُها منه طوال أشهر لوجدتُ أنها هي ذاتها؛ "أن لا تأخذنا بالأعداء شفقة ولا رحمة، وأن نقتلهم حيث ثقفناهم، وأن نقيم على الكافرين حدّ الله". سألتُه عن أولاده راغباً بأن أعرف إن كان له حياة مثل باقي البشر. لجمني بنظرة زادت مِن غضبِه، لم يجبني عن سؤالي.

لا أفهم من أين يأتي رجل بكل هذا الغضب؟

فهمتُ من المقدّمة القصيرة التي ابتدأ فيها الكلام بأنه لم يستطع أن يخفي كراهيته لي، ذكّرني بحادثة الجنود الأسرى، واعترف لي صراحة بأنه لم يغفر لي خطيئتي هذه، وبأنه يأسف لأنّ قائدي خالفه الرأي بأن أُحكم بالجلد، أو بالموت على فعلتي البغيضة تلك. بعد أن انتهى من مقدِّمته، وكنّا قد صرنا قرب مقهى صغيرة مُرتجلة، لا تعدو غير كونها عربةٍ وَضَعَ فوقها شابٌّ بضع كراسٍ صغيرةٍ كان يفردها على الأرض كلّما لاح له زبون، انتصب فوقها إبريق شاي نحاسي ينبعث منه دخان يُشعر بالدفء، وكؤوس بلاستيكيّة. سَحَبَ "أبو الدرداء" كرسياً ومضى به بعيداً عن العربة، لم أجد غير أن أتبعهُ بعد أن أشرتُ للشاب أن يلحقَ بنا بكوبين من الشاي.

حاوَلَ أبو الدرداء جاهداً أن يخفِّف من حدّة بغضائه، وأن يلطِّف من كلماته، لكنه لم يُوفَّق، أو لم تطاوعه نفسه على ذلك، فأخذ يقذف في وجهي حمله الثقيل الذي أخرجه من الشام وجاء به إلى "أضنة". قام بصلافة وحدّة بمواجهتي بما آلت إليه حالي، كان يرمقني بنظرات قرف وتقزُّز، قال دون أن يحاول الادِّعاء بغير ذلك:

أنتَ تعرف بأنكَ لم تعُد قادراً على القتال، الأطباء يقولون إنّ إصابتكَ قد أضعفت قدرتك، و لم تعُد قدماك قادرتين على

حملك على المشي، فكيف لها أن تحملكَ على النِّزال وخـــوض المعارك وأنتَ تعرف بأنكَ لم تعُد شاباً؟

لم يعطِني الفرصة لمقاطعته ولا بكلمة، كلَّما حاولتُ الـــتكلُّم، كان يرفع كفهُ البيضاء الناعمة في وجهي، يقرِّبها مِن فمي، ويـــأمرني بأن أصمت وأن أكتفي بالاستماع. كنتُ أحاول إفهامه بأنّ إصابتي لم تكُن بهذا السوء الذي بَدَت عليه، وبأنّ الأطباء أكدوا بـــأنّي مـــا زلتُ أتمتَّع بعافيتي، وبأنّي قادرٌ على العودة للجهاد. رضختُ وبقيتُ أسمع، و لم أنطق بكلمة:

أراد أمير المؤمنين أن يشرِّفكَ، وأن يرفعَ مقامك. أنتَ تعلم بأنَّ أعداء الله منتشرون في الأرض مثـــل الوبـــاء، وأنّ حـــربهم لا حدود، ولا مكان، ولا زمان لها.

لا أدري لماذا شعرتُ بأنّ ما يتكلَّم به لا يعدو غير أن يكـــون هُراءً وسخفاً، أيّ أعداء هؤلاء الذين يتحدَّث عنهم؟ ماذا يريد منّا أن نفعل؟ أن نقاتل كل مَن على الأرض؟ قد نكون محقّين بجهادنا، لكن هل نحن قادرون على محاربة كل البشر؟ أليس هذا انتحاراً؟ وقبل أن أجيب نفسي عن ما كان يتوارد فيها من أسئلة ألقى حملـــه الوســـخ الثقيل والذي كنتُ أنتظره:

لقد أمَرَ رضوان الله عليه بأن يوكل لكَ بمهمّة استشهاديّة. أنتَ خبيرٌ في ذلك، لم تفشل ولا مرّة واحدة في إرســـال إخوتنـــا بعمليّات استشهاديّة، جميعها تكلَّلَت بالفوز لدهائك، وخبرتك.

لمحتُ ابتسامةً صفراء تنطبع على فمه، أكمل:

لقد تفوَّقتَ عليَّ يا أخي بهذا، العمليات الاستشهاديّة لا يتقنها سوى مَن هم أمثالك.

انتحاريّة؟

سألتُ مُقاطعاً دون أن أخفي غضبـــي.

"استشهاديّة يا ابن العبد"، صرخ بـــي، "لا تجعلني أصدِّق مـــا يُقال عن ضعف إيمانك، أو أن تكون مدسوساً علينا".

صفَعَني بعبارته الأخيرة. لُجمتُ وانعقد لساني عن الكلام. هـــا أنا بعد أن هاجرتُ لله ورسوله يخلّيني هذا المسخ مدسوساً وخائنـــاً. مادت بـــي الأرض، تركتُ كأس الشـــاي واقفـــةً علـــى الأرض وتيبَّستُ في موضعي.

لقد صَدَرَ الحُكم، وليس عليّ غير أن أنفِّذه. إنه أحد الخيارين؛ أن أُطيع وأستشهد، أو أن أعصي فأصير مارقاً وجاسوساً وأُعدَم. هذا ما جاءني به طائر الشؤم الذي يسمّي نفسه "أبو الدرداء".

كلّ ما عايشتُه مِن مُشاهدة الموت ومُعاينته، وكلّ ما نلته مـــن إصابات، لم تكُن تعني شيئاً، المحارب يظل طوال المعركة يأمل بالنّجاة حتى يعتاد النّجاة، فيصبح أكثر رغبةً في القتال، مَن يرونه يظنّون بأنه أكثر شجاعة، لكنه بالحقيقة غير ذلك، فجرأته لا تتأتّى من الشجاعة، بل من تعلُّمه اللاواعي، بأنه لن يُصاب ولن يُقتل، يغيب الأمل ويحلُّ مَوْضِعِهِ شيء اسمه التعوُّد على النَّجاة. شيء يشبه التعوُّد على الحرب والقتال، والتعوُّد على الإصابة، والتعوُّد علـــى الألم، إلى أن يلاقـــي الموت، فتنفرط شجاعته الظاهريّة ويرجع لطبيعته الجبانة. أنا جبُنـــتُ ولم تعُد رِجلاي قادرتين على حمْلي عندما سمعتُ "أبـــو الـــدرداء" البغيض يطلب منيّ أن أنفِّذ عمليّة انتحاريّة.

***

لماذا أُكثر الحديث عن النهايات وأنسى بداية البدايات؟ هل أنستني حياتي في الخليج، وجهادي، أين كنتُ قبل كل ذلك؟ كيف كانت البداية؟ أمِن يوم وعيتُ على الدنيا و لم أعتَد على وجبة الطعام اليوميّة؛ الخبز والشاي؟ من أين كان يأتي أبي بكلّ هذا الخبز والشاي. لن أنسى صفعتهُ التي ظلّت آثارها مرسومةً على وجهي عندما رجع ذات يوم من المعسكر فجأةً ورآني وأنا أجادل أمّي رافضاً أن آكل، صرخ بي بغضب:

اشكر الله كثيراً أنكَ تجد الخبز والشاي، غيركَ لا يطالهما.

لينتحروا إن لم يجدوا هذا القرف ليأكلوه.

لا أدري كيف تملّكتُ الجرأة لأن أقول ذلك، وفي وجه أبي؟ صفَعَني بشدّة، بقيَت أصابعه مرسومة على وجهي أياماً، ولازمتني صفعته إلى اليوم. ما زلتُ أعتقد بأنّ قهر أبي لم يكن منّي، ولا مِن رفضي أن أشكر الله على الجوع، بل مِن إحساسه بأنه عاجز عن أن يتجاوز فينا حالة الفقر التي نعيش بها.

عندما اصطحبني في إحدى العطل الصيفيّة معه إلى عمّان، وكنتُ أزورها للمرّة الأولى في حياتي، كان مطلوبٌ منه أن يشتري كميّة من لبن الجميد وإيصالها إلى بيت قائد المعسكر. فكّر بأنْ يكافئني على نجاحي في الصف الابتدائي الخامس بأن يجعلني أزور العاصمة عمّان.

أخيراً، وطئتُ هذه المدينة التي بدت لي ساحرة، ببيوتها، وشوارعها، والمركبات التي لا تُحصى، البشر الذين يتحرّكون مسرعين جيئةً وذهاباً، رجال ونساء وأطفال، وفي آخر الأمر بيت القائد الذي وقفنا أمام بوّابته العالية ننتظر الجندي الذي عرف أبي وسلّم عليه، وصمّم أن يدعونا لكأس شاي.

قادنا الجندي إلى غرفة صغيرة تقبع في طرف حديقة فسيحة ملأى بالشجر وبالورود. ونحن بانتظار أن يسخُن الماء سمعنا ارتطام شيءٍ ما بجدار الغرفة، انتفض الجندي، وفزّ مثل الملسوع، خرج مسرعاً، لحقتُ به، مخالفاً أمر أبي لي بأن ألزم مجلسي. أخذتُ أسترقُ النَّظر، رأيتُ صبيّاً جميلاً بمثل عمري يرتدي ملابس رياضيّة، وقد بدا عليه الملل من انتظار شيءٍ ما. اختفى الجندي مضيفنا بعض الوقت، عاد مسرعاً يحمل بيده كرة قدم من الجلد، ناولها للصبيّ وهو يعتذّر لتأخُّره بإنزالها عن سطح غرفته، تناول الصبي الكرة دون أن ينطق بكلمة.

عندما غادرنا بيت القائد وصرنا في وسط السوق، فكّرتُ بأنّ أبي لن يقدِم على صفعي في مكانٍ عام، كنتُ ما زلتُ صامتاً، لم أتكلّم و لم أعلّق على شرح أبي لي عن الأشياء التي كنتُ أراها أوّل مرّة. قلتُ بخوف، وبصوت مخنوق:

ابن القائد مَن يجب عليه أن يحمد الله.

فوجئ أبي بعبارتي، تسمَّرَت رجلاه على الأرض، رمقني بنظرة كنتُ أرى فيها كلّ المشاعر التي تتملَّك البشر إلا الغضب.

في تلك الليلة سمعتُ أبي يكلِّم أمي عن تفكيره بأن يترك الجيش، وأن يبحث عن عمل يطعمنا شيئاً غير الخبز والشاي. لقد فهمتُ آنذاك على صغر سنيّ، بأنّي قادرٌ على فعل ما أريد، حتى وإن تعرَّضتُ للصفع. ظلَّ متردِّداً في تنفيذ قراره لسنوات حتى خطرت في باله فكرة بناء استراحة للعابرين مِن وإلى العقبة ولنا. لو أنه لم يبنِ هذه الاستراحة لما حلمتُ بأن أدرس في الجامعة. قمتُ بما هو

مطلوب منّي، اجتهدتُ، وسهرتُ الليالي الطويلة أدرس على ضوء سراج البيت، وفي مناوباتي في الاستراحة إلى أن حقّقتُ حلمي، أولى خطواتي، نجحتُ في الثانويّة، وقُبلتُ في الجامعة.

هل انحَدَرَ وعْيي بعد كلّ ما أنجزتُه في تلك السنوات؟ كنتُ أمضي في تحقيق أحلامي مثل الصاروخ. أنهيتُ الدراسة بعد أن أنهكتُ أبي. لم أكُن لأشفق عليه، فهو الذي أراد أن أكون، وعليه أن يحتمل مسؤوليّة إرادته، هو الذي أنهكَ أمي بحملنا، وتسليمنا إلى الحياة، عليه أن يكمل ما قسمه لنفسه. لا أنسى بأنهُ قد حرم أخوتي من كسوة العيد مرّات، ومرّات أعادهم للخبز والشاي ليجمع قيمة أقساط الجامعة، هي إرادته، لماذا حتى أدفع ثمن إرادته؟

هل انحدرتُ عندما سلَّمتُ وجودي لمصيرٍ عجائبيٍّ غريب؟ ولحقتُ بطيفٍ افتراضيٍّ اسمه "أبو مصعب"، رسائله التي كانت تسوقني لأقداري العجيبة، مِن لحظة أن التقطني، أو التقطتُه، مصادفة على الـ "فيس بوك"؟ رسائل قصيرة، مكثفة، مُستفزّة، خلَّتني أخوض تجربة حياتي الكبيرة. لا أعلم إن كان "أبو مصعب" مخلوق موجود حقيقةً، أم إنّهُ فعلةٌ غيبيّةٌ خرجَت من داخلي، طوَّحَت بي، ورَمَتني في بطن التجربة وكأنّها تريد أن تعلِّمني كيف تكون الحياة؟

بحثتُ عنه أكثر ممّا بحثتُ عن زوجتي، جرَّبتُ أن أتَّصل بهذا الطَّيف لكي ألقاه، وأحادثه، كنتُ أرغبُ بأن نحكي كبشريَّيْن، يريان، ويسمعان، ويحسّان، وحتى يشتمّان رائحة بعضهما بعض، ويقرآن ما هو مكتوب في العيون، والحركات، ما قد يكون أكثر شرحاً من الكلمات.

بحثتُ عنه على الـــ "واتساب" والـــ "فيس بوك"، لم أُوفَّـــق، وكان يأتيني الردّ بأنّ مَن تسأل عنه غير موجود. لم أعُد أعرف ماذا يجري لي؟

ماذا لو أنّي لم أنجُ وأعود لبيتي لأتذكَّر؟ عندما نرجع لبيوتنا نجد بأنّ كل شيء مثلما تركناه، الأصوات والألوان والروائح وحتى الخبز والشاي، نجد بأنّ لا شيء قد تغيَّر إلاّ نحن.

***

العَتَب

أيّ مأزق هذا الذي تضعني فيه يا صديقي الطّيّب يا "أبا هـــذا الفهد"؟ هل قرأتَ كل ذلك حقاً؟ كيف احتملتَ هـــذا العـــذاب؟ كيف رضختَ له وهو يكشفكَ لنفسك، وتركتَهُ يعلمكَ، ويعاقبكَ، ويُفهمكَ بأنك أنتَ صانعه؟ أنت خالق هذا الوحش؟ الآن عرفـــتُ لماذا أردتني أن أطّلع على هذه التراجيديا، أنتَ لا تريد مَن يشاركَ العلم بها، بل تريد مَن يحملها عنك، ما تريده هو ما يريـــده ابنـــك، كلاكما تبحثان عن الخلاص، هو بَحَثَ عن خلاصه معـــكَ مثلمـــا عوَّدته من طفولته، وأنتَ أردتَ خلاصك فيّ، لأريحكَ مِن حمْل هذا الإثم الذي صنعه "فهد" وحمَّلكَ إياه. أمّا أنا، يا لعذابـــي، أنا لا أريد شيئاً غير أنْ لا أخذلك.

لو أنكَ بعد أن كشَفَ لكَ ابنكَ مَن يكون، وكيـــف صـــار، وأعطيتَ هذا الدَّفتر لَمن يحاكمه، فإنه سوف يغفر لـــكَ حـــتى وإن حُكم عليه بالموت، سوف يرضى بكلّ ما يصيبه، سوف تحطّ علـــى نفسه الطمأنينة، لأنه بهذا يكون قد وجد خلاصه. لو لم يكتب مـــا كتبه، لو أنه لم يتكلّم، ويبوح لكَ بأسراره الشّنيعة هذه، لعرفتَ أنتَ ببداهتِكَ كلّ ذلك، ولزدتَ في التفاصيل التي لم يكتبها، ولســـفكتَ دماً أكثر، وقتلتَ أبرياء أكثر، وسبيتَ نساء الأرض كلهن.

هذا زرعُكَ يا صاحبـــي الشيخ، هذا مَن يردعـــكَ و لم تقـــدر أنتَ على ردْعِه، هل كنتَ تفهم وأنتَ ترى ابنكَ يتعرّى أمامكَ مِن كلّ ما يستره، بأنه أرادَكَ أن تعرف بأن كل ما غيَّر حياتك كان هو سببه، كنتَ قانعاً بعملكَ بالجيش، وكنتَ راضياً بإطعام أولادكَ الخبز والشاي، ولن أُدهش إن علمتُ بأنكَ كنتَ سعيداً بحياتـــك تلـــك، وكنتَ تشكر ربّكَ في كل يوم على نعمته الجافة البخسة. لقد كنتَ أنتَ أوّل صيد فهدك وأولى فرائسه، ها هو ينِّبهكَ لهذا لكن متأخراً. ما يُحزن هو أنه كان متنبِّهاً لذلك منذ البداية، و لم يلفتكَ أنتَ ذلك حتى بعد أن قرأتَ سيرتَهُ واعترافاتِه.

ما الذي تريده منّي يا صاحبـــي؟ آآآآآآآآآآه كم أنا موجوع.

***

(صفحات)

الخوفُ، مُحرِّكي في كلّ شؤون حياتي، الخوف.

لا أتذكّر يوم عودتي إلى "دير الما"، ولا عدد الأيام التي قضيتُها هنا، ولا مَن زارني ليسأل عن حالي، ولا ما هي الأعياد التي فوتُّهـــا. انزويتُ في هذه الجحر الضيِّق رغماً عن إرادتهم كلهم، لا مكان يليق بـــي أكثر من جحر الماضي، خزّان أكياس الطحين، واللبن الجاف، والعدس، ومخلفات الاستراحة. أقنعتُهُم بلا كلام بأنَّ هذا أكثر مـــا أتمنّاه. مُحايلة أبـــي عليّ لأن أحتلّ غرفته وأمي لم تـــنجح، حـــتى عندما رغب بأن يبدي لي فرحته بعودتي، ومازحني بقولـــه إنّ هـــذه الغرفة لم تعُد لها ضرورة، أحجَلَ أمي وهو يـــتكلّم وينظـــر إليهـــا ضاحكاً، لكنّي لم أبتسم.

ما يزال البيت العتيق على حاله، الغرفة الصغيرة الضيقة تلك التي يحكي عنها أبـــي، والثانية المستطيلة الكبيرة ذاتها تلك التي كنّا نتكوَّم فيها صغاراً، كلّما كبُر واحدٌ منّا كانت تمدّ أمي له فراش صـــوف في ردهة البيت المُحاطة بالأبواب، أبواب الغُرَف، والمطبخ، والخُروج إلى الخلاء، والجحر الذي يؤويني الآن. الرُّدهة هـــي الأكثـــر اتِّســـاعاً وحركة، فيها نأكل ونشرب وندرس ونصلي ونستقبل الضيوف.

صار البيت اليوم مهجوراً، غادرناه كلنا لبيوتٍ قريبة، وأخرى بعيدة في إربد، وعمّان، والدوحة أو في تلك البلاد التي يُحفظ فيهـــا السلام. الجحر الضيِّق الصغير المُعتم هو المكان الذي اخترتُه معتَزَلاً لي في زاوية البيت قرب المطبخ، كنّا نسمّيه في الماضي الخابية، بعـــدها صرنا نسمّيه حجرة الخزين. لم تعُد أمي تخزِّن فيها غير ما لم يعُد لهـــا به حاجة، أو ما يسهل الاستغناء عنه.

صيامي عن الكلام ابتدأ من يوم وصولي، اعتزمتُ أن أكمـــل رحلة صمتي التي ابتدأتُها بعد اجتماعي بـِ "أبو الدرداء"، ما زلـــتُ ملتزماً به بعد أن وجدتُ فيه راحتي لأوّل مرّة في حياتي. إن تكلَّمتُ زدتُ في عذابـــي.

الصَّمت آية الأنبياء، الصَّمت لحد الذكريات.

مَن يراني غارقاً في سكوني كان يخاف ممّا أخفيه خلـــف هـــذا الصَّمت. لم تنجح كلّ مُحاولات أبـــي وأمي في استنطاقي، لم ينالا مني غير الإشارة، لو أنّي ضعفتُ وتكلمتُ، وبحتُ لهما بمـــا يعتـــرك جوّاي، لهشَّمت روحي وروحيهما.

فتَّشتُ حولي عمَّن يسمعني ويريحني إن تكلَّمتُ، فلـــم أجـــد غيري، وهذه الأوراق.

* * *

الدَّرسُ الذي علَّمَني إيّاه التائه المتوحِّد

الصَّوتُ ميلادُ الكلام،
والكلماتُ حَبْلٌ لا ينقطع،
إنْ تكلَّمتَ كُشِفت،
وإنْ سَكَتَّ عدّوكَ مُتوحِّداً.
لا أريد أن يكشفني أحد.
خائفٌ مِن كل شيء صرت،
لكن منذ متى وأنا أخاف؟
نسيتُ خوفي مِن قُطّاع الطَّريق.
فهل أعاد لي "فهد" هذا الخوف؟
عجيبةٌ حياتي؛ كل هذا الخوف و لم أظفر بأيّ انتصار.
أريد أن أخلّي في رأسي فسحةً للتذكُّر.

* * *

(صفحات أخرى)

التحاقي بالمجاهدين كان مبعثهُ الخوف. بعد أن انتَشَرَت أخبار داعش وصاروا مشكلة العالم و لم تقدر على هزيمتهم كلّ دول العالم، انتابني إحساس بالرُّعب من قربهم منّي، التجأتُ إليهم ليحموني

منهم. بيتي غدا خواءً بعد أن هرَبَت منه زوجتي، امتلأ بالسُّكون.

أعجزني صديقي "بسام" في أن أستعيد ما سرقه منّي. صرتُ خائفاً من الرُّجوع لفقر أهلي، حاربتني زوجتي، خلّتني أعاني من انتكاستي وحدي، أنا والخوف. لم أفكر بالعودة للأردن، حسبتُ بأنهم قد نسونا، لم أجد ونيساً غير "أبو مصعب".

هل كان "أبو مصعب" يعرف كلّ أخبار حياتي؟ كيف حدث وحطَّ عليّ من السماء في تلك الأوقات بالذات؟ قد يكون هو من غرَّر بزوجتي ودَفَعَها لهجري، وهو مَن حرَّض "بسام" على سرقتي. هل أرادت "داعش" أن أقف إلى صفِّها؟ لأيّ قيمة وَجَدَتْها فيّ كانت تريدني أن أكون معها؟

كنتُ أوّل مَن استَنَّ فكرة فرسان الاستشهاد.

عندما استعصَت إحدى القرى علينا، أشرتُ على القائد أن نُدخِل لها عدداً من المقاتلين، ندسّهم بين الأهالي العائدين بعد المعارك، وعندما تحين اللحظة المناسبة يقوم كلّ رجل منهم بتفجير نفسه في الموضع الذي يرى أنه يخلِّف خسائر كبيرة بين الأعداء.

لم تكُن فكرة عبقريّة، ولم أكتشفها، فهذه واحدة من مبادئ العمل في بورصة الأسهم التي كنتُ أتقنها. وافقني القائد، وأبدى حماسةً عظيمةً للفكرة، طلب من المقاتلين التوّاقين للشهادة والذين تطوَّعوا بملء إرادتهم أن يفجِّروا أنفسهم في أيّ وقت، وفي أيّ مكان، قبل أن يُكشفوا. كنّا نرى ألسنة اللهب وهي تعلو، بعد أن نسمع أصوات انفجارات قويّة، ونهلِّل فرحاً.

أرسلنا مَن يستكشف المكان وعادَ ليبشِّرنا بأنّ القرية قد أُخلِيَت، مشينا صوبها، فوجدناها فارغة إلاّ من الجثث التي كانت

أشلاءً، ومِن بعض مواقع مقاومة أجهَزْنا عليها بسهولة. رفعني الرِّجال فوق رؤوسهم فرحاً بهذا الفوز الذي لم يكلِّفنا سوى بضعة مجاهدين.

وصل خبر هذا النصر للقيادة، فجاءني رسول من هناك يبشِّرني بأنّ مولاي أمير المؤمنين قد سمّاني والياً للفرسان الاستشهاديّين. لم أجِد عناءً في تجهيز العشرات لمثل هذه المهمّات، لقد فكرتُ بأن أغيّر من نهجنا القديم بالاجتماع بالمستشهد على انفراد لشحنه بالإيمان والعزيمة، صرتُ أشرح لجماعة كاملة فضيلة قتل أعدائنا، وأخيِّرهم بين البطولة الفرديّة التي هي جسارة وقوّة أعظم من تلك التي مع الجماعات، كانوا يتسابقون إلى الموت لينتصروا لشجاعتهم أمام الآخرين قبل الانتصار بالمعركة.

في المعارك التي كنّا نُهزم فيها، أصبح هؤلاء الفرسان الذين كنّا نكفيهم عن المشاركة معنا هم مَن يزرعون الرُّعب في أيّ مكان يصلون إليه مهما كانت صفته.

يا الله. ماذا كنتُ أفعل؟

لقد عرف "أبو الدرداء" دوائي، ها هو يجيئني متسلِّلاً ليطلب منّي أن أقدِم على ما دفعتُ الكثيرين لفعلِه. أيُّ شرٍّ يسكُن في داخل هذا الرجل؟ أيُّ شرٍّ كان يسكن في داخلي؟ أستغفر الله العظيم.

***

أُرهِقت.

لم أُكمِل القراءة، تقطَّعَت أنفاسي، لا أريد أن أكمل، أو أن أعرف المزيد. ما تزال أوراق الدَّفتر مكتظة بالكلمات، وما زال الفضول ينهش بي ويستحّثني على المواصلة. شعوري بالغثيان كلّما قرأتُ كلمة أو عبارة لم يكُن وهماً، صرتُ أقاوم لكي لا أقذف ما في جوفي على الأرض. قلّبتُ الصفحات، كانت محشوّة قيئاً ودماً، ودموعاً غير مكتوبة.

لم أقدر على المُواصلة، صرتُ أركض بعينيّ فوق الصفحات، وكأني أبحث عن مَخرج من هذا المأزق، أو أن أرى فهداً يتحرَّر من ذاته ويعلن رفضه لكلّ ما يسرده هنا.

الكلمات ذاتها، العبارات ذاتها، قتل وذبح، ورضوخ لكلّ ذلك وكأنه الإيمان، إلى أن عاد يتكلَّم عن زيارة "أبو الدرداء" الأخيرة إليه. كان يدور في أفقها ويحوم حولها مثل الفراشة. بدأتُ أعرف حقيقة فهد التي أعلنها صراحةً بأنه جبان، هو يريد أن يُخلِّص نفسه بما يكتبه مثلما كان يريد أن يخلِّص حياته من الموت عندما جاءه الأمر بالانتحار، تساءلتُ إن كان حقاً جباناً لهذا الحدّ؟ من أين واتتهُ الجرأة على الانخراط في هكذا عمل؟ إن كان حقاً مثلما يدَّعي بأنّ الخوف مِن أن تسطو عليه داعش هو الذي دفعه للِّحاق بها، فلماذا حتى يكون دمويًّا وعنيفاً بهذا القدر؟ هل قال فهد كل شيء؟ أم إنه كان ما يزال مُستلباً من انتمائه لهذه الكائنات فلم يرغب بأن يعترف بضعفهِ؟ هل مَن يقدِم على أفعال بهذه الوحشيّة يكون معنيّاً بأن يوصف بغير ما هو كائن عليه؟ أم إنه لم يفعل شيئاً؛ لم يقتل ولم يستبِح القاصرات ولم يدفع الكثيرين للانتحار وقتل الأبرياء، فحطَّ

عليه الخزي وصَغُر في عيون مَن هو معهم، فصنع كلّ هذه البطولات؟

إن كنتُ أرغبُ بأن أكون بطلاً، فإنّ بطولتي لن تأتي من الوهم، وإن كنتُ أريدُ أن أحقّق ذاتي الضعيفة والجبانة، فلن أُقدِّم نفسي على طبق وأعترف بأنّي مجرم وقاتل.

فهد الذي تقصَّدَ أن يترك هذه القصص وراءه في خابيتِه يعرف بأنها لن تقع إلا في يد شخصٍ واحدٍ؛ يد أبيه، فهو لم يفكر بأنّ في هذه القصص اعترافات بجرائم لا تُغتفر، وبأنّها كفيلة بإعدامه عشرات المرّات، لقد كان يفكر وهو يتلقّى الصَّفعات الواحدة تلو الأخرى في الخليج، بأنّ كبرياءه لن يجعله يظهر مهزوماً أمام أهله، لأنه لو حدث ورجع من غربته الطويلة خاوي الوفاض حتى من زوجته وابنه، فإنه لن يكون قادراً على مواجهة أبيه، وإقناعه بأنه مهزوم، وضعيف، وخائب، على عكس ما كان يشعره به طوال حياته وما تعوَّد أن يصوِّره للآخرين منذ طفولته.

كلّ هذا الحشو لا يعدو غير رسالةٍ قصيرةٍ موجَّهة لأبيه يقول فيها: لا تغترّ، فأنا لم أرجع مهزوماً، انظر ماذا فَعَلَت قوّة وجبروت ابنك.

هل كنتَ تعرفُ يا صاحبي عندما أعطيَتُهُ اسمَهُ بأنَّ "الفهد" لا يكون قوياً إلّا في مُواجهة الصِّغار؟ وأنه جبانٌ في مُقارعة الكبار، هل كُنتَ تقرأ طالعَهُ؟ سرعةُ فهدكَ في الجرْي وراء ترفِ الدُّنيا حَرَقَت شحومه، وأضمَرَت جسده، فلم يكُن قادراً على مُجاراة الأقوياء منذ بداية خلقِه، لم يقدر إلا على الضُّعفاء الذين كنتَ أنتَ أضعفهم.

تُراني أُهذي؟

تعجَّلتُ في مُسابقةٍ مع الصفحات الأخيرة، كنتُ أشعر بأنّني مُلزمٌ بالوصول لنهاية هذه السيرة قبل الفجر حتى أملك الوقت للتفكير بما يجب أنْ أقولَ لصاحبي، وللبحث عن مَخرجٍ ينجّيه مِن عذاب ضميره، إلى أن وصلتُ النِّهاية.

* * *

(الحوادث الأخيرة)

لا مفرّ، إمّا أن أرضَخَ وأُنفِّذَ ما أمَرَني به "أبو الدرداء" أو أن أرفض وأعترض، وأسلِّم عنقي لهذا الرجل الذي سيعرف كيف يؤلِّب عليّ كلّ المجاهدين. تجرَّأتُ وصارحتُه بما أفكر به، وواجهتُه بحقيقة مشاعري نحوه. لم يبدِ اهتماماً، اكتفى بأن هزّ رأسه بأسف، وتمتم بصوتٍ قَصَدَ أن أسمعه: "اللهم اهدِ قومي فأنهم لا يعلمون". رمَقَني متشفِّياً شامتاً قائلاً:

ها قد عرفتَ خياراتك، إمّا أن تموت كافراً، وتُدفَن مع الكفّار، ويضحي مصيركَ جهنَّم وهي بئس المصير، أو أن تسعى سَعْياً إلى الشَّهادة والجنَّة؟

لم يكُن منّي غير أن قبلتُ الخيار الثاني، مؤكِّداً صدق نيَّتي، تخلَّيتُ عن خنوعي وضعفي أمامه، وقلتُ له بصوتٍ غاضبٍ إنَّ جهادي لله ورسوله، وليس له، ولا رضوخاً لأوامره، وإن كان لزاماً عليّ السَّمع والطاعة. لم يكترث بما أتفوَّه به، ولم يشعرني بأنه يسمع شيئاً ممّا قلت.

بتلعثُم مصطنع، أخبرني وهو يودِّعني، دون أن أردّ عليه السلام، بأنّ أحد الأخوة سوف يزورني، ويزوِّدني بالتفاصيل.

أعتَرِفُ بأنّ الساعات أو الأيام التي قضيتُها بانتظار الرسول الذي يحمل تاريخ موتي، كانت أطول ساعات حياتي. أتذكَّر بأنّي أخذتُ أنبش في ذاكرتي عمّا يمكن أن يشدّ من عزيمتي. ختمتُ المصحف مرّات، لم تهدأ ظنوني ومخاوفي. كنتُ أُمَنّي النفس بمعجزة تُعجِّل في نهايتي. استعدتُ كلّ النَّكسات التي مرَّت في حياتي وألقت بي أرضاً، أحسستُ بأنها كانت نعيماً وهناءً.

لم يفلح إيماني في أن يخفِّف عليَّ خوفي من المجهول. استغفرتُ الله، صلَّيتُ كي يساعدني على بلوتي، إلى أن جاءني الفرج مع الرسول الذي زارني في آخر الليل، أعطاني مبلغاً كبيراً من المال، وجواز سفر أردني ليس هو جواز سفري القديم ذاته الذي فقدتُه أو اختفى بعد وصولي تركيا. صورتي في الجواز الجديد تُظهرني وأنا حليق الذقن، وأرتدي بدلة وربطة عنق، لم يعُد اسمي "فهد"، تحوَّل إلى أحمد. لم أسأل الرسول مِن أين جاء بهذه الصورة، تذكَّرتُ بعد أن غادرني، بأنَّها واحدة مِن صوري التي كانت على الـ "فيس بوك"، ولم يشرح لي لماذا لا أستعمل اسمي وجواز سفري القديم.

الهدف كان وسط الشام وداخل دمشق العاصمة. أخبرني بأني سوف أتَّجه إلى سوريا، مِن أنقرة مروراً ببيروت. أفهمني بأنّي وبعد أن أقيم في بيروت بصفتي تاجراً لبضعة أيام، سوف أتَّجه إلى الشام بهويَّتي الأردنيّة كواحد من عشرات الأردنيّين الذين ما يزالون يقومون بالتجارة بين الشام وبيروت.

لقَّنني رقم موبايل وطلب منّي أن أحفظه غيباً، وأن أتَّصل بصاحبه حال وصولي دمشق، قال إنَّ الشخص الذي سوف يردّ عليّ هو مَن سيتكفَّل في تسهيل مهمَّتي. عندما سألتُه عمّا أفعله بالمبلغ

الكبير الذي أعطاني إياه، أجابني بأنه لتصرُّفي وما يتبقى منه أسلِّمه للأخوة في دمشق، ومنه سوف يؤمِّنون السيارة التي سأنفِّذ بها عمليَّتي.

لا أقدر أن أُنكر فضل الله عليّ، فقد اجتزتُ جمارك مطار أنقرة بسلام، وعبرتُ بيروت وأنا أحمل حقيبة صغيرة تحتوي بعض الغيارات، وكاتلوجات لَمقابض أبواب سويديّة الصُّنع، من المفترض أنها البضاعة التي أُتاجر بها، كان قد جهَّز لي الرَّسول هذه الكتالوجات، ناولها لي مع تذكرة الطائرة.

قضيتُ في بيروت أربعة أيام سكنتُ خلالها فندقاً في شارع الحمرا، صرتُ أخرج صبيحة كل يوم أتجوَّل فيها على المحلات التي تتاجر بسلعتي ذاتها. أقضي وقتاً طويلاً في عرض بضاعتي التي لا أعرف عنها شيئاً على أصحاب هذه المتاجر. بعض التجار كانوا يحتملوني لدقائق قبل أن يرفضوا عروضي، آخرون لم يكونوا ليتوانوا عن وصفي بأني إنسان غشيم في التجارة، ويسخرون منّي، وآخرون كانوا يطردوني بأدب، لم أكُن معنيّاً بغير أن أسجِّل في ذاكرتي عناوين هذه المحلات، وأنا واثق مِن أنّ أصحابها لن ينسوا شكلي إن حَدَثَ واضطُررتُ لتبرير سبب إقامتي في بيروت لأيّ جهة كانت.

بعد انقضاء الأيام الأربعة، ومثلما أعلمني الرسول، اجتزتُ الحدود إلى دمشق دون أن أثير ريبة أحد، حتى أنّي صرتُ أشعر ببعض الرِّضا والسَّلام، وبأنّ الله قد يسَّر أمري لأنصره. إلى أن انتبَه لي شاب صغير كان يرافقني برحلتي من بيروت إلى دمشق، عندما هَمَسَ بأذني قائلاً إنَّهُ يبدو عليّ الخوف والتوتُّر. ادَّعيْتُ بأنّ كل ما أُعاني منه لا يزيد عن شعوري بالإعياء من السفر والتنقُّل في أكثر من

بلد. قال لي وهو يتلهّى بقراءة مجلّة في يـــده إنَّ لا أحـــد يمكـــن أن يصدِّق بأنّي تاجر، لأنّ مظهري، حركاتي وكلامي، تعتـــرف بـــأني لست ابن سوق، بل ابن مَزارع أو معسكرات، وبأنّ الحروق الـــتي لوَّحَت وجهي من الشمس، أو من شيء ما غيرها تكشفني بســـهولة لِمَن يدقِّق النَّظر فيّ.

عاد الخوف يتملَّكني، إن كان لولدٍ مثل هذا أن يعـــرفَ بـــأنّي لستُ ما أدَّعي، كيف سأفلتُ مِن أمن الحـــدود الســـوريين الـــذين يدقِّقون في كلّ تفصيلة صغيرة أو كبيرة؟

عندما أكَّدتُ له ظنونه، من خلال صمتي الذي كان يرتعش في داخلي وكأنه الضجيج والصَّخب، ليخرج وينطبع على كل مـــا فيّ، رُعباً، عَرَضَ عليَّ أن يساعدني في اجتياز الحدود بسلام مقابل مبلـــغ من النقود، فكّرتُ عندما استطاع أن يكشفني بسهولة، بأنه يرغـــب في اقتناصي وسرقتي وحسب. شكرتُ الله مبكراً جداً، وقدّرتُ بأنه ليس جاسوساً لسوريا وأنا أراقبهُ وهو يحكي مع مســـافرين آخـــرين بالطريقة التي كلَّمني بها، عاد مكتفياً ومقتنعاً بصيدِه الثَّمين؛ أنا.

غادرنا نقطة الحدود اللبنانيّة "المصنع"، ارتَقَت الحافلةُ بنا طريقاً مرتفعةً، بعدها بدأت بالهبوط نحو نقطة حدود سوريا. سلَّمتُ أمري لله، وللشاب الذي تناول جواز سفري، وطلب مني أن ألحـــق بـــه، تكلَّم مع موظف الجمارك وناوله جوازيّ السفر، قام الموظف بتوجيه الأسئلة التقليديّة لكلينا، وأشار علينا أن نتَّجه للتفتيش، لم أكن أحمل سوى حقيبتي الصغيرة، ومحتوياتها الغريبة، لم ينتبه أحدٌ للنقود الـــتي كنتُ أحملها في حذائي، فقد كانوا منشغلين بالبحث عن مهرَّبات أو أشخاص مشبوهين، ولحسن الحظ لم أكُن واحداً منهم.

ما إن اجتزتُ هذه المرحلة الصَّعبة، وعدتُ إلى الحافلة، حتى تنفَّستُ الصَّعداء، مِلتُ على الشاب، همستُ بأذنه بسؤال إن كان بمقدوره أن يساعدني في العبور إلى الأردن. فاجأه طلبي الغريب، أخبرني أنَّ الحدود مفتوحة ولا عائق أمامي لتجاوُزها.

اضطرَّني لأن أكذب، وأنْ ألفِّق قصة أقنَعَتْه، قلتُ له إني مِن المُعارضة، وإن حدث وتعرَّفوا على هويتي فسوف يتم اعتقالي. وجدتُ نفسي مندفعاً أتوسَّل له أن يجد أيّ وسيلة تدخلني الأردن.

لم أكُن أعرف مِن أين تملَّكتني الرَّغبة في أن أرى أهلي ثانيةً، أو لربما للمرّة الأخيرة. شعرتُ بأني أريد أن أراهم، وأسمع أخبارهم، أعرف مَن وُلدوا، ومَن ماتوا، أردتُ أن أفعل مثلما يفعل غيري في "دير الما" أعمل، وأتزوَّج، وأنجب أبناء. أتحدَّث بالسياسة، وفي أعراض الناس، وفي غلاء الأسعار.

فكَّرتُ بأني أرغبُ في وداع أبي، وأمي، وأن أنسلَّ سِرّاً عائداً إلى الشام لأستكمِلَ مهمَّتي. أفكار كثيرة كانت تتراطم داخل رأسي، دون أن تستوقفني أيّ منها للتأمُّل بها. الراحة التي أحسستُ بها حال غادرنا الحدود باتِّجاه دمشق، زَرَعَت في صدري حفنة عجيبة من الفرح، شعرتُ بأني تحرَّرتُ من سجن نصف قرن، أو أني طائرٌ يفتِّش عن سماء بعيدة ليرتقي لها.

عاجلتُ الشاب بأن كشفتُ له عن رغبتي في العودة إلى منبعي، وبعد أن قال لي إنّ هذا سوف يكلِّفني الكثير، أبديتُ استعدادي لدفع أيّ مبلغ لقاء أن أكون مطمئنّاً بأنه لن يَغدُر بي. بكلماتٍ قليلةٍ خلاّني أطمئنّ له، لكنّي بقيتُ حذراً منه، و لم تخبُ مخاوفي مِن أنه قد يغدُر بي.

ما الذي أُقدِم على فعله؟ هل سأكتفي برؤية أهلي ثم أرجع لأُنفِّذ ما كُلِّفتُ به؟ أم إني سوف أفتح باباً جديداً لجهادي من هناك، هل سيغفر لي "أبو الدرداء" خروجي عن الأمر؟ ألن يرسل خلفي من يقتصّ منّي؟ عاد الخوف يتلبَّسني من جديد، لم أقدر أن أتراجع عمّا طلبتُه من الشاب، وقرَّرتُ أن لا أفكر كثيراً.

في دمشق ناولتُ الشاب ورقة مئة دولار كنتُ أحملها في جيبي بعيداً عن باقي النقود عربوناً، على أن أعطيه مئة أخرى إنْ أكمَلَ معي وأمَّنَ طريقي. توجَّهتُ معه لموقعٍ تتجمَّع فيه شاحنات كبيرة من تلك التي تنقل الخضار. مضى بي نحو مجموعة من الرِّجال كانوا يتناولون طعامهم الذي أعدّوه بأنفسهم، متحلِّقين على كراسي واطئة، يتكلمون بأصواتٍ مُرتفعة، ويخلقون في المكان صخباً لا يحتمله سوى الفراغ الذي يحيطهم، وشاحناتهم العملاقة.

بعد أن سلَّمنا على الحاضرين، أشارَ لأحدهم، فتَرَكَ ما يقوم بعمله، ولحق بنا. انزوى الشاب بالرجل الذي غطّى الشيب شعر رأسه، وشاربه العريض، وذقنه التي أهمل قصّها، فبدا لي أنه قد تجاوَزَ الستين. طلب الرجل مبلغاً كنتُ أخفي في جرابي أضعافه. وافقتُ أن أدفَعَ له كلّ ما أملكه شريطة أن أصل إلى الأردن سالماً.

***

لم تكُن رحلتي إلى الأردن أكثر يُسراً. الشاحنة التي كان يقودها الرجل الستيني برفقة شابين صغيرين قطَعَت بنا الطريق من الشام إلى أن لاحَت لنا أضواء بعيدة شحيحة. أوقف الشاحنة بجانب الطريق، طلب منّي أن أنزل، لحقتُ به إلى خلف الشاحنة، تعلَّق ببوّابتها،

وفتحها، أشار عليّ أن أصعد إلى داخلها، زوَّدني بعدد من التعليمات التي فهمتُها بسهولة، لا تُصدر صوتاً إن وَقَفَت الشاحنة، ولا تخـــرُج من مكانك إلاّ بعد أن نفتح لكَ الباب، إن وجدتَ أنَّ مَـــن يفـــتح البابَ أحدٌ غيرنا نحن الثلاثة، ابقَ مُختفياً بين الصناديق، لا تســـعُل، ولا تتحرَّك.

مَضَت الشاحنة في طريقٍ وَعرة، إلى أن وقَفَت وفُـــتح البـــاب، وتحقَّقتُ بأنّ الرجل الستينيّ هو مَن فَتَحه. كانت الشاحنة واقفـــة في مكانٍ تظلِّله أشجار كثيفة، انتظرتُ إشارته، قفزتُ مِن على ظهرها.

أشار بيده صوْب جهةٍ أظهَرَت معالمها نيرانُ القصف الذي كان يهزّ أرجاءها، ويصل أسماعنا واضحاً. كنّا واقفين غرب مدينة درعـــا التي كانت تبدو مدينة شبه ميتة.

ظلَّ السائق ودوداً حتى عندما هدَّدني بأنه إن صَدَرَ منّي أيّ فِعلٍ مُريب، أو إن لم أعطِ للشابين باقي المبلغ المتَّفَق عليه، بأنهما ســـوف يقضيان عليّ دون أن يعنيهما أمر دفني. وعدتُه بأنه سوف يكون هو والشباب راضين.

عانقني مودِّعاً وكأننا نعرف بعضنا بعضاً منذ وقت بعيد، طلب من الشابين أن يهتمّا كثيراً بسلامتي.

رضختُ باستسلام لتعليمات الشابين الصارمة، بأن لا أصـــدر صوتاً، ولا أتحرَّك إلا بحسب تعليماتهما، وأن ألحق بأوّلهما الذي كان يتحدَّث طوال الوقت في الموبايل، دون أن ألتفت للآخر الذي يمشي خلفنا. أفهماني بأنه يجب أن نترك مسافة بيننا نحن اللذان في المؤخرة، وبين الشاب القائد الذي عرفتُ عندما التقطتُ بضع كلمات منه بأنه يكلِّم شخصاً ثالثاً داخل الأردن. فهمتُ بأنّ هذا الثالث كان يرسم

له خارطة الطريق، يوجِّه مساره، يوضِّح له الطُّرُق التي يجب أن يسلكها لتجنُّب أماكن تواجُد دوريّات الجيش.

كان القائد يصف لمحدِّثِه الأماكن التي نصل لها، عناوين بَدَت أكثر وضوحاً مِن أرقام وأسماء الشوارع في أيّ مدينة؛ الخرّوبة المحروقة، صخرة النَّبع، السنديانة العجوز.

بدأنا بهبوط أحراج كثيفة الشجر، منحدرات حادّة، تعثَّرتُ بمسيري، أوشكتُ أن أسقط على وجهي أكثر من مرّة لولا ذاك الشاب الذي كان يمشي خلفي، والذي كان يتلقَّفني، ويعيدني لتوازني، دون أن ينطق بأيّ كلمة.

ما إن وصلنا قاع الواد، وكانت عيناي ما تزالان معلَّقتان باتِّجاه شاب المقدِّمة، أحاول أن لا يغيب عنّي في العتمة الكالحة، حتى بدأنا بارتقاء جبل لم أكُن قادراً على تَبَيُّن ارتفاعه وأنا أجاهد لالتقاط أنفاسي. شعرتُ من لحظة بدأنا بارتقاء الجبل بأنّا صرنا في الأردن. خَبا خوفي، أحسستُ بالأمان، فكَّرتُ بأنّ هذا آخر مبتغاي. ليكن الآن ما يكون.

جاءتنا إشارة من شاب المقدِّمة بأن نتوقَّف وأن نهبط إلى الأرض. أوشكتُ أن أصرخ به أن يكمل مسيره، شدّني الشاب الذي خلفي من قميصي وأنزلني إلى الأرض. أشار بيده أن أصمت وأن لا أتحرَّك. انقَضَت دقيقة سمعنا فيها صوت محرِّك سيارة ثقيلة، عَبَرَ من فوق رؤوسنا ضوء كشّاف، ما لبث أن اختفى. بقينا على سكوننا، إلى أن جاءتنا الإشارة بأن نكمل المسير.

أخيراً وصلنا طريقاً معبَّدة، قرأتُ يافطة مكتوب عليها "إذنيبة/ الطرّة". أعرف هاتين البلدتين، نحن الآن بالتأكيد في الأردن.

قبل أن يبزغ نور الفجر كنّا قد صرنا قريبين من مدينة "الرمثا"، توقفنا ثلاثتنا، تأمَّلتُ الشابين، كانا صغيرين، لم يبلغ أكبرهما العشرين. شددتُ على يديهما وعانقتُهُما، خلعتُ حذائي وهما ينظران إلى ما أفعله ويبتسمان، سحبتُ مِن جرابي مبلغ النقود الكبير الذي كنتُ أخفيه هناك، قبل أن أناولهما إيّاه سألتهما كم يكفيني للوصول إلى العقبة؟ ردَّ عليَّ واحد منهما بأنّ مبلغ مئة دولار كفيل بإيصالي إلى هناك في تكسي خاص. سحبتُ من رزمة الأوراق ورقة مئة دولار واحدة، مددتُ يدي لهم بكلّ ما تبقّى معي، كانت عيونهم تشعُّ فرحاً وهُما يودِّعاني، بعد أن أشارا لي صَوْبَ طريقٍ أمضي به.

***

البَحثُ عن قَرار

ساقَني "فهد" من جديد إلى الحيرة والتَّساؤل عن هذه التفاصيل الصغيرة؛ الرِّحلة والطريق والصُّحبة، هل من الممكن أن يتذكَّر رجلٌ كلّ هذه التفاصيل بهذه الدّقة إن لم يكُن قد جرَّبها؟ أوشكتُ أن أعيدَ قراءة هذه الصفحات الأخيرة، فرغم ما فيها من مغامرة، إلا أنَّها كانت ملطِّفة، سهلة، حتى إنها مشوِّقة. أين هذه الحوادث مِن كلّ ما كَتَبَهُ الرجل؟ إلى هنا ويكفي، لن أعيدَ فتح هذا الدَّفتر حتى لو شدَّني الشَّوق لأن أعرف المزيد. خطوتي القادمة هي الأهمّ، يجب أن أنجح بمهمَّتي، أن أنقِذَ صاحبي، لربما ردَدْتُ له شيئًا من دَيْنه الكبير الذي في عنقي.

قبل أن يطلُع النهار، كنتُ قد فكَّرتُ بما يجب أن أفعله بهذا العبء الكبير الذي حمَّلَني إيّاه الرجل، فكَّرتُ بأن أدفعه لتسليم ابنه ودفتره للأمن، فقد تنجلي الحقيقة هناك ونستريح ثلاثتنا، لكنّي عدلتُ عن هذه الفكرة، فلو أنّ "عواد" أراد ذلك لَفَعَل مِن لحظة أن قرأ اعترافات ابنه، هو يريد السَّلام لنفسه، ويبحث عن مخلِّصٍ يريحه من العذاب الذي وضعه فيه هذا الابن، القضيّة هنا ليست قضيّة الخبز والشاي، ولا تهشيم مسافر عابر، ولا دراسة في الجامعة تستنزف قوت عائلة كاملة، القضيّة في حياة بشر، وفي موت أبرياء، وسفك

دم، واغتصاب طفلات. أبو الفهد يتمنّى أن يُحاسَب ابنه وأن يدفع ثمن جرائمه، وسادّيته، وعُقَدِه، لكنه لا يريد أن يكون هو الذي يقدِم على فعل ذلك. كأنه أراد أن يقتصَّ من ابنه على أفعاله من لحظة أن دفعه لتغيير مسار حياته، وحياة أهله، حتى غيابه عنهم سنوات طويلة، وقطيعته لهم. عقوقه، أنانيّته، ونسيانه أهله الذين جاعوا ليطعموه، كفيلة بأن تدفعهم للتبرُّؤ منه، أو حتى لقتله، كيف وقد زاد عليها بكلّ هذه الجرائم؟

أعرف كيف يفكّر صديقي، فهو قد يغفر لابنه آثامه التي ارتكَبها بحقّه، وبحقّ أهله، لكنه لن يغفر له إثمًا ارتكبهُ بحقّ الآخرين. لقد وجد "عواد" خلاصه فيّ، فهو يعرف كم أحبُّه، ويعرف بأني لن أخونه، لكنه لن يكرهني إن أنا وشْيتُ بابنه. هل تذكّر هذا العجوز وهو يعطيني هذه الاعترافات لأقرأها بأنّ عمري وتجربتي في الحياة لا تؤهِّلاني لإصدار أيّ حكم يكون عادلاً؟ هل يريد مِن إنسانٍ بريءٍ مثلي، يرى أنّ سرقة سيّارته وحزّ طرف عنقِه جريمةٌ كبيرةٌ لا تُغتفر، أن يحكُم على سفّاح؟

لقد حمَّلني هذا الشيخ أمانةً عظيمةً لا يضاهيها حجمي الصغير، عندما قال لي إنّهُ يأتمنني على نفسه، وعلى ولده. لا أريد أن أصدِّق بأنه كان يعني بهذا أن أعرف وأن أسكت. لقد خلاّني حَكَماً لكي يرتاح، لم يكُن ليكترث أو يتألّم إن سلّمتُ الدَّفتر وابنه للأمن، بأكثر من ألمِ الفَقْد، فقد سبق وجرَّبه. لكنه سيرتاح، ويخرُج من هذه الدوّامة التي رماه ابنه فيها.

بالتأكيد هو لن يعودَ يحُبّني مثلما كان يفعل، فهو لن يطيقَ رؤية الرجل الذي كشف ابنه، وأودى به إلى الموت أو السجن.

نُبلُهُ هو ما دَفَعَهُ لأن يختاري لأخلِّصه من هذا الصِّراع الذي هو فيه. أيّ خيار هذا؟ وأيّ مصير يريده أبٌ بنقائهِ لابـــنٍ مجـــرمٍ؟ وأيّ مصير يريده لي هذا الرجل؟

ليغفر لكَ الربّ أيها الصديق الطيِّب، أين ذهبتَ بـــي؟ وفي أيّ متاهة رميتَني؟

***

الجزء الثالث

التَّواري

الحنين

لم أكُن أشعُر بثِقَل حَمْلي، وبكمِّ الأسى الذي أُعانيه إلاّ عندما احتَرَقَ الدَّفتر، وترمَّد، وتطاير دخاناً.

لم أكُن أفهم مِن أين جاءني كل هذا الكَمَد؟ وكيف تملَّكني كل هذا الشَّقاء، وأنا الذي لم يعرفهما إلاّ صُوَراً لحيواتٍ بعيدة، لا أراها إلا في فيلم سينما، أو في نشرة الأخبار. لم أقدر أن أفسِّر كيف بقيتُ مأخوذاً لفكرة أنَّ حياتي الماضية كانت شقيّة وبائسة، دون أن أذوقَ طعم الحزن والألم إلا مرّة واحدة، بعد أن خسرتُ المرأة التي ملَكَت حياتي "رُبى".

صُدِمتُ بسطو قاطعي الطريق عليّ، وبالتَّعب غير المألوف الذي نالني من وقفة انتظار القشاط الذي يسوق الدجاج المذبوح لكي ندجِّنه ميتاً أيضاً، ونخلّيه يرضخ، ويتجمَّل لأولئك الذين سيلتهمونه بتلذُّذ.

هل تجاربي هذه تركت فيّ ما تركَتْهُ قصة المقاتل "فهد"، حتى وإن لم أصدِّق بأنها قد وقعت حقيقةً؟ إن كان هذا هو الأسى، فلماذا صرتُ أحسُّ بأنّي خفيفٌ مثل ريشة؟ ومنطلقٌ مثل فراشة؟ ونسيتُ ما كان من عمري بعد أن قرأتُ ما قرأت، وكأنه ما كان؟

تلبَّسني فجأة حنينٌ لأمي، وأبي، ولبيتنا، أثقَلَ على صدري. تذكَّرت الصغيرة ابنة "رشا"، ولعبي معها، أوشكتُ أن أقع على

الأرض مِن هجمتهم المُباغتة وأنا أتلقّى داخل رأسي صورهم، وكلماتهم، ومشاعرهم التي استباحَتني بلا تهيئة، ولا مقدِّمات. غدوتُ مثل مَن استعاد ذاكرته المفقودة، والمُحشوّة بالكثير من الناس، والأحداث. بلحظةٍ حاكمتُ نفسي التي تناسَت كلّ ماضيها بتقصُّد، وبرضوخها لحُكمٍ أصدَرَته ضدّ نفسها، بملء إرادتها، وبرغبتها، لا بل بشوقها لذلك.

ما هو هذا الشيء الذي دفعني لتذكُّر أهلي، ومدينتي، والبيت، بعد أن غابوا عن وجودي من لحظة أن التهمَتني الخطوة الأولى في رحلة اللاإرادة نحو العقبة؟ وما الذي أرجعهم ثانيةً لنفسي بلحظةٍ قصيرة؟

عرفتُ من لحظة أن أدرتُ محرِّك سيارتي واعتزمتُ على الرحيل، بأني قد نسيتهم. لم يغدوا كلَّما دقّوا بوّابة ذاكرتي غير عابرين أخطأوا في العنوان. لم يعُد أحدٌ من ماضيّ جزءاً من تاريخي، تاريخي ابتدأ مع بزوغ نجم "ربى"، ليس من لحظة أن رأيتُها، بل من تلك الليلة التي كنتُ ألتقطُ فيها روحي المشظّاة فوق جسدها بشَبَق، وبشهوة، وبالكثير من العشق. مشاعر كثيرة جديدة سَطَت على وجودي، وسلَّمَتني للخواء. رحيل "ربى" المُفزع ساقني إلى الفراغ، فراغ أوسع من ذاك الذي كنتُ أعيش فيه قبل أن ألتقيها، فراغ شاسع لم يعبِّئه سوى قطّاع طريق، واستراحة صاحبها إنسان.

كنتُ أتساعد مع "وائل" بنقل الفَرْش المتواضع الذي كلَّفتُهُ بشرائه من العقبة إلى داخل بيتي الجديد؛ ثلاجة، غسّالة صغيرة، تلفزيون 14 بوصة، خزانة ملابس مُستعملة، مقعدان وطاولة خشب. أدوات مطبخ لا تتعدّى غير إبريق شاي، ودلة قهوة، وطنجرة صغيرة، بضعة صحون وكاسات.

اقتَرَحَ عليّ "عواد" أن أنتقل للسكن بالقرب منه، وأن أترك البركس الذي قضيتُ فيه وقتاً طويلاً، وأُقيم في هذا البيت الذي شَغُر بعد أن رَحَلَ مالكه للعمل في عمّان. قال لي إنّ سكني هنا سوف يجعلني أكثر حريّة ونظافة. ضحكتُ عندما قال بوجهٍ عابسٍ، لا يعكس غير جمالِه الذي أُتقنتُ التقاطه:

نظافتُكَ ورائحتُكَ ليست أطيب من نظافة الدجاج الذي تشتغل فيه.

أكمل باللهجة ذاتها:

الأوساخ والجراثيم المُتراكمة في حمّام يغتسل فيه عشرون رجلاً، أكثر من جراثيم مغاسل المسلخ.

خلُصَ بعد تسويق اقتراحِه بالرَّحيل إلى هذا البيت، إلى القول بلهجة الآمر:

سوف تشاركني وخالتك أم الفهد طعامنا، لقد استُلبَت صحَّتَكَ من فلافل وديع.

لم أناقشه، وافقتُ بالحال، زادت حماستي للفكرة عندما علمتُ بأنّ أجرة البيت لا تتعدّى بضعة دنانير، ولن تشكِّل عجزاً لدخلي المتواضع من عملي.

طلبتُ من وائل أن يشتري لي هذا الأثاث من العقبة، كنّا نفرشه في الغرفتين الواسعتين عندما تذكَّرتُ غرفتي في عمّان، حضر لي كلّ مَن تركتُهُم هناك، أصابني ضيق وأنا أنظر حولي. تساءلتُ بسرّي:

ماذا أفعل هنا؟ أين غابت حياتي الماضية كلها؟

أحسَّ وائل بالسُّكون الذي حطَّ عليّ فجأة، ترك ما كان يقوم بعمله، أسرع صَوْبي، أمسك بي قبل أن أهوي وأنهار. سألني

عمّا بـــي؟ استعدتُ وعيي، هززتُ رأسي وكأنّي أنفض منه وسَخاً عالقاً في داخله، قلتُ بصعوبة:

لا عليكَ أنا بخير.

لم تقنعهُ إجابتي، رجَعَ بعد إلحاحي عليه لإكمال ما كان يفعله، دون أن يُبعد عينيه عنّي. طلب منّي أن أستريح، قال بصوتٍ مشـــبعٍ بالشفقة:

وجهكَ أصفر، قد تكون أخذتَ برداً.

أكّدتُ له أني بخير وطلبتُ منه أن نكمل مهمّتنا، دفعني بلطـــف نحو المقعد الجديد، وأمرني أن لا أتحرّك إلى أن يُكمل توضيب البيت، رضختُ لطلبه ورجعتُ أسأل نفسي السؤال ذاته:

ماذا أفعل هنا؟

مداركي غافية، وصخبٌ يعمِّر رأسي، يوشك أن يفضـــي بـــه للانفجار، أفتِّش عن بوّابة تفضي بـــي لحالة السلام التي كنتُ فيهـــا ولا أجدها. غاب كل شيء ولم يبقَ سوى لحظة الاشتياق الهجينـــة التي تملّكَتني وكادت تدفعني للانهيار.

كم هي واسعة اللحظة وكم هو ضيِّق العُمر.

أريدُ أن أبكي الآن، في هذه اللحظة، أريدُ مَن يضمّني لصدره، ويحرِّر دموعي المُكابرة لتنهمر هنا في حضرة اللص صاحبـــي، أيـــن أنتَ يا صديقي عواد؟ أين أنتَ الآن يا أبا الفهد؟ فهـــدكَ الصـــغير حزين، يريد مَن يسمعه، يريد أن يتكلم، أن يُسمِعَ صوته، لقد طال صمْتُه. يا صاحبـــي الطيب، لماذا لم يدفعكَ فضولكَ لإنطاقي، أقسم بأنكَ لو أعدتَ عليّ سؤالكَ الذي سألتني إياه ليلة أن التجأتُ إليكَ الآن، لأخبرتُكَ بكل شيء، ولاعترفتُ لك بأني لا أعرف لِمَ حدث

لي كل هذا. أريد أن تخلِّصني من وجعي، مثلما خلَّصتكَ من وجعكَ. وحدكَ مَن يعرف بأنَّ حالنا واحدة، كلانا هربنا، هرب هو من بؤسه، وهربتُ أنا من راحتي، فشلنا لأننا لم نفهم لماذا نهرب؟ ومِن ماذا نهرب؟

لم يكن "وائل" غائباً عنّي وهو يحاول أن يرتِّب عفش البيت الصغير، تأفَّف بصوتٍ مُرتفع لأنه نسي أمر لاقط التلفزيون. قال إنّهُ سوف يحضره قريباً. كان يتحرّك بسرعة، يريد أن ينتهي من مهمّته التي أوكلها لنفسه لكي يرجع لي. هدأتُ قليلاً، سحبتُ نَفَساً عميقاً، وصرتُ أحثُّ جسمي على التَّماسك، وعينيّ على الاحتمال.

باغتني بالقول إنّ كل شيء قد صار في مكانه، تلفَّتَ حوله بارتباكٍ لم أعرف له مصدر، قال دون أن ينظر في وجهي:

أنا لستُ سيِّئاً مثلما تتخيَّل.

لم يعطِني الوقت للردّ عليه، سَحَبَ مقعداً، جَلَسَ لصقاً بي وكأنه يريد أن يبوح لي بسرٍّ خطيرٍ، مدَّ يديه وضعهما فوق ركبتيّ، أكمل:

ولستُ جاهلاً أيضاً. أعرفُ بأنكَ تُخفي أمراً ما يخصُّكَ، ولا تريد أن تبوح به، أريدكَ أن تفهم بأني أحببتك، وبأنكَ صرت الصديق الوحيد لي هنا.

أخذ الكلام يتدفَّق من فمه مثل الشلال، دون أن أستطيع التقاط اللحظة التي يمكن أن أقاطعه بها:

خفتُ كثيراً عندما واجهْتَني بفعلتي معك، فلم أجرؤ على سؤالك عمّن تكون؟ فضولي كان يقتلني، ما الذي يفعله هذا الولد المُترَف هنا؟ ما الذي يخفيه؟ أنا الرجل الذي يعرفك، أنا

مَن سرق سيارتكَ ونقودك، وأعرف بأنكَ لستَ مَن تدَّعيه، لم أتكلّم لأني لا أريد أن أثقل عليك، ولا أن أضعكَ في موقفٍ لا تحبُّ أن تكونَ فيه.

صَمَتَ لبرهة وكأنه يعيد تذكُّر الكلمات التي أراد أن يقولها:

أخاف عليكَ، لأني أحببتُكَ، أخاف كثيراً عليك، لا أريد أن أخسرَك، أعاهدُكَ على حفظ سرِّكَ إن بُحتَ لي به. تكلّم يا صاحبي، أخْرِج مِن صدركَ ما يوجعه، اجعلني واحداً مِن تجاربكَ واختبرني لتعرف حقيقتي.

لم أكُن أنتظر أن أسمع مثل هذه الكلمات من شخص مثل "وائل"، كنتُ أنتظرها من "عواد"، تربَّصتُ به، استفززتُه لكي يسألني، لكنه لم يفعل، لم يقصد أن يلقي بي في حضن "وائل"، ولم يرغب بأن يُثقل عليّ إن جرَّني للأعتراف له عمَّن أكون. قلتُ في نفسي:

"صرتَ الآن تعرف كل شيء يا صاحبي".

خاطبته وأنا أجاهد لأتماسَك:

لا أريد أن أُتعبكَ، حملي ثقيل.

قال بصوتٍ دافئ، لم أحسب يوماً بأنه سوف يخرج من "وائل":

لكنّي لا أحبُّ حزنَك.

كدتُ أنكشفُ له، وأنهمكُ بالبكاء. تحاملتُ وأنا أقول:

وأنا أيضاً لا أحبُّه.

جاهدتُ لاجترار ضحكة من فمي مُحاولاً أن نَخرُجَ من هذا الحوار، وقفتُ، سحبتُه مِن يده، قلتُ مصطنعاً السخرية:

لماذا نسيتَ اللاقط؟ أنتَ تاجرٌ فاشلٌ.

انصاعَ لحركتي، وقَفَ وعادَ يبحثُ عمّا يفعلـــه، أقسَـــمَ بـــأنّ اللاقط سوف يكون هديَّتهُ للبيت.

***

حُبّ

عندما باح لي "وائل" بقصّة حبِّه لم يكن يبحث عن نديمٍ يشاركُهُ آلام وأفراح هذا الحب، بل كان يريد إفهامي بأنه يثق بي عندما يبوح لي بهذا السرّ العظيم، وبأنه يريدني أن أكون كذلك معه.

جاءني إلى البيت ليلاً، كانت "دير الما" مشغولة بطقوس يوم الراحة عندما طرق بيده الثقيلة على الباب، ودخل بعد أن صرختُ بالطارق أنّ البابَ مفتوحٌ، كان يحمل بيده أكياساً وضعها فوق الطاولة وبدأ بإفراغها؛ زجاجات بيرة، دجاجة محمَّرة، بطاطا وخبز وأشياء أخرى.

قرَّرتُ أن أدعوكَ للعشاء.

سألني وهو يفتح بأسنانه غطاء زجاجة البيرة ويمدّها لي، إن كنتُ أشرب؟ تناولتُ الزجاجة من يده بالحال ورفعتُها فوق رأسي حتى أجهزتُ على نصفها بكرعة واحدة، قلتُ وأنا أضحك:

الآن عرفتُ لماذا كنتُ أشعر بالظمأ دائماً في "دير الما".

تلهَّينا بالشَّراب والطعام، وبحديث لا يزيد عن كونه إشعارٌ بأننا اثنان. أسمَعَني أوقح النكات التي يتداولها السكارى والمراهقون،

وتكلَّمنا عن أهل "دير الما"، كرَّر القول: إنهم أغبياء، المقيمون منهم والراحلون. ألقى عبارة وكأنها عالقة في فمه، قال إنّ سبب بقائه في هذا البلد الكئيب هو الحُبّ.

سألته:

تحب "دير الما" كثيراً.

انتَفَضَ غضَباً:

لا أحد يُحبُّ "دير الما".

"أنا أحبُّها"، قلتُ ضاحكاً.

"أنت غبيّ"، قال وهو يرفع زجاجة البيرة إلى فمه.

قلتُ: "إنّ الحب هو ما يبقيكَ فيها".

ليس حبُّها.

صَرَخَ، خيَّم الصمت حولنا، شوَّقني لأن يكمل، قال بصوتٍ خافت:

حُبّ ابنة شيخها.

لم أستوعب ما يقصد بأنه يحب ابنة شيخ البلد، حسبتُها واحدة مِن طرائفه، لا تقدِر في جلسات "وائل" العاديّة أن تميِّز ما يقوله إن كان صحيحاً أو سخرية. لكنه لم يعُد ذاك الـ "وائل"، تغيَّر لون وجهه، ورأيتُه يتعرَّق، وتتقطَّع كلماته. شددتُ على كتفه:

هل تريد أن تتكلّم؟ لا أريد أن أدفعكَ لهذا، سأفترض بأنّي لم أسمعك.

نَظَرَ في وجهي، كان قد أصبح هَرِماً بلحظات، نَبَس:

لن أجد مَن أثق به سواك، أنتَ صديقي القريب.

صَمَتَ، وبدا لي بأنه يدير حواراً سريعاً داخل رأسه. انتظرتُ أن يتكلّم، توقَّفتُ عن الأكل والشراب لأفهمه بأنّي أصغي إليه. أخيراً تكلّم، قال بالصوت الخافت ذاته:

أنا عاشق.

ابتسمتُ، قلتُ هازئاً:

لِمَ كلّ هذه الدراما؟ عاشق؟ وهل يوجد ما هو أجمل من ذلك؟

لم ترُق له لهجتي، قال وكأنه يوبِّخني:

حبيبتي ابنة شيخ عشيرتنا، كبير "دير الما".

وإن يكن. المهمّ أنّها تحبّك.

أكثر ممّا أحبُّها.

فكَّرتُ، إن كان ما يقوله صحيحاً، فإنَّ هذه البنت امرأة عاديّة، لم تتعلَّم أو لم تكمِل تعليمها في المدرسة، وأخرجها أهلها لتنتظر ابن الحلال الذي يتزوّجها. كنتُ أسمع عن شيخ العشيرة الذي يَحكي عنه، كلّما حدَثَت مناسبة في البلدة مِن جاهات العرس، والجنازات، والصُّلحات العشائريّة بأنه كان يترأسها. شباب "دير الما" كانوا يحكون عن غناه الفاحش، ويُبدون سخطهم عليه، حتى إني سمعتُ مَن يصفهُ بأنه سارق خير "دير الما". لم يعنِ هذا الأمر لي، ولا للغرباء أمثالي شيئاً. الصَّدمة التي أسقطها "وائل" على رأسي، فأطارت آثار السَّكرة الحلوة، أنه قال لي إنّه لم يتبقَّ لها غير سنة واحدة وتُنهي دراستها في الجامعة. لم أجد غير أن أسأله إنْ كانت جميلة؟ أجابَني بأنها مثل القمر. كرَّرتُ عليه أكثر مِن مرّة إنْ كان يقصد شيخ عشيرة أخرى غير شيخهم؟ رمَقَني بغضب، وردَّ عليّ:

هل تَراه أفضل منّي؟

اعتذرتُ له، قلتُ:

لم أقصد ذلك، لكن ما أعرفه عن الشيخ يجعلني مُستغرباً.

عاد وأكَّد لي أنّ كل ما يقوله صحيحٌ، وأنّ البنتَ تحبُّـــه، وأنّ زيارته لي اليوم هدفها أن يحدِّثني عنها. ما إن توقَّف عن الكلام حتى سألتُه: "ألا تخاف؟"، أجابني بأنه لا يخشى أحداً في الدنيا. قلت:

كل البشر تخاف.

أمّا أنا فلا.

ردّ بالحال. ضحكتُ، وعدتُ أحاول أن أعيد لجلستنا جمالها:

الخوفُ ليس نقيصَة. كلُّنا نخاف، لأنّ خوفنا هو ما يجعلنا نواجه حياتنا.

أنتَ تحكي عن أمثالك.

هل تراني ناقصاً، أو مختلفاً.

لا، أنتَ كاملٌ، وجميلٌ، وطيِّبٌ، لكنّكَ تحبّ الحيـــاة السّـــهلة لذلك تخاف.

قلتُ مُحاولاً تجاهُل ما بَدا لي إهانة:

كيف يمكن للناس أن لا تخاف؟

عندما لا تفكِّر بالنتائج، وتفكِّر فقط بالمَطلوب مِنها أن تفعلـــه، لن تخاف.

لَجَمَني، اشتعلتُ بالقهر، لا مِن ردِّه المفاجئ فقـــط، بـــل مـــن إحساسي بأنَّ كلّ ما تعلّمتُه لم يخلِّني أفكِّر بمثل هذه الطريقـــة الـــتي يفكر بها. عدتُ وسألتُه، ولم أكُن أسعى لمُناكفته، بل لاستكشـــافِه أكثر:

ماذا عنها، ألا تخاف هي؟

أجابَني بعد أن فتح بأسنانه زجاجة جديدة:

الحبّ يا صديقي أشجع الكائنات.

انهَمَكَ بالحديث عن حبيبته، كان يفرح أحياناً، ويحزن أحيانـــاً، أنتظرُ أنْ يبكي، فيضحك إنْ تذكَّر هديّة قدَّمَتها له، أو كلمة قالتها. يغضب إن جاء على ذِكر أهلها، ويثور عندما يذكر أنّ ابن عمِّها هو الذي يقف لها. تركتُه يفرِّغ كل ما في صدرِه، وكل ما جاء من أجله اليوم، وسألتُه:

كيف حَدَثَ وأحببتَها؟

فرحَ عندما سمعني، انفَرَدَت أساريره، تكلّم، وهو يحلِّق بعيداً:

عرفتُها قبل أكثر من خمس سنوات، كنتُ لا شـــغلة لي غـــير التسكُّع في شوارع البلد والبلدات المجاورة، المكان الذي كـــان يشدّني مدرسة البنات الثانويّة، هي مدرسة واحدة للبنات يجئنها من كل القرى المجاورة. تقع أقصى جنوب "دير الما".

توقَّفَ ليسألني:

هل تعرف أين يسكن الشيخ؟

أجبتُه بالنَّفي. قال وقد أحسّ بمتعة الكلام:

بيت الشيخ يقع آخر "دير الما".

قطَعَ كلامه ليقول لي إنه سوف يأخذني لأرى تلك المنطقة التي تكتظّ بالفِلَل، والمزارع الشّاسعة.

عاد يحكي بحماسة عن بدايات عشقِه:

اعتدتُ أن أراها بين عدد من البنات وهي تقطع الطريق مشـــياً إلى بيتها، أوَّل مرّة لفتتني كنتُ واقفاً كعادتي مع عـــدد مـــن الشباب مثل الحرّاس أمام بوّابة المدرسة، لَفَتَ نظري أنّها كانت

تراقبني دون الآخرين، تأكّدتُ من هذا الشيء بعد عددٍ مِن الوقفات، أصدقُكَ القول، بعد أن عرفتُ أنّ هذه الفتاة التي تظلّ تنظر إليّ ابنة شيخنا، قلقتُ، حتى تحقّقتُ من أنَّ نظراتها ليست وعيداً، أو تهديداً بأن تخبر أباها عني. كانت عيناها تضحكان كلَّما رأتني، حتى إنها رمتني أكثر من مرّة بابتسامة حلوة. صرتُ أودِّع الشباب وألحق بها من بعيد، دون أن أجرؤ على الاقتراب منها، أو الحديث معها. عندما تصبح وحدها، وقريبة مِن بيتها، كانت تحني رأسها وكأنّها تطمئنّ بأنّي ما زلتُ ألحق بها. واظبتُ على اللحاق بها في كل يوم، إلى أن رَمَت لي بورقة كتَبَت عليها سؤال.

سألني:

ما هو السؤال برأيكَ؟

كيف لي أن أعرف؟

كلّ هذه التفاصيل و لم تستطِع أن تقدّر ماذا يمكن أنْ تسألني؟

"لماذا تلحق بي؟"، أجبتُه لكي أنهي هذا الجَدَل.

"هذا ما تعلَّمتَهُ في الجامعة؟"، قال مُستهزئاً بإجابتي.

هذا ما يُفتَرَض أن تسألكَ إياه.

هههههههه.

هل كنتَ تعرفهُ أنتَ قبل أنْ تقرأه؟

بالطبع لم أعرف.

إذاً؟

كتَبَت، هل أنتَ أخرس؟

فقعتُ ضحكة هزَّت الغرفة:

أرسِلها لي حتى أجيبها بدلاً عنك، هي لم تَرَكَ وأنتَ تتكلَّم دون أن تعرف كيف تسكت.

رَفَعَ كفّه بوجهي يريد أن أصفعه عليها، فعلتُ بقوّة. استوقفتُه وتوجَّهتُ إلى الحمّام، أفرغتُ مثانتي من كميّة البيرة التي صارت تلحّ عليّ بالخروج. رجعتُ فتحتُ زجاجة بيرة كانت هي الأخيرة على الطاولة. سألني إن كنتُ أرغب بسماع المزيد، طلبتُ منه بإلحاح أن يكمِل وأن يُفصِّل أكثر، عاد يتكلّم:

التَّفاصيل الصغيرة لم تكن مهمّة إلا في وقتِها، لم أردّ على رسالتها، واستمررتُ باللحاق بها وبإرسال رسائل بالإشارات، والابتسامات، أو بمسحة على شعر الرأس، أو في الإبطاء بالمشي، دون أن نقول شيئاً.

"أنتَ لا تعرف هذا النَّوع مِن المكاتيب؟"، سألني.

"بالطبع، فهذه لغة الخُرُس أمثالك". لم يعلِّق على نكتَتي، أكمَل: فاض بي، ولم أعُد قادراً على التحمُّل، اقتربتُ منها أكثر ممّا اعتدت، سألتُها وأنا أسمع دقّات قلبي تشتدّ وكأنّها ستنفجر إنْ كانت تحبُّني مثلما أحبُّها، كانت تلك أوّل مرّة أسمع فيها صوتها، عندما قالت والخجل يغلبها: "أحبُّكَ". نطقَتْها بسرعة، وهي تتلفّت حولها. قلتُ لها: اسمي "وائل"، ردّت: وأنا "ندى"، قلتُ: أريد أن أراكِ. ردّت عليّ بأنّ هذا يكفينا.

بقينا على هذه الحال شهوراً، لا نتحادَث إلاّ ببضع كلمات. حلَّ فصل الشتاء، وصار أهلها ينقلونها إلى المدرسة، ويرجِعونها إلى البيت، وتتركني أقطع المسافة ماشياً وحدي إلى بيتهم وإلى المدرسة، غير عابئٍ بالبرد ولا بالمطر.

قاطعتُه:

لم تبعَث لكَ مكاتيب جديدة، أو كتبْتَ أنتَ لها؟

أجابني نافياً، ودون أن أسأله عن السَّبب، أكمل بخجل: "كتابتي على قدّي، أنا لم أكمل تعليمي سوى للصف السادس الابتدائي".

صُعقتُ ممّا أسمعه، ومِن عدم اكتراثِه بما يصرِّح به. صرختُ:

ابنة الشيخ، وطالبة ثانويّة وتريد أن تحبّها؟

لقد أجهزتَ على زجاجات البيرة، توقّعتُ بأنكَ لن تشرب أكثر مِن واحدة.

ردّ مُحاولاً إنهاء الحوار. عدتُ وقلت:

لا تهرب مِن سؤالي، بماذا تهذي يا رجل؟ فتاةٌ مُترفةٌ، وابنة الشيخ، ومتعلِّمة، كيف تفترض بها أنها تحبّك؟ ماذا تريد منك؟

"يبدو لي أنكَ لم تعشق في حياتك"، نَبَسَ بأسى.

احتَدَدْتُ، أجبتُه بالنَّفي، قلتُ له إنّي عشقتُ مرّات. قال بسخرية إنّهُ لا يصدِّق، وأكمل بأني لو عشقتُ حقيقةً، لما سألتُ مثل هذا السؤال. ثم طلب منّي أن أهدأ وأن أنتظر حتى أسمع باقي الحكاية.

هل ما يزال هناك بقيّة؟ ألم تنتهِ علاقتكما باللاشيء؟

ضحك وقال:

على العكس، سوف نتزوّج قريباً. وحتى لا أصدمكَ أكثر أريدكَ أن تعرف بأنها في السنة الأخيرة في الجامعة الآن.

شعرتُ بأنه قد يُغمى عليّ، لولا أنّي كنتُ أرى الصِّدق في كل ما يقوله، لولا ذلك لشككتُ بأنه مُلفِّق، وفنّان بالكذب، مثلما هو

مُبدِع بالسَّرقة. ليست مسألة صعبة أن يكون "وائل" اللص وقاطع الطريق كاذباً أيضاً.

عاد لتهكُّمِه من جديد، قال إنّ لا أحد سوف يشهد على زواجهما سواي. وقال إنّهُ حكى لها عنّي، وإنّها تعرفني بأنّي أقرب الناس له في "دير الما".

وماذا قلتَ لها أيضاً؟

قلتُ إنّكَ تخفي سرّاً عظيماً.

هل قلتَ لها كيف التقينا أوّل مرّة؟ مثلما قلتَ لي الآن عن لقائكما أوّل مرّة؟

لم يُجب عن سؤالي الاستفزازي، سألتُه وأنا راغبٌ باستثارتِه دون أن أعلَم سبباً لذلك: "هل تعرف أنَّكَ لص؟".

أخَذَت ملامح وجههُ تتبدّل، بدا وكأنه قد قُبض عليه متلبّساً. أشاح بوجهِه بعيداً، وردّ نافياً بعصبيّة، وكأنه كان يعاتبني على أنّي قد ذكّرته بهذا الأمر في اللحظة التي كان يتجرَّد فيها مِن ذاتِهِ القبيحة، ويتحوّل إلى كائنٍ مُسالمٍ بريء. نَطَقَ بصوتٍ ضعيفٍ بكلماتٍ أربكَتني:

هي لا تعرف بأني لصٌّ، لكنّها تعرف عنّي كل شيء.

لم أجِد ما يساعدني على التّراجع، فقد كنتُ وقحاً، لكنّي كنتُ أبحث عن مبرِّر للاقتناع بصِدْق روايتِه.

كيف تتكشَّف الحقيقة للبشر؟ مِن التوهُّم والكذب على النَّفس أم مِن المستحيل؟ يلزمني حتى أصدِّق ما يقوله أنْ أُوهِمَ نفسي بأنه الحقيقة، وأنّ ما كنّا نسمعه عن قصص الحب الخرافيّة في قصص الجدّات وفي الأفلام صحيحة. أو أنْ أقبَلَ الخيار الأسهل؛ بأنّ صاحبي يعيش حقيقةً هذه العلاقة المستحيلة.

أخبَرَني بعد أن تغيّر حوارنا، وعُدنا نحكي عن الحب وجمالاته، قصصاً كثيرة عن "نَداه". كان فرحاً مثل طفل، وهو يحكي عن أشيائهما الحلوة بخَجَل واغترار عندما يصف لي مغامراته في لقائها بالخفاء، وبجرأة وهو يصف محاولاته للتقرُّب من أبيها في المناسبات التي يشارك بها في البلد. ظلَّ يردِّد لازمة واحدة كلما انتهى من سرد حكاية مهما كانت عاديّة، وغير مُدهشة لي:

ما أحلى أنْ تعشَقَكَ امرأة.

***

التَّوَحُّد

نهارات الصيف في الصحراء طويلة حدّ الملل، رجع "عواد" من صلاتِه؛ استراحته الطويلة التي أهبُها له كل يوم جمعة، وكان يحمل طبق الطبيخ الذي صارت تخصُّني فيه "أم الفهد"، في كل يوم.

كان الطَّبق كبيراً، يحتوي على كميّة من اللحم والأرز تُشبِع أكثر من رجل، قد تكون فكَّرَت وهي تسكب الطعام بأنّي أطعِم آخرين معي، زادَت في كميّة اللبن والأرز واللحم. لا أطيق فكرة رمي الطعام في الزبالة، لذلك سألتُه أن يشاركني، رفض دعوتي وهو يضرب بيده على بطنه، ويقول إنّهُ مُتخمٌ، دون تفكير أعدتُ تغليف الطَّبَق، حملتُه، ودَّعتُ "أبو الفهد" الذي سألني قبل أن أغادر الاستراحة:

إلى أين العزم؟

سأبحثُ عمَّن يشاركني الغداء.

يمَّمتُ وجهي صوب الصحراء، شددتُ من عزمي ومضيتُ إلى رأس المثلث؛ "فهد".

لم يكُن يدور في خاطري أيّ فكرة عمَّن يكون هذا الذي أريده أنْ يشاركني غدائي. كنتُ قد نسيتُ أمر "فهد"، بعد أن قرَّرتُ أن أنزعه من رأسي، لم أكُن أحبُّ ذكره، ولا تكرار ما قرأتُه، لقد

أراحَني إحراق الدَّفتر، وأكاد أجزم بأنه أراح أباه. ما حَدَثَ أنه لَمَعَ اسمُه في ذهني وأنا أفتِّش عن ونيسٍ بين القلّة التي يمكن أن أشاركهم طعامي، الطريق إلى "دير الما" أقصر وأسهل، لكنّي لا أضمن أن أجد "وائل" هناك.

خلال اجتيازي رمال الصحراء المُلتهبة، صرتُ أُفتِّش عن مدخل للحديث معه، قدرَّتُ بأنّ تناوُلنا الطعام معاً سوف يكسر حاجزاً من تلك التي تفصلنا. تذكّرتُ ما أخبرني به "عواد" بأنّ ابنه لا يأكل سوى السردين، فكّرتُ أن أقفل عائداً، لكنّ فضولي، طيْشي، وقد يكون غروري الساذج الذي تضخَّم بعد حادثة الدَّفتر، دَفَعَني للتفكير بأنّي قادرٌ على كسر الحصار الذي يُحكمه على نفسه، محاورتي لنفسي قصَّرت عليّ الطريق، كنتُ أتكلم بصوتٍ مرتفع، حتى إنّي كنتُ أصرخ في بعض المرّات لأوضِّح لي وجهة نظري، إنّ أجمل الأصوات، هي أصواتنا، عندما تنطلق من أفواهنا، دون أن يسمعها أحدٌ غيرنا.

وجدتُهُ متربِّعاً بلباسه الداخلي الطويل داخل الخيمة، لا يفعل شيئاً سوى هشّ الكلب بعيداً عنه، دون أن يرتدع صاحبه، فيعود للتمسُّح به ببلادة وكأنّ حرّ الشمس قد بخّر مخَّه. كان الكلب هو مَن استفزّه حضوري، تهيأتُ من مسافة بعيدة للمُناداة على "فهد" لكي يبعِد كلبه الذي نسيتُ أمره عنّي. ما إنْ اشتَمَّ رائحتي، وشَعَرَ باقترابي حتى كشف عن أنيابه، ورمقني بغضب، وصار ينبح، وهو يتأهَّب للانقضاض عليّ، صرختُ مُستنجداً من بعيد:

يا فهد هذا أنا.

قد يكون تذكَّرَني عندما رأيتُه يسحَب الكلب من عنقه، ويمنعهُ من مُهاجمتي.

العزلة لا توحِّد الإنسان بذاتِه، ولا تقلِّص مِن وجودِه، بل تجعل كوْنَهُ أكثر رحابة، وتبطئ الزمان، فلا هو تضيق به الأماكن مهما كانت صغيرة، ولا هو يحزن من ضياع العمر، لأنّ أيامه تتشابه، ولا يتربّص به ضميره ليَعُدَّ عليه أخطاءه. في الوحدة تفنى الخطايا.

ذهن "فهد" كان يحلِّق به إلى ما بَعد النُّجوم، ويخلّي جسده قابعاً على الأرض، لم تزِد صحبته عن هذا الكلب. يجب أن يتذكّرني، فلا أنا كوكبٌ هوى عليه من السماء، ولا متطفِّلٌ جاء للسطو عليه. أنا مَن كنتُ زائره منذ زمن ليس ببعيد، غادرتُه و لم أبرح ذاكرته. فلا عابرين في ذاكرته ليبرحوها، أنا قليلُهُ الكثير، الغائب الذي صار حاضراً الآن، أنا الفكرة، والسؤال مَن أكون أنا؟

لا بأس عليك، أنا مَن يشبهكَ يا رجل، أنا أنتَ، فلماذا حتى لا نلتقي؟ هكذا كنتُ أفكِّر وأنا أقترب من مجلسه، محاذراً أن يعقرني الكلب.

استقبَلَني دون أن يبارح موضعه، أو أن يبدِّل من جلستِه. قال بصوتٍ عدائيّ:

"عرفتُكَ من بعيد، شممتُ رائحتك، أنتَ تشبه هذا"، وأشار إلى كلبه، "أعجَز مِن أن تتخفّى".

لم أعلِّق بحرف، انتظرتُ حتى صرتُ قريباً منه وآمناً من الكلب، وقلتُ مُسلِّماً بما تفوَّه به:

أرسلتني أمكَ لكَ بالطعام.

أنتَ تكذب.

ردَّ عليَّ بوقاحة، قلتُ:

صحيح. حصّتي مِن طعامكم أردتُ أن نتشاركه.

أشارك واحداً مثلكَ طعامي؟

لا أعرف كيف قدرتُ على احتماله؟ حاولتُ أن أظلّ هادئـــاً، فلم تكُن كلماتُه توجعني، وأنا لم أكُن أنتظر أن يســـتقبلني بحفـــاوة، لكنّي لم أضع تصوُّراً بأن يقسو عليّ بهذه الصورة، قلتُ مُحـــاولاً أن أدلف إليه من بابٍ غير موضوع الطعام الذي فهمتُ بأنه كان غبيّـــاً منذ البداية:

ألتجأتُ إليكَ لحاجة.

"عدتَ للكذب؟"، قال بالنَّبرة العدائيّة ذاتها.

أقسم لك بأني صادق.

"ها أنتَ تكذب من جديد"، هبَّ واقفاً، شدَّ عصاه بـــالأرض وصَرَخَ بـــي أن أنصرف.

"أنا تائهٌ مثلك"، قلتُ برجاء.

اذهب إلى حضن أمِّك.

"لا أهل لي"، قلتُ بصوتٍ مرتفع، أكملتُ قبل أن أتلقّى المزيد من الإهانات: "تركتُهُم من زمن، ولا أعرف إلى الآن لَمَ فعلتُ ذلك، أملتُ بأن أجدَ عندَكَ ما يريحني، ويجيبني عن سؤالي".

وقف يتأمَّلني، شككتُ بأنّ ما قلتُه سوف يخفِّف شـــيئاً مـــن انفعالِه، عاد له بعض الهدوء. تأمّلني متفحِّصاً، بقيت صـــامتاً أنتظـــر حُكمه:

"كم عمرك؟"، سألني وكأنّي أتقدَّم بطلب وظيفة.

خمسٌ وعشرون سنة.

هذا الوجه يقول إنكَ أكبر بكثير.

"عمري خمسٌ وعشرون سنة"، عدتُ وأكّدتُ له.

أين أهلك؟

في عمّان.

لاحَت مِن عينيه نظرة استهجان، خفتُ أن يعود لـــه غضـــبه، أكملتُ بالحال:

رحلتُ فجأةً، لا أعرف كيف ولماذا فعلت، نسيتُ أمـــرَهُم إلا مِن أيام عدتُ وتذكّرتُهُم.

لقد نجحتُ في شدِّ انتباهِه، وبالتَّخفيف مِـــن حـــدّة ملامحـــه ونظراته التي كانت تصليني، رأيتُه يستمع وكأنه يرغب بمعرفة المزيد، أكملتُ:

سألتُ نفسي لماذا هجرتُهُم، وتركتُ حياتي الماضية خلفي، ولم أندم على ذلك؟ إلى أن عاد وأصابني شوقٌ لهم، لا طعم له، ولا لون، لكنه ظلّ متلبِّسني، لا أفهم معنى هذا الشـــوق، وكيـــف يأتيني بعد سنين؟ كلّما جرَّبتُ أن أسمّيه، أو أفهم معناه، إنْ كان شوقاً لأهلي، أو لعملي، أو للبنت التي كنتُ أحبها، أو للحيـــاة المترفة التي كنتُ أعيشها، فشلت. أعرف حقيقة ما في داخلي، فأنا لستُ مُفتقداً لأحد، ولا لشيء، لكنّي متخبِّط.

ظلّ محملقاً بـــي، ارتدّ إلى الخلف، أقعى على البساط البـــالي، رفع ركبتيه أوسدهُما ذقنه، عادت لعينيه تلك النظرة التائهـــة الـــتي رأيتُها في أوّل مرّة زرتُهُ بها. أكملتُ:

عندما فكّرتُ بمن يمكن أن يشاركني طعامكم اليـــوم، جئـــتَ لخاطري، أنا أعرف بأنّكَ تقتات على السردين، وأشعر بأنكَ لم ترتَح لي من يوم زرتكَ مع أبيك، لكنّي قـــرَّرتُ أن أغـــامر، فكّرتُ بأنكَ الوحيد الذي يمكن أن يفهمني، ويدلّني على حالي؟

لم أشعر بأنه قد سمع ما طلبتُه منه، كان ما يزال غائباً في متاهتـــه. بحثتُ عمّا أفعله لأعيده إلى هنا، لم أجد أمامي غير علبة سجائره المُلقـــاة فوق التراب، سحبتُ واحدة منها، دسستُها بحذر بين شفتيه، فتَّشـــتُ عن علبة الثقاب، كان نصفها غارقاً في التراب، تناولتُها، أشعلتُ عوداً، وأشعلتُ سيجارته. وقتها انتَفَضَ، وعاد يرمقني بالنَّظرة المُبهمة ذاتها.

"تريد مِن صعلوكٍ مثلي أن يكشفكَ لنفسك؟"، سألني ســـاخراً بعد صمتٍ طويل. بحلق فيّ بعينين حمراوين كأنَّهما الجمر، سمعـــتُ صوت تنفُّسه، علا لهاثه، وبدأتُ أقرأ في امتقاع لون وجهه، وانتفاخ أوداجه، بأني قد انزلقتُ في مأزقٍ أكثر قبحاً من مأزقي مع قـــاطعي الطريق. عدتُ كعادتي أبحثُ عن منفذٍ للهرب، فيما كان يبحث هو عمّا يقوله، أو يفعله، همَّ بالكلام، وهممتُ بأن أطمـــئنّ، لكنـــه لم يسمح لي بذلك عندما صرخ بوجهي:

هل أخبَرَكَ العجوز أنّي لم أحبّك، و لم أرتَح لك، مِن لحظـــة أن شاهدتكَ أوّل مرّة؟ أنا لم أرسل له لأسأله ماذا يفعل ولدٌ مثلكَ عنده؟ فأنا أعرف بأنه لا يقبل سماع رأي أحد، قُل لي أنـــت، ماذا تريد منه؟ كيف تفسِّر علاقتكما الغريبة، عجوزٌ هَرِمٌ رجلُه والقبر، وصبيٌّ طائشٌ لم يَرَ شيئاً من الدنيا بعد؟

وكأنه شدَّني من ياقة قميصي، وانهالَ على وجهي بالصَّفع مـــع كل كلمة كان ينطقها. لم أتكلَّم، بقيتُ أنتظـــر أن يكمـــل رحلـــة انتباهه، وأن يصحو، سألني وهو يشيح بوجهِهِ بعيداً عنّي:

هل تريد أنْ تعرفَ جواباً عن سؤالِكَ لأجلِكَ، أم لأجلي؟

عاد، وقال بجُمَلٍ سريعةٍ مجنونةٍ، وكان يزداد غضباً مـــع كـــلّ واحدة منها، فصرتُ أتلفَّت حولي، وأرسم مخطّطاً للهرب:

هل تحسب أيها الصغير بأنكَ قادرٌ على تدجيني؟ تظنّ بأنّي إنسان مخبول، يُؤخذ، وينبهر بشخص تافِه مثلك؟

ثمَّ بصوتٍ ارتدَّ صداه من السماء، صرَخَ بوجهي حتى أصابني لعابُهُ المُتطاير:

هل تحسبني العجوز الذي لعبتَ بعقلِه وأوهمتهُ بأنّكَ إنسانٌ طيِّب؟

صرتُ واقفاً عندما لوَّح بعصاه الغليظة في الهواء محاولاً أن يضربني بها، اندفعتُ إلى الوراء مُحاولاً تجنُّب العصا التي لامَسَت رجليّ. تحيّرتُ بما يجب أن أُقدم على عمله، هل أطلق ساقيّ للريح، وأهرب دون أن أكترث إن أطلق الكلب خلفي؟ أم أنْ أستدرَّ شفقته؟ مِن أين آتي بالكلمات التي تقدر على تليين رجل بهذه الصلابة؟ لم يسبق للعجوز أن أفهمني بأنّ ابنه عدائي، لقد أكّد لي بأنه مُسالم، وبأنه مستسلم، لكنْ مِن أين جاء بكلّ هذا الكُره لي، وكيف لم أرُق له، ولم يحبّني مِن لقائنا الأوّل، وهو بالكاد سمع صوتي طوال تلك الجلسة اليتيمة؟

لم يكُن واحدٌ مِن خياراتي أن أجابهه، فقد كنتُ متيقِّناً بأنّي لن أصمدَ أمام ضربةٍ جديدةٍ من عصاه تظفر بي، أو من أنّي سأحتمِلُ لكمةً من يدِهِ الصّلبة التي تشبه عود الحطب. صرختُ دون وعي:

كنتُ آمل أنْ تساعدَني، لا أريدُ أنْ أساعدَكَ، أريد أنْ أساعدَ نفسي. يجب أنْ تصدِّق هذا.

لم يرفع بصره نحوي، ولم يعلِّق على ما تفوَّهتُ به بجرأة، أو سذاجة لا أدري كيف تلبَّستني. وقفَ مُتكئاً على عصاه، أشار على كلبه الذي كان قد انتَهَزَ انشغالَنا عنه وغطسَ رأسه في وعاء الطعام،

وأوشك على الانتهاء من التهامِه، تنبَّه لإشارة صاحبه، لحقَ به، وهو يمضغ القطعة الأخيرة من اللحم. دخلا إلى البيت. انطَرَقَ باب الزِّنك خلفهما بقوّة وكأنه يصرخ بـــي أن أنصرف.

عدتُ إلى الاستراحة خائباً، حاملاً الطَّبَق الذي أفرغتُ منه بقايا الأرز التي خلّفها الكلب فيه قرب الخيمة، كنتُ متأكِّداً بأنه ســـوف يعود لالتهامِه. عندما رآني "عواد" وأنا أراقب حركـــة الســـيارات لأقطع الطريق، أخذ يرمقني بنظرات ملأى بالعَتَب، لم يكن يحتـــاج لأن أخبره بأنّي قد زرتُ ابنه. ما إن انتهى مِن آخر زبون عنده حتى سألني مُستنكراً:

زرتَ فهد؟

شعرتُ بالخجل وأنا أحني رأسي مُعترفاً بأنّي قد فعلت دون أن أستأذنه أو أسأله رأيه. اعترفتُ له بندمي على فعلتي التي لم أكُن قـــد جهَّزتُ نفسي لها، لقد داهَمَتني هذه الرغبة فجأة. لم يعلِّق، ولم يأتِ بأيّ إشارة تُشعرني بأثر هذه الزيارة عليه، ولم أحاول أن أسأله. لقد فات الأوان. كان يجب أن أخبره بما عزمتُ على فعله قبل أن أخطو خارج الاستراحة، رغم أنّ فكرتي كانت مكشوفة ومفضوحة عندما حملتُ طبق الطعام، ويمَّمتُ وجهي صوب الشّـــمال، صـــوب رأس المثلث.

طلب مني أن أرجع إلى البيت وأن أستحمّ. كان العَرَقُ يســـحُّ مِن كلّ أطراف جسدي، وكنتُ مُعفَّراً بالتراب، ومحترقاً من الشمس التي لوَّحت وجهي. أشار إلى الطَّبَق الفارغ الذي كان يهتزّ بيـــدي وأنا أهمّ بالمسير، ودون أن يسألني، قلتُ دون أنْ ألتفِت إليه:

أكله الكلب.

لم ينقضِ أسبوع على هذه الواقعة المُحزنة، حتى أعلمني العجوز بأنّ فهد يريد أن يراني. فوجئتُ من هذا الخبر، إنّ آخر شيء كنتُ أتوقَّع أنْ يحدُث لي هو أن يفكِّر "فهد"، أو أفكِّر أنا بأنْ نلتقي مرّة أخرى. ماذا يريد؟ ما الذي خلاّه يعود لذكري؟ هل سبَّبتُ له حَرَجاً بالعبارات التي تفوَّهتُ بها، والتي كانت في معظمها أسئلة؟

أشعرتُ عواد بخوفي من تلبية هذه الدعوة التي لم أتوقَّعها، ولم أخبره بما حدث بيني وبين ابنه، لكنّي قلتُ عندما أبلغني برسالة "فهد":

يريد أن يهشِّم رأسي هذه المرّة، بعد أن أخطأ رجليّ في المرّة الماضية.

عندما سمِعَ ما قُلت، ترك لي الخيار بأن أفعل ما أشاء، لكنه عاد وأكّد أنّ "فهد" ليس عدائيّاً. لم أرغب في أن أعيد تذكيره بدفتر هذا الفهد.

***

مثل كلّ ما أمارسهُ منذ أكثر مِن سنتين مِن الغوص في بحارٍ غامضة دون أن أفهم السَّبب في ذلك، حسمتُ أمري بأن أكمل الغَرَق، كنتُ آمناً أكثر وأنا أخبر "عواد" بعد أيام بأنّي ذاهبٌ لزيارة "فهد".

استقبَلَني بالنَّظرات ذاتها، والوجه المتشكِّك ذاته، وفي المكان ذاته؛ الخيمة. لم أنتظر أن يعتذر عمّا بَدَرَ منه خلال زيارتي الماضية، ولم أبادر بسؤاله عن الشيء الذي طلبني مِن أجله. شعرتُ بالأسى لحالِه وأنا أراقبهُ وهو يحرِّك الرَّماد القابع في قاع موقد النحاس المبعوج بعود خشبٍ جاف، ليعمَل الشاي. كان هذا بعد أن سألني إن كنتُ أرغب بكأسٍ شاي، وهززتُ رأسي موافقاً.

كان راضخاً، ومستسلماً، وكأنه يأتمر لمنوِّم مغناطيسي. علَّق الإبريق الذي كان في ما يبدو مهيأً، أعلى الموقد. توهَّجَت النار بعد أن حرَّكها، أحسستُ بأنّ نارها برداً عندما غيَّرتُ مِن موضعي الذي لحقَت به الشمس وصارت تحرق وجهي، واقتربتُ من الموقد. كنتُ أنتظر ما يقدِم على قوله، وكان هو يتحفَّز على عكس كلبه الذي ذهب بإغفاءةٍ تحت ظلّ الخيمة على عكس توقُّعي، سألني وهو يشعل سيجارة مِن أخرى اشتَعَلَت بين شفتيه حتى آخرها:

مِمَّ تهرب؟

لم يكُن ينتظر منّي إجابة، أكمَلَ بصوتٍ هادئ:

لستَ مجرماً، ولا مُطارداً، آثار النِّعمة بادية عليكَ من ملامحكَ التي تحاول أن تخفيها بهذا الذَّقْن المُستعار، كلامكَ، وتفكيركَ، تحكيان بأنكَ متعلِّم، وبأنكَ تعرف ما يكفي عمرك عن الدنيا، فممَّ تهرب؟

تهيَّأتُ، عدَّلتُ من جلستي، فصارت أكثر راحة، رأيتُ الآن "فهد" غير العدائي الذي حكى عنه أبوه:

أريدكَ أنْ تصدِّق بأني أريدكَ أنتَ أن تخبرَني مِمَّ أهرب؟

كأنَّهُ ابتَسَم، سألني بالنَّبرة الهادئة ذاتها:

هل ترى أنّي قادرٌ على إجابتك عن هذا السؤال أكثر منك؟

"لقد رأيتُكَ تهرب مثلي، لا شكَّ أنّ تجربتكَ أكبر من تجربتي"، قلتُ بشجاعة.

ترَيَّثَ قليلاً، عدّل جلسته، دفع بنعلِهِ البالية التراب. عاد يبتسم، كانت ابتسامته هذه المرّة حقيقةً، سألني:

لماذا افترضتَ أنّي أهرب؟

"ماذا تفعل هنا وحيداً؟"، أجبتُه بالحال.
لم يُجب عن سؤالي، تحيَّنتُ صمته، قلتُ شارحاً:
لا أراكَ تفعل شيئاً.
أكملتُ وأنا أشير صوْب الصحراء التي تحيط بنا:
لا بقعة أرض مزروعة، ولا ماشية لترعاها، ولا حتى بضع دجاجات. أين أوراقكَ ودفاترك وكتبكَ إن كنتَ تبحث في مسألة الوجود؟ تقتات لتعيش وحسب، كأنكَ لم تعُد تجد متعة في شيء. مَن يراك على هذه الحال يشكُّ بأنكَ تريد الاستغناء حتى عن قوتكَ البائس "السردين"، وأنكَ لا تبحث عن سبب للحياة، بل عن سبب للموت.
لا أدري كيف احتَمَلَ كلّ ما قلته، ظلَّ مُحافظاً على هدوئه، حتى إنّ ابتسامته وسعَت، قال:
"رهانكَ خاسر"، رَفَعَ كفَّهُ المفتوحة أمام وجهي: "لا حقل، ولا ماشية، ولا دفاتر أو كتب، ولا بَشَر، نسيتَ هذه وهي الأهمّ، كما أزيدكَ بأني أصوم طويلاً، لكن ليس لأنّي أريد أن أموت".
"لماذا تفعل كل اللافعل هذا؟ عمَّ تبحث؟"، تعجَّلتُ بسؤاله.
عن السكينة.
قال بسهولة، وأكمَلَ بالصوت الخافت ذاته الضاج بالثقةً:
لا رغبة عندي بغير السكينة والسلام، لا أحبُّ الموت (رَمَقَني شَزَراً)، أنا أحبُّ الحياة، أحبُّها أكثر ممّا تحبها أنت، آثرت السلامة بعد أن أنجزتُ ما عليّ، وبعد أن أخذتُ منها الكثير، وأخَذَت هي منّي كلّ ما تريد، أنا هنا، أعيش هذه الحياة، لأنّي ما عدتُ أرغب بالمزيد.

لم أكُن أنتظر هذه الإجابة، كنتُ أمهِّد الطريق نحو حوار مختلف أقدِر فيه أن أكسر الحواجز التي تفصلنا، لأثبتَ له أنّي أشبهه. بـــردِّه هذا لكَمَني فوق أرنبة أنفي دون أن يرفع يده من موضِعِها، ألـــزمَني حدّي، وكشف لي كم هو ضئيل وفارغ هذا الحدّ.

حسبتُ بأني قادرٌ على استدراجه ليعلمني ما هي الحقيقة؟ وأين تجدها الناس؟ وأين يمكن أن يجدها مَن هم على شاكلتي؟ كنتُ واثقاً أنّ تجربته مع العمر غنيّة، ومتيقِّن بأنّ كل ما عاشه لم يأتِ من فراغ. أملتُ بأنه قد كشف الحقيقة، وأملتُ أكثر بأنْ يرشدني.

لم تأخذه بـــي شفقة، وأنا أحاول أن أقنعه معتدّاً، بأنّ تجـــربتي أيضاً غنيّة، وبأنّي عجَّلتُ بفهم الدنيا أسرع منه، وفي مثـــل نصـــف عمره، اعترفتُ له بأنّي خرجتُ هائماً دون مُرشد لأبحث عن دنياي، سردتُ عليه حكايتي مع القمر ورحلتي مع "رُبى"، واقتناصـــي مـــن قطّاع الطُّرُق، ومعرفتي بأبيه، وعملي وصداقاتي. وبقـــي يُشـــعرني باللامبالاة، وبالاستخفاف بكلّ ما سردتُه له.

تكلَّم بعد إنصاتٍ طويل، دون أن يشعِرني بأنه معنيٌّ بكل ما أقوله:

لم تعِش شيئاً بعد.

أكمَلَ وهو يضحك، لقد رأيتُه يضحك هذه المرّة، قال بلهجـــةٍ جادّة:

جئتَ لطلب النصيحة؟ ارجع إلى أهلِك، وبيتِك، يكفي أهلكَ ما خلّفتهُ فيهم مِن أسى.

لم أفهمك.

قلتُ وكنتُ أرى بأنه جعل منّي شخصاً معاقاً، وســـاذجاً، أو كأنّي طفلٌ ضائعٌ يسأل عن بيتِه.

لم يتركني طويلاً بهذا الإحساس، كأنه أشفق عليّ، وأخذ يحاول أن يعيدَ لي ولو جزءاً صغيراً من كرامتي واعتِدادي الذي طرَحَه أرضاً قُرْب كلبه الذي كان يتثاءب تلك اللحظة، ويتلفَّت حوله وكأنه يسأل صاحبه أن يُكمل قيلولته.

طلب منّي أن أكلِّمه عن حياتي، حدَّثته عن أبي، وأمي، واختلافي عن أخوتي، لم يسمح لي أن أُنهمكَ بالتفاصيل، كان يقاطعني، ويقول وهو يشير بيده وكانه يستعجلني: "غير ذلك". حدَّثتُهُ عن "سارة" التي عشتُ معها قصة حب طويلة، هشَّ بيده وكأنه يُبعد ذبابة عن وجهه: "غير ذلك".

"هذا كل شيء"، قلت.

ماذا جرى معكَ في الأشهر الأخيرة قبل أن تغادر البيت؟

لا أفهم.

عاد يشرح لي:

هل حدث لكَ شيءٌ غريبٌ، أو جديدٌ غير ما اعتدتَ عليه؟

إلى أين تريد أن تأخذني؟

إلى جوّاك.

هل ترى بأنّي مريض؟

سألتُهُ بانفعالٍ مكبوت.

لا، أنتَ مَن طلب مساعدتي، هل نسيت؟

شعرتُ بشيء من الراحة بالكلام، صارت تتنامى لتصبح فرحاً خجولاً، فهمتُ الآن بأنّ باب الحوار بيننا قد انفتح. قلتُ مُحاولاً أن أنقل له إحساسي بالراحة:

سوف أخبركَ بكل شيء عن حياتي، ولا أريد منكَ غير أن تسمعني.

عدتُ بذاكرتي إلى الوراء طويلاً، إلى يوم ميلادي، وصرتُ أحكي وكأنّي أحادث نفسي في واحدةٍ من خلواتي التي أتفكّر فيها بحياتي، وبأمر الكون. أخبرتُه عن وَلَعي بربط يوم ميلادي بانهيار السوفييت، أسهبتُ بالحديث عن وَلَع أبي بجمع الثَّروة، وشفقتي عليه من أن يقتلهُ الركض خلف هذا الهدف، فيخسر حياته. وعندما كلَّمتُه عن قصة حبّي الجافة، وحكيتُ له عن الأيام التي عشتُها مع "ربى"، وكشفتُ له عن حزني لخسارة سنين من عمري في حب "سارة"، قلتُ له إنّي كنتُ موهِماً نفسي بأنّي أحبّ، وإنّي اكتشفتُ أنّ حبي لسارة لم يكُن قصةُ حبٍّ عذريّ، بل عجزاً جنسيّاً.

اعترفتُ له بالمشاعر التي أجَّجَتها في داخلي "ربى" في علاقتنا القصيرة، والتي لم أحسّ بها طوال سنين حياتي مع "سارة". ظلَّ يُصغي لي دون أن يقاطعني ودون أن يستفزَّهُ الفضول للسؤال عن الأشياء التي كنتُ أخفيها عنه رغم تلميحاتي الكثيرة لها.

بَقِيَ مُصغياً إليّ، يُبدي الاهتمام عند بعض الحوادث، والاستهزاء عند بعضها، إلى أن وصلتُ لتلك الحادثة التي لم أستطع أن أنزعها من نفسي، ولم أتذكَّر كيف غابت عن بالي كل الوقت. ما خلاّها تَحضُر اليوم وتستوقفني لأُسهبَ في شرح تفاصيلها، اهتمام "فهد" الذي تنبَّهَت حواسه عند سماعها. ليس الخبر هو ما ترك أثراً عظيماً فيّ، بل ما تفجَّر حينها في رأسي من أفكار، وأسئلة، لم أجد إجابة عنها. هذا ما حاولتُ أن أوصله لـِ "فهد". بدأتُ أسرد عليه قصّة الخبر العظيم وكأنّي ابتدأتُ الآن في الكلام:

قبل شهور من ترك البيت، لا أذكر متى حدث ذلك، كنتُ منهمكاً بالعمل، وأتتبَّع أخبار البورصات في العالم، وأسعار

العملات، استوقفني خبر، من المفترض أنه من خارج السياق الذي أشتغل عليه، كان يُبَثُّ على قناة فضائيّة مختصّة، Bloomberg Markets أحسب أنكَ تعرفها؟

قد أكون أقتنصُ لحظةَ هدوءٍ مِن صخبِ الأرقام، وحرَكَتِها ارتفاعاً وهبوطاً، لم تكُن تشدُّني الأخبارُ التي تُعرَض على يمين الشاشة، قد تكون تُعرض للتَّرفيه عن المُتداولين، لكنها كانت بالنسبة لي وكأنَّها هدهدةٌ للنعاس والنوم، أقرأ ما يُعرَض دون أن أفكر به. استوقَفَني خبرٌ صغيرٌ، شككتُ للوهلةِ الأولى به، فكَّرتُ، هل كانت قراءتي لما رأيتُهُ صحيحة؟ انتظرتُ إلى أنْ عادَ الشَّريط يُبَثُّ مرَّة أخرى. ما قرأتُه كان صحيحاً، العنوان شدَّني كونهُ غريباً عن عوالمنا الماليّة البحتة.

"العدالةُ الاجتماعيّةُ تزدادُ تناقُصاً".

تملَّيتُ بالخبر الذي يُظهِر دراسة أجراها مصرف "كريدي سويس". تقول هذه الدراسة إنّ واحداً في المئة من سكّان الأرض يتحكّمون بنصف ثروات العالم، وإنّ النصف الفقير من سكّان الكرة الأرضيّة يملك أقل من واحد بالمئة من إجمالي ثروات أرضهم، يُضيف الخبر بأنّ هؤلاء الواحد بالمئة يتحكّمون بما نسبته 48,2 بالمئة من الأصول العالميّة.

لم أعُد مشغولاً بأن أشدّ انتباه "فهد" لي، لقد عاد هذا الخبر وصَدَمَني مِن جديد وكأنّي أقرأهُ للمرّة الأولى. عندما نظرتُ لِـ "فهد" وجدتُه مشدوداً لي بكل حواسه، دون أن يبدي انطباعاً، ظلَّ يستمع دون أنْ يعلِّق، أو أن يتمَلمَلَ ليُشعِرني بأنْ أختصر بالتَّفاصيل مثلما كان يفعل طوال لقائنا، كان ينتظرني أن أُكمل:

لا أخفي عليكَ بأننا نستمع كثيراً لمثل هذا الأخبار التي تضعنا أمام أسئلة صعبة عن فكرة العدالة، والإنسانيّة، وتجعلكَ تفكِّر في النقيض، أينما كان موقعك. نقرأ عن مليونير قدَّم لامرأة جزيرة في الكاريبي نظير مرافقته شهراً على يَخْتِه، وأنّ حاكم دولةٍ ما يمتلكُ عدداً من السيارات قيمتها أكبر من ميزانيّة الأردن، أو أنْ يكلِّف حفل زفاف أحد الأثرياء ملايين الدولارات. أشياء عاديّة، وما عادت تستوقف أحداً. ما يخصّ هذا الخبر أنّي شعرتُ كم هو وقح. وعندما لفتُّ انتباه زملائي له لم أجد أنهم قد رأوا فيه ما رأيت. كنتُ أرى رؤوسهم تتضخَّم إلى أن تتفسَّخ وتخرج منها أحلام بأن يلتحقوا بجوقة الواحد بالمئة.

سألتُ نفسي: ما الغاية مِن نشرِ مثل هذا الخبر؟ أبعدتُ فكرة أن تكون مجموعة "كريدي سويس" معنيّة بموضوع العدالة الاجتماعيّة مثلما يدَّعون؟ ولا أنّها تحذِّر من انفجار الفقراء، بعد أن انفَجَرَ الفقر على الأرض. ما جال بخاطري أنَّ مالك المجموعة السويسري قد يكون واحداً مِن هؤلاء الواحد بالمئة، وأنّ إنفاقهم على هذه الدراسة، وإعلانهم عن هذه المأساة على الملأ، لا يكون لوجهِ الله، المؤسَّسات الربحيّة لا هدف لها سوى الرِّبح.

لقد اقتنعتُ بأنّ كل هذه اللعبة ليست إلاّ رَمْي قفاز التحدّي على طاولة المُعدمين والبؤساء، هُم يريدون إيصال رسالة بأنّ هذه الأرض وما عليها، ملكاً لنا، وما أنتم سوى عبيد، عليكم أن ترضخوا، وتقنعوا بفقركم، وان تكفّوا عن مغامراتكم الصبيانيّة التي تسمّونها ثورات.

شاهدتُ هذا الخبر، وأحسستُ أنه مثل البصقة الـــتي تتلقّاهـــا المومس على مؤخرتها مِن القوّاد بعد أن يكتفي منها.

عندما نقلتُ الخبر لأهلي وقت الغداء، علَّق عليه أبـــي بأن قـــال إنّ الله خلق الناس طبقات، وبثقة مريحة حـــاول إقنـــاعي بـــأنّ مجهودات البشر هي التي تصل بهم لهذه المراتب. كانت ترتسم في عينيه شهوة مفترسة. قالت أمي إنّ هذا ميزان العدل في الكـــون، الأغنياء يملكون الثروة، والفقراء يملكون الصـــحّة. لم أسمـــع في عمري عبارة أكثر من هذه سذاجة! "هل الفقر والجوع يخلِّيـــان الصحّة أحسن؟" سألتُها، لم تجِبني. نظراتها التي كانت ترمق بهـــا أبـــي، كانت تقول إنَّها تعاني من أمرٍ ما، سببه صحّة أبـــي.

ضحك "فهد" لعبارتي الأخيرة، تكلَّم أخيراً، قال:

أسأل أمّك.

فقعنا ضحكة عالية ومدَّ كفّهُ لي:

"يدكَ يا رجل"، قال.

حطَّ صمتٌ ناعمٌ علينا وكأنّه بَعَثَ بنسمةِ هواءٍ طريّةٍ حرَّكت "فهد" من موضعه:

لنصنع إبريقَ شايٍ جديدٍ.

عندما كان منهمكاً بجمع بعض الحطب ودسّها في كوم الرّماد الخامد، قلتُ:

ليس هذا كل شيء.

بالطبع ليس كل شيء.

توقّف عمّا كان يقوم بعمله، تأمّل وجهي وكأنه يشفق علـــيّ وسألني:

هل تظنّ أنّ كل مَن قرأ هذا الخبر تركَ بيته مثلك؟

لم أجبْه عن سؤاله. وَهَبَ لي فسحة قصيرة من الوقت قبل أن يضجَّ بضحكٍ لم أصدِّق بأنه كان موجوداً في داخله.

بدأت الشمس بالانحدار تدريجيّاً نحو المركبة الرّاسية في الأفق البعيد لتُبحر بها إلى بحور الظلام. ودَّعتُه قبل أن يلحق بي الليل، وأضلّ طريقي، وعدتُهُ بأن أعودَ مرّة أخرى قريباً، هزّ رأسه بما يُشبه الموافقة.

بسلام كنتُ أغوص في رمل الصحراء، أسحبُ نعليّ غير مكترثٍ بحبّات التراب التي كانت تتسلّل لداخله، ولا بلسعاتها الحارقة، وأنا أعيد استرجاع ما كشفتُه عنّي لي، لم يكُن "فهد" سوى الفراغ الذي عبّأتُ فيه وجودي. أحسستُ وكأنّي قد أخذتُ بالتعرّي مِن رداءٍ خشنٍ ثقيلٍ كان يحيط بي، ويكتم على أنفاسي منذ زمان بعيد:

لم تكُن لتفهَمَني يا صديقي العتيد "عواد" لو أنيّ اخترتُ أن أحكي لك.

***

الأنا

ليسَتْ معضلة ولا قضيّة عصيّة على التحقُّق أن تعرف نفسك، فأنتَ لا تقدر أنْ تحتملَ ذاتكَ طوال عمركَ دون أن تكون قد عرفتها، المعضلة، والمأزق المستحيل، هو في أن تعرف الآخرين.

تكشَّفْتُ لذاتي دون عناء عندما انكسر الجدار الزجاجي الشّاهق الذي كان يحول بيني وبين "فهد"، خفتُ أن يرفضني وهو الذي رفضه أكثر الناس اللذين عرفهم. حياتي المرفَّهة روَّضتني، جشعي ما ساقني إلى هذه المرحلة، أنا ابن أبي، لا أختلفُ كثيراً عنه، ولا عن أخي "رائد"، قد أكون أكثرنا جشعاً، لأني أطمع بحياة ودنيا أخرى، وأريدها أن تكون أجمل.

الانتكاسات التي عبرتُ بها ليست سوى انتصارات. أوهمتُ نفسي بأنَّها هزائم لكي أظلَّ متعلقاً بخيط الوجود، ولأشبِعَ نَهَمي في عشق أناي. أستعذبُ عطف الآخر، ولا أرتوي منه، وأعشقُ كلّ حالة جديدة تصادفني أو أسعى نحوها، تجاربي المثيرة والمُدهشة، لم تطفئ ظمئي إلى الآن، لم يلِحّ عليّ الحنين لأن أعود، فما يزال هناك المزيد، وما زلتُ أرغب بالمزيد.

هل أتسامى بمعرفتي عن البشر؟ هل قوَّيتُ مَداركي، وزادَت قدرتي على الإبصار؟ ما زلتُ أطمعُ بالمزيد. هنا أعيش زماني

ومكاني، هنا أزيدُ ولا أتَضاءل، انتصاراتي وهزائمي هي ثروتي، فلتأتوا بمثلها.

لم تكسِرني "رُبى"، أنا مَن كَسَرَها عندما سرقتُها من عمرها، وحياتها، وزوجها الذي تحب. لم يحطِّمني قطاع الطريق، بل أنا الذي حطّمتُهُم عندما جعلتُهُم يشفقون عليّ من الموت، صديقي الكبير سلّمني زمام أمره، أحكَمَ الأغلال على عنقه، وقدَّم مفاتيحها لي دفتر ابنِه، وعُزلته. "وائل" صديقي البائس المسكين باح لي بسرّ حياته وهو يعرف بأنّ عمره معلقٌ فيه، أرادَ دفْعي للكلام ليس لفضولٍ عنده، بل لأنه يريد لي أنْ أستريح، وأنْ أفرغ ما يثقل على صدري.

وها هو "فهد" المتوحِّد، المستوحش، الغامض، يصير أمامي أليفاً، يصغي لهذياني، ومَسخراتي، ويتحرَّر من أغلال صمتِه ووحدته ليعطيني الأمان. أنا الإنسان البشِع الذي يبحثُ عن ذاتِه التي يعرفها، وينسى ذوات الآخرين التي تحمي ذاته من الانهيار.

أيّ كائنٍ أنانيٍّ أنا!!!!! كم هي هشّة أناي، هشّمها جسد امرأة.

مِن جسد "رُبى" بُعث عقلي واكتَمَلْت.

آثرتُ العزلة لعلّها تحفظ ما صرتُ عليه، فررتُ من الوعي إلى الغفلة، انشغلتُ بذاتي، ودجَّنتُ لنفسي أنانيّتي، أنا أكثر أنانيّة من "فهد" المدرك لعزلتِه، والعارف كم آلم مَن يحبّونه، صَمَتَ، واعتَزَلَ وكأنه يعتذر، هو بلا شك يريد أن يعتذر عن عمرٍ بكامله، فلم يجِد أعمَق مِن الصَّمت ليبوح به بهذا الاعتذار.

دخلتُ "دير الما" وكانت العتمة قد أنسَت للأرض، فأرخَت ستائرها بسكينة فوق البيوت التي استقبَلَتْها بمصابيحها الخافتة، واستقبَلَها الناس بتبديلٍ بقلبِ عاداتهم النهاريّة، يتخفَّفون من ملابسهم، يغتسلون، يختطفون لحظة استرخاء يجاهدون فيها في البحث عن فرحٍ وهميٍّ ينجيهم مِن عناء نصف العمر، الصعب، القاسي، ومِن بيعهم كدِّهم بسعرٍ بخْس.

يركنون إلى الأمل في ما قد يحمله لهم الليل، عشاء متقشِّف، مُكابدة صخب الأولاد، والنوم الذي يشلحون على عتباته يأسهم، ويهرعون إلى أحضان أحلامهم؛ ملاذهم الأخير.

نهاراتي كانت حلوة، لا أرغب بالرُّجوع إلى البيت، ولا لتناوُل عشائي مع أسرتي، ولا أذكر أنْ كنتُ أحبُّ أن أحلم.

قرَّرْتُ أن أطيلَ طريقي صوْب البيت، لا أريد لهذا النهار أن ينقضي. مشيتُ خارجاً من طرف "دير الما" البعيد، قرّرتُ أن أغالبَ العتمة إلى أن تغلبني وتركلني بثقلها لكي أعود. صارت الأضواء تختفي، وتسلِّم الليل لأنوار بيوتٍ اعتَزَلَ أصحابها بعيداً عن "دير الما".

عبرتُ بأولاد يلمّون شتات لعبهم، بلهاثهم، وخيبة أملهم من انقضاء النهار، ويرمون بعَتَبِهم على الظلام، قابَلَني راعٍ عائدٍ مع ماشيته وكلبه المُتعب، حاديتُ بيتاً جَمَعَ تحت فانوسه صبايا كُنَّ يتهامسن ويضحكن. صرتُ قريباً من بقعة ضوء كبيرة، قد يكون بيت شيخ العشيرة الذي وصفه "وائل". اكتفيتُ، استدرتُ ورجعتُ من حيث أتيت، تفرَّقت الصبايا، ودَّعنَ مضيفتهنّ، وتوزّعنَ يحثشن الخطا صوب بيوتهنَّ القريبة، التقيتُ إحداهنّ، كانت تشدّ خطواتها مسرعة وقت أنْ رَفَعَت رأسها وأبصَرَت أنّ هناك إنسيّاً يمشي على

الطريق أستأنسَت لوجوده، خفَّفَت من سرعة خطواتها، وعندما صارت قريبة منّي رَفَعَت رأسها وكأنها تريد أن تقول شكراً لهذا الذي آنس وحشتها من الليل، لمحتُ عينيها المرتاحتين، ووجهها المُضطرب ارتباكاً، والحمرة المتّقدة على خدَّيها. بلا إدراك، وبصوتٍ خافتٍ، قلت:

مرحباً.

فاجأتني جرأتي، فليس مِن المُعتاد أن يسلِّم غريبٌ على امرأة لا يعرفها. لم تجِد ما تقوله أو تفعله، أخَذَت تبتعد عنّي وهي تنظر خلفها صوْبي وقد تسمَّرتُ على الأرض بانتظار أن توصلها عيناي إلى بيتها. عند عتبة البيت القريب وقَفَت واستدارَت بكلِّها صوْبي.

هي مَن شجّعتني عندما أطالت وقوفها، لوَّحتُ لها بيدي، ترَيَّثَت برهة، تلفَّتَت حولها ثم رفَعَت يدها لي، وبسرعة اختَفَت داخل البيت.

ما هكذا يجيء الحب، لكنه يجيء بهكذا مقدّمات. على الرّغم من غموض ملامحها وتفاصيل جسدها وصوتها ورائحتها، إلا أنّها ظلّت ملازمة لي طوال طريق العودة للبيت. تعجَّلتُ تبديل ملابسي، أغلقتُ النافذة، غطّيتُها بالستارة، تمدّدتُ على السرير، أخذتُ ألملم ملامحها وشكلها، غَدَت أنثى فاتناً جمالها، عذبٌ صوتها، ورائحتها مثيرة. نزعتُ عنها ملابسها، سحبتُها لجانبي على السرير هبطتُ فوقها، وانتشيت.

التجربة اليتيمة التي عشتُها مع "رُبى"، موَّتت فيّ هذه المتعة، عادتي الخاصّة التي كانت ملاذ رغبتي، جفّ خيالي وأمْحَل، فلا نساء مثيرات بملابس مكشوفة، ولا أصوات ناعمة تستفزّني للبحث عن

مبعثها بجسدي، ولا عبق عطر يهبط بين رجليّ دون أن يعبر مِن أنفي. نضبتُ، نسيتُ شهوتي ورغبتي، إلى أن بعثَتْها ولْلَمَت رفاقها وأحيتهُ هذه الصبيّة الصغيرة التي عَبَرَت من أمامي.

قضيتُ الليل وأنا أفكِّر بهذه التي بلا اسم، البنت ذات الملامح الغائمة، صنعتُ أحلاماً ناعمة وقصة حب حلوة حتى غفوت. لقد كان أمس يوماً مُشبعاً بالجمال.

في الصباح استيقظتُ وقد عزمتُ أمري على أن أكرِّر جَوْلة ليلة أمس، فقد تحْبَل الـ "مرحباً"، والتلويحتان إن حَدَثَ والتقينا ثانيةً، فتلِدُ حكايةً حلوةً.

بعد العودة من المسلخ مساءً، تناولتُ طعامي الذي كانت قد تركَتْهُ لي أم الفهد كالعادة، ارتديتُ بنطلون جينز وبلوزة اشتراهما لي "وائل" من العقبة، وتوجَّهتُ صوْب المقهى التي كانت تضجُّ بالأصوات، ودخان الأراجيل والسجائر، شاركتُ بعض الأصدقاء جلستهم، لعبتُ الورق معهم، ونسيتُ أمرها.

***

حَراك

لفَتَني "وديع" لكلمة لم تكُن ضمن مفرداتي "حراك"، فَرَضَ على زبائنه الإنصات لنشرة الأخبار، والبحلقة مُرغمين في وجه المذيع الذي يطلّ علينا من خلف شاشة التلفزيون، والذي ظلَّ مُحافظاً على الصورة ذاتها منذ أطلَّ علينا، إلى أن انتهى واستودَعَنا الله، متمنِّياً لنا باقي سهرة جميلة مع برامجهم. لم تفارقهُ الابتسامة الصفراء المصطنعة، والبحلقة الجادّة في أعيننا وكأنه يرانا، ويحذِّرنا أن نرمش أو ننشغل في أمرٍ غير الاستماع له. بكلِّ ما في ملامحه من شدّة، إلا أنه كان عاجزاً عن تورية خوفِه مِن أنْ يتلجلج، أو أن يُتأتئ.

ابتدأ المذيع الصَّنَم بعرض النشاطات اليوميّة لكبار الشخصيّات، واجتماعات الوزراء، عرج على أخبار تراجُع الجماعات الإرهابيّة في سوريا، عَبَرَ منها إلى المُناوشات التي وقعت بين جيش الاحتلال الإسرائيلي، والفلسطينيّين العُزَّل. لم يكُن أحدٌ منّا معنيّاً بتتبُّع هذه الأخبار التي لا تعني أحداً باستثناء "وديع" الذي كان ينفخ مغتاظاً مِن تجاهُل عرض الخبر الذي ينتظره، والذي فرض علينا أن نترقَّبهُ معه.

ارتَفَعَت الأصوات التي تحتجّ على القمع الذي مارسه علينا "وديع"، بعد أن أحكم قيوده على الزبائن، بأن أعطى أوامره لعمّال

المقهى بعدم تقديم أيّ خدمة لنا، مَنَعَ الطعام، والأرجيلة، والمشروبات، رَفَعَ أوراق اللعب وطاولات النَّرد، وأعلن أنّ هذه الامتيازات لن ترجع إلا بعد أن نحسن مِن سلوكنا ونتابع الخبر الذي لا نعرف ماذا سوف يكون.

بدا لنا أنَّه جادٌّ ومنفعلٌ على غير ما نعرفه، وهو الذي لا يتوقَّف عن إلقاء النكات، ومشاركتنا اللعب، والغناء من وراء منقل الفلافل وهو يفرغ منه الحبّات الساخنة "يا رايح قُل لُه، ويا جاي دلُّه، وعلى فلافل وديع أشِّر لُه".

بعد أن اكتَشَفَ بأنّ كل هذا القمع الذي مارسه علينا قد خيّبه المذيع القبيح، وبعد انتظار طويل وقبل أن يختم المذيع المُحنَّط نشرته المُمِلّة، قرأ خبراً لم يستغرقه غير بضع ثوان، رفع "وديع" يده بإشارةٍ كي نصمت، التزمنا بالأمر وأصغينا:

"صرَّحَ مصدرٌ في مديريّة الأمن بوقوع أحداث شغب في مدينة معان، نتج عنها تحطُّم عدد من السيارات، والأملاك الخاصة، وقد تمكّنت الأجهزة المختصّة من السيطرة على الوضع".

ظلَّ واقفاً صامتاً بملامح بلهاء مرسومة على وجهه، مصدوماً بما سمعه، وبما خلاّه يوقف عمل المقهى لأكثر من نصف ساعة، بصَقَ على جهاز التلفزيون وداس بعصبيّة على أحد أزرار الريموت، قلب سحنة المذيع، وحطَّ عوضاً عنها فيديو كليب لأغنية لم يسمع بها أحد من قبل. أخذ الزبائن يتندَّرون ويهزأون منه، ومِن هذا الحدث التافه الذي سجنهم مِن أجله.

سأله شاب كان يبدو مختلفاً قليلاً عن حضور المقهى:

ما هو الخبر المهمّ الذي كنتَ تترقَّب عرضه؟

ردّ عليه بيأس وتقزُّز:

"حراك في معان. البلد على كفّ عفريت، وأنتُم في غفلة".

أكمَل: "فعلاً أنكم جيلٌ ضائعٌ".

***

صبيحة اليوم الثاني، لم يكُن المسلخ كعادته، و لم تكُن "دير الما" هي ذاتها، فقد كانت سيارات الشرطة تتحرّك بين الزقاق وفي الطريق الرئيسية حاملةً معها جوّاً مُكفهرّاً ثقيلاً. كنتُ آخر مَن يعلم، عرجتُ على المقهى لأشتري سندويشة فلافل للإفطار. وجدتُ "وديع" جالساً على كرسي على عتبة المقهى الفارغة كعادتها بهذا الوقت. بدا لي مهتمّاً وهو يسحب أنفاس عميقة من سيجارته التي قد تقلّصَت في فمه. سألته عن ما يجري؟ ولماذا كل سيارات الشرطة هذه؟ أجابني بعد أن تأمَّلني باستخفاف:

جاؤوا لقمْع حَراك عمّال المسلخ يا بيك.

ها أنا أسمع الكلمة ذاتها من الفم ذاته للمرّة الثانية. لم أقدر أن أفهم معنى تهكُّمه عليّ عندما وصفني بالبيك، حتى عندما أكمَلَ وكأنّهُ يعرف ما يدور في خاطري. قال ساخراً:

ألستَ عاملاً؟ أم إنكَ عندما صرتَ من أصحاب المكاتب لم يَعُد يعنيك شأن العمال؟

لم أجد رغبةً في الحوار رغم تحرُّقي لمعرفة ما يجري في "دير الما" وفي المسلخ. تركتُه ومضيتُ مهرولاً صوب المسلخ الذي كان مُحاصَراً بقوّات الدَّرَك من الخارج، ومن العمال الغاضبين من الداخل.

تريَّثتُ وأخذتُ أعدُّ خطواتي محاولاً الوصول إلى مكان عملي. لم أكُن خائفاً ممّا أراه يدورُ بعيداً عنيّ بضعة أمتار، لكنّني صرتُ مُرتبكاً، فأنا ما زلتُ غير فاهم. العمال كانوا غاضبين، وبَدوا لي أنهم أكثر حماسةً وتحفُّزاً من رجال الدَّرَك المتأهِّبين وراء دروعهم، وبهراواتهم التي يرفعونها فوق رؤوسهم، منتظرين تلقّي الأمر بالهجوم. رأيتُ عدداً من العمال الذين أعرفهم يرفعون بأيديهم يافطات تُعلن الإضراب عن العمل إلى أن تتحقَّق مطالبهم.

أكثر الناس قدرةً على تبرير أنفسهم هم الجبناء. عرفتُ ذلك عندما صرتُ أفكِّر بالانسحاب والتَّراجع إلى الخلف دون أن ألفت انتباه أيّ من الطرفين. فكَّرتُ بأنه لا يجب أن أشارك العمال هذه التظاهرة، لأني إن فعلتُ فسوف يُكشف أمري، ولن تكون العاقبة عليّ مثل غيري، توقيف ليوم أو أيام، وتلقّي صفعات وركلات رجال الشرطة وهراواتهم. ما سيكون أقسى مِن ذلك، أنْ ينكشف أمري. كيف سأشرح للمحقِّق سبب وجودي وعملي في "دير الما"، وعندما يبحثون عن سيرتي في ملفّاتهم سوف يكشفون أمري، عندها سوف يعيدوني لعمّان، ويسلِّموني مكبّلاً لشرطتها، ولأهلي.

حتى عندما حسمتُ أمري بالابتعاد، ومُراقبة ما سينتهي عليه هذا اليوم، صرتُ أعِدُّ إجاباتي على مَن سوف يسألني لِمَ لمْ أشارك العمال إضرابهم؟

– لم يبلِّغني أحدٌ بموضوع الإضراب.

هذه هي العبارة السحريّة التي لا جدال بعدها، وهي الحقيقة أيضاً، فلا أحد من العمال، أو حتى من المحيطين أخبرني شيئاً عن هذا الموضوع، ولا حتى بالكلام عنه أمامي. أنا الذي سوف ألوم، وأعتَب

على كل مَن يُحاول التَّطاول عليّ. أمّا "وديع" فله معي حسابٌ آخر.

فُضَّ الإضراب بسلام بحسب ما قاله مالك المصنع، بعد أن تمَّ توقيف المخطِّطين له، وتكسير أضلاع عدد مِن المضربين، وإعادة العمال بالقوّة وبالتَّهديد بالفصل لأماكنهم، برقابة رجال الشرطة.

لم تتمّ زيادة أجور العمال، المطلب الأساس الذي لم يكُن يتعدّى بضعة قروش في اليوم. لم يتمّ وَضعُ نظامٍ صحيٍّ، وبرامج إجازات للعمال.

في المقهى كانت الوجوه كئيبة، متربِّصة لكبسات الشرطة التي سوف تتفرَّغ الآن بعد أن أعادت ضبط النظام والهدوء للمسلخ، لمُعاقبة غير الأردنيّين الذين شاركوا في حَراك اليوم.

لم يَردَعْني غضب "وديع"، واشتعاله، وشتمه للرأسماليّة، والفساد، مِن أنْ أعاتبه على ما بَدَرَ منه بحقّي في الصباح، بعد أن تكلّم عددٌ ممَّن شاركوا بالإضراب وقالوا إنَّهم قاموا بهذا العمل بتجهيز بين العمال أنفسهم، دون الموظفين الإداريّين، حتى لا تتشعَّب مطالبهم.

تسارُع أحداث هذا اليوم، وما جرى الأيام التالية كشف الكثير من الأشياء، فقد قامت الشرطة بطرد عدد من الرِّجال من غير أهل "دير الما" من العمل وإبعادهم عنها، ووقَّعَت الكثير من المواطنين على تعهُّدات بعدم المُشاركة مستقبلاً بمثل هذه التظاهرات، وساقت إحدى سيارات الشرطة "وديع" لساعاتٍ للتحقيق معه في مركز أمن العقبة، وعندما عاد وهو ما يزال في الحال ذاتها من الغضب، عرفنا مَن يكون، أخبَرَ كلّ زبائن المقهى، بلهجة خطابيّة متحدِّية، بدأها

بعبارة الحاضر يُعلم الغائب، وأكمل: "ليعلَم الجميع بأنّي مواطن مُبعَد من إربد، وأنّي أقضي حُكماً هنا بالإقامة الجبريّة لأني ناشط في حَراك الشمال". اعتَرَفَ أمامنا بأنّ إبعاده من "إربد"، كان تخفيفاً عنه من حكمٍ بالسِّجن لأعمال شغب قام بها، وتسبَّبَت في تخريب ممتلكات عامّة مثلما تدَّعي الحكومة. كشف بالحدَّة ذاتها، بأنه قد سيق اليوم للتحقيق معه لمعرفة دَوْرِه في حَراك المسلخ. ختَمَ إعلانه بأن قال:

الآن أصبحتم تعرفون مَن أنا، مَن أحبَّ منكم أن يظلّ زبوناً عندي أهلاً وسهلاً، ومَن لا يحبّ مع السلامة.

انتهى من خطبته المدوِّية، وصرخ بواحدٍ مِن معاونيه وهو يسحب كرسي وينزوي بعيداً، أن يسرع بإحضار أرجيلته.

***

تَضْحِية

صبيحة يوم العيد نبَّهَني "عواد" من النوم، بعد أن رجع من الصلاة بضربات ثقيلة على الباب. كنتُ لحظة توجَّهتُ للنوم بانتظار سماعها. لم يُعِد عليّ عرضه عندما ودَّعتُه ليلة أمس بأنه سوف ينبِّهني لحضور صلاة العيد، لكنه أكَّدَ ضرورة أن أكون مستيقظاً ومهيَّأً لمرافقته ليضحّي.

استقبلني بنظراته المعهودة عندما وجد أني ما زلتُ مرتدياً البيجامة، وأقاوم النعاس. عايَدْتُه، وسألتُه أن يدخل بعد أن تركتُ الباب مشرعاً، وهرعتُ لشطفِ وجهي ببعض الماء وتبديلِ ملابسي:

دقائق وأكون جاهزاً.

أخذ يتأفَّف، سمعتُ خطواته يدخل البيت، توجَّه صوْب النافذة عارَكَها إلى أن فتحها، دار في أرجاء الغرفة، وهو يُسمِعُني تعليقاته على الفوضى التي أعيش بها. قال إنّي صرتُ أحتاج لامرأة. لم أعلِّق، وكأنّي لا أسمع ما يقول.

هتف بصوتٍ مرتفع:

سوف نبحث لكَ عن زوجة؟

أرجو أن تنسى هذا الموضوع.

أجبتُه من خلف باب غرفة النوم.

في عمركَ كان عندي ثلاثة أولاد.

ما زال مبكراً.

هتفتُ وأنا أنتهي من ارتداء ملابسي. خرجتُ عليه، قلتُ وأنا أشير له بأنّي مستعدّ لمُرافقته:

لا أفكر بالزواج، اطرد هذه الفكرة من رأسك، أنتَ تعرف بأني ضعيف أمامك، لذلك أتوسَّل إليك أن تنسى هذا الأمر.

قبل أن نغادر البيت عانقتُه، وأعدتُ عليه أمنياتي بعيدٍ سعيد.

القليل من الفوضى خلّت صديقي العجوز يقرِّر بأنّي أحتاج لزوجة. لم يُطِل البحث عن حلٍّ آخر، فأوّل ما جاء لخاطره للوهلة الأولى عندما اجتاز عتبة الباب ورأى ملابسي مبعثرة، ومنفضة السجائر طافحة بالأعقاب، وقبل أن يرى الغبار الذي انفرَشَ في أكثر من مكان، في هذه الثواني القليلة وَجَدَ حلاً وكأنه كان محضَّراً وجاهزاً عنده، دون أن يتخيَّل بأنّ أمر الزواج هو أكثر الأشياء التي أبغضها ولا أفكر بها.

في الطريق لموقع الذَّبْح والتَّضحية، سلَّمنا على كل مَن التقينا بهم، نمضغ بضع كلمات، نبصقها فتتناثر في الهواء وتختفي، فكّرتُ كيف يرى "عواد" الحياة سهلة، كأنه لا يوجد ما يعكِّرها. استفزَّني لأنه فتح بوجهي بوّابة لسؤال جديد. ابتسمتُ وأنا أفكر بأنّ الزواج في آخر الأمر لا يكون إلا لكنْس الفوضى التي نعيشها في البيوت، وماذا بعد؟ ما الذي سوف يكنِس فوضى الزواج؟

ضحكتُ بصوتٍ مرتفع، انشغاله بالمُعايدة على الناس لم يتركه يسألني عن ما يُضحكني؟ فكرتُ بأن لا شيء قادر على كنس فوضى

الزواج غير الخيانة. طربتُ لهذه الفكرة الماجنة، استدار نحوي، ابتَسَمَ وكأنه يقرأ ما يدور في رأسي. قلتُ ممازحاً:

لكراكيب، قرَّرتَ بأني يجب أن أتزوَّج. سامحكَ الله.

"هذه الكراكيب جاءت من الكراكيب التي في داخلك"، علَّق بالحال.

لم يَطُل حوارنا، صرنا قريبَيْن من جموع الرِّجال الذين كانوا يُعِدّون الماشية للذبح.

أعرف هذا التقليد، لكني لم أشاهده مِن قبل، كنتُ أسمع أبي يقول إنَّهُ ضحّى بخاروف بواسطة إحدى الجمعيات الخيريّة. تذكّره أمي إنْ نسي فعل ذلك، وتسأله أن يضحّي بأكثر من أُضحية إنْ حدث وتعرَّض واحد منّا خلال السنة لمرضٍ أو حادث. بلا تردُّد كان أبي يتناول موبايله ويكلِّم شخصاً ما، يطلب منه أن يسجِّل له أُضحيَتَيْن.

الحال هنا مختلفة، في السّاحة التي عُقدت فيها حلقات للناس، والماشية، كان الرُّعاة يتنادون على مواشي أرباب عملهم، يعلِّقون قطع كرتون مكتوب عليها أسعار ماشيتهم للمُنافسة. لم تكُن التَّضحية مقتصرة على الخراف، بل كان هناك العجول، والجِمال الصغيرة التي توحي وجوهها ونظافة وَبَرها بأنّها ما تزال طفلة.

لم يكلِّف "عواد" نفسه عناء البحث عن أضحيته، استمرَّ متقدِّماً صوْب كبشٍ كبيرٍ كان قد اشتراه قبل أشهر، وأوكَلَ مهمّة رعايته لأحد الرُّعاة، سلَّم على حفنة من الناس متحلِّقة حول رجلٍ قوي البنية، لهُ ساعدان غليظان، وغارقٌ بالدِّماء، سأل عن كبشِه الذي دلَّه عليه الرّاعي، قام بجرِّه من قرنيه، لكنّ الكبش ظلّ متشبِّثاً بالأرض

وبِرِفاقِه، لا يريد أن يبارح موضعه، وكأنهُ يعرف المصير الذي ينتظره.

تجمَّع أحفاد "عواد" الذين جاؤوا من اللامكان، وأخذوا يساعدون جدّهم في سياقة الكبش الحَرون. عاونتُهُم بأن صرتُ أدفع الكبش من إليته، إلى أن وصلنا إلى موقع الذَّبح.

تناول العجوز سكيناً حاداً كان يلفّه أحد الأحفاد بقطعة قماش، وهَمَّ بذبح الكبش. سألتُه أنْ يوكل هذه المهمّة لأحد الجزّارين أو للمسلخ لكي لا يتَّسخ الكبر الجديد الذي يرتديه؟ نَهَرَني بعينيه، أشار علينا أن نساعده في تثبيت الكبش الذي ألقاه أرضاً بحركةٍ واحدةٍ مُتقنة. ردّ عليّ وهو يشدّ عنق الكبش الذي تعاونّا في تثبيته، قبل أن يسمّي، ويسحب السكّين الحاد على عنقه:

الرَّسول كان يذبح أضحيته بيده.

خفتُ أن أسأله في اللحظة ذاتها إن كان ما يزال يضحّي عن ابنه "فهد"؟ لم يكُن الوقت مناسباً لذلك، ولا من اللائق ذِكر أمر "فهد".

أُنْجزَت المهمّة، عاد الأحفاد يحملون الأكياس التي كانوا قد جهَّزوها لِلَّحم، أخذوا يتلقّون التَّعليمات عن البيوت التي سيوصلونها لها.

تناولتُ غداء العيد في بيت أبي الفهد، مع الزوجة التي صرتُ أعرفها، والبنات وأزواجهنّ، والأحفاد، وكأنّي واحدٌ من أهل الدار. يمَّمتُ وجهي بعد الغداء والشاي صوْب المقهى، وجدتُ عدداً من الشباب الذين لا أهل لهم. لم أجد "وديع" هناك، سألتُ عنه أحد العمال، أخبرني بأنه يقوم بجولة العيد على بعض الأصدقاء. لم أجد ما

أفعله غير أن أزور صاحبـــي "فهد"، النَّهار ما يزال طويلاً.

وجدتُه على حالِه، لم تضايقه زيارتي غير المخطَّط لها، جلســتُ بجانبه تحت الخيمة، لم نجد ما نتكلّم به، بقينا صامتين، شربتُ أكثــر من كأس شاي، كنتُ سابحاً بالتفكير بمجريات اليوم.

لطالما كان العيد قيمةً حلوةً بالرغم من أنيّ لم أكُــن أشــارك أبــي جولته الطويلة على الأصدقاء والأقارب، مثلما اعتاد "رائد" أن يفعل، و لم أكُن أشارك في استقبال ضيوفنا أيضاً.

في يوم العيد كنتُ أمارس رياضة النوم إلى ما قبــل العصــر، أستيقظ، أستحمّ، أرتدي ملابس جديدة، وأغادر البيــت للالتقــاء بأصحابــي. أظلّ كل أيام العيد ملتزماً بهذا البرنامج. ألتقي بأبــــي مُصادفة، ودون تخطيط. في العيد يتغيَّر نظام حياتنا في الأكل والنوم. أسمع توبيخه لي لأنّي لا أشاركه جولاته مثلما كان يفعل أخي.

تذكّرتُ ما قاله "عواد" صباح اليوم عن الــزواج، أنضــجتُ بسمتي فوق شفتيّ، وكأنّي أبحث عن مدخلٍ أدلف منه لحــوار مــع "فهد"، دون أن يسألني عمَّ يضحكني، قلتُ لــه إنّ أبــاه يريــد أن يزوِّجني. لم يعلِّق على ما قلت، سألته: "ما رأيك؟"، بقي ساكتاً فترة من الوقت، وكأنه كان يفتِّش عن ما يمكن أن يعلِّق به. هيَّأتُ نفسي لحوارٍ طويلٍ لجَمَهُ بكلمتين:

لِمَ لا؟

سألتُه وأنا مصمِّم على تهشيم صمتِنا:

هل تنصحني بالزواج؟

أخذ يرمقني بنظراتٍ وكأنه يرى إنْ كنتُ مؤهَّلاً لهكذا مسألة، قال:

ما يخصّكَ هو شيء ملك لك.

ما العيب في أن آخذ رأي غيري وخاصّة ممَّن سبقوني في التجربة؟

وكأنه أستُفزّ من سؤالي، قال بصوت مرتفع:

إنْ لم تقدر على حسْمِ أمرٍ مصيريٍّ في حياتك مثل هذا، فهذا يعني بأنكَ لستَ قادراً عليه.

لم ترُق لي إجابته ولا طريقته بالكلام، تحيَّنتُ هذه اللحظة لأستجمع قوّتي، وأنا خائف مِن أنْ يستشيط غضباً، سألته بصوتٍ هادئٍ وأنا أنظر في وجهه مباشرة:

لماذا استفزَّكَ حديثي؟ هل قلتُ شيئاً أزعجَك؟

وبثقةٍ عالية أكملتُ: "أنت اليوم مُستفزٌّ لأنّ العيد يذكِّركَ بوحدتك. ألا تتمنّى لو أنَّكَ مع أهلك اليوم؟ أو حتى مع زوجتك؟".

اخرس.

نَهَرَني بعنف وبصوتٍ حادّ، لا أدري إن كان قد أحسّ بالارتعاشة التي أصابتني. التزمتُ الصمت، ووبَّختُ نفسي التي ساقتني إلى هنا اليوم. انتصبتُ واقفاً بعد أن قرَّرتُ الانسحاب، دون أن أفكر بما سيقدِم على عمله. قبل أن أمشي، شدَّني من يدي برفق، وطلب منّي أن أجلس. قال بحزن:

أنا أكره الأعياد، لكن ليس لِما قلته.

ابتدأ الجوّ المشحون بالانقشاع قليلاً قليلاً، سألني عن ما فعلتُه خلال النهار، فسردتُ عليه تفاصيل يومي من لحظة أيقَظَني أبوه إلى أن جئتُ لزيارته.

طوال طريق العودة إلى البلد، كنتُ أحاور نفسي، وأسأل عن معنى أن تضحّي الناس؟ فكّرتُ بأنه مِن أجل الأبناء، فهل عند "عواد" ما يدفعه لأن يضحّي به من أجل "فهد"؟ لقد طلب الربُّ من إبراهيم أن يضحّي بأحبِّ أبنائه إليه حتى يلقِّنه درساً، بأنّ الحياة سوف تعلّمه في وقت ما بأنّ الفداء لا يليق بالأبناء، مثلما لا يُجدي التعذُّب من أجلهم؟ لأنّ قيمتهم أدنى من ذلك بكثير، وبأنهم ليسوا نعمةً دائماً، لأنهم عندما يكبرون ويفقهون سيكون لهم إرادتهم التي يقدِّسونها، وهي لن تكون إرادة آبائهم، سوف يصبحون أعداء آبائهم، وهل على الأرض أوسع بوناً من العداوة؟ هل كان النبيّ إبراهيم عندما رضَخَ لأمر ربِّه يعرف ويخفي رؤيته لِما سيكون عليه الأبناء، فانصاعَ لهذا الحُكم، وهو راغبٌ به؟ أطاع أمر ربِّه وهو راغبٌ فيه، إلى أن كشفه الربّ، وبعَثَ له ما يفدي به ابنه؟ هل تسلَّط الربّ عليه عندما أمرهُ في الحلم أن يذبح ابنه؟ أم إنه رحِمَهُ عندما كشفهُ لنفسه؟ لمْ يقدر "عواد" أن يؤشِّر على ما في داخله تجاه ابنه، لقد هيّأ لنفسه قصّة إبراهيم، حلُمَ، وأطاعَ، وجاءه كبش الفداء من الله، فحزَّ عنقه، وبدمِه تغسَّلَت يداه، لكنّه لم يغسل ما في صدره.

***

وديع

حدَّثَني وديع قال:

ما أنا ضدّه هو الذي يحميني.

لم أطلب عون أبـــي، ولا نَصْره، هو مَن أرضَـــخَني لحكمِـــه، وكأنّي ما أزال صغيرَهُ الذي إن مشى تعثَّر، وإن غضب بكى أو كسَّر لعبته. لم يجعلني أكبر، أحكَمَ سطوته عليّ، وظلّ مؤمنـــاً بأنه هو مَن يعرف، ومَن يحكُم، ومَن يتحكَّم.

ألقى بـــي بعيداً، أطلَقَني من سجن "إربد" المغلق، وحطّـــني في سجن "دير الما" المفتوح، سطْوَتُهُ بما ملكت يـــداه، لم تليِّنـــها سطوة عقلي، ومداركي التي تتجاوز زمانه. علَّمني صـــغيراً أن أكره الأشرار، وعندما كبُرت عاقبني لأني كرهتهم. كان يدلّني كيف أحارب فساد المفسدين، وعندما صرتُ قادراً على فعـــل ذلك كسّر عصاه الغليظة على بدني.

صبَّ كأس العرق الرابعة، سألني إن كنتُ أرغـــب بمشـــاركته شرابه؟ أشرتُ بأني مكتفٍ ببيرتي، واستماعي له، قال:

شاركتُ في المُظاهرات التي تهتف ضدّ بيع الوطن والنـــاس. لم أكُن وحدي المَعمي عن معرفة أيّ وطن هذا الذي نعنيه. كنّـــا نهتف للوطن، ولصوص الوطن كانوا مثلنا يهتفون للوطن، دون

أن نفهم بأنّ أوطاننا غير أوطانهم. كانوا يضعون الخطط للقضاء على منافسيهم، انضوينا تحت رايتهم، ونحسب أنها رايتنا. كشف الفاسدون الفاسدين بعمانا، فرحنا لانتصارنا- انتصارهم أكثر منهم، عندما انتبهنا من غفوتنا صرنا نريد أن يتحرَّر الفاسدون المهزومون.

يمكن أن تقول يا صبي إنْ كنتَ تفهم ما أقول إنّ كل هذا مهزلة.

حَنى رأسه وقد بدأ الخمر يطيح بأفكاره، ويزيغ ببصره بعيداً، أكمَلَ كلماته العصّيّة على فهمي، يريد أن يفجِّر قهراً قابعاً في قاع صدره:

هي ليست مهزلة، بل حالة انفصام، ضِعنا فيها، وأعيانا البحث عن اتحادنا، انشطرنا و لم نعُد قادرين على الالتئام مرّة ثانية، أو أن نلتقى ذواتنا التي سلخوها عنّا، ورموا بنا إلى النقيض. كرهتُ أبي وكل مَن يشبهه، أعرف بأنّ مشاعرنا واحدة. استطعتُ أن أتحرّر منه، لكنه لم يستطع هو أن يتحرّر منّي.

رجعتُ أتظاهر، وأرفض فكرة أن أظلَّ مشطوراً، صرتُ مطلوباً. وقعتُ في أيدي رجال الشرطة، أمسكوا بي متلبِّساً، كنّا عشرات أو مئات، اتُّهِمنا بتخريب الوطن، حُكِم على بعضنا بالسجن، وأُطلق مَن اعترف وتعهَّد بالخضوع.

عدّل من جلسته، كان الليل قد انتصف، واستحكم الهدوء على بيته الصغير الذي قصدناه معاً.

بعد أن خلا المقهى من زبائنه، نادى على اسمي عندما كنتُ أهمّ بالمغادرة، سألني وهو يحصي مردود ذاك اليوم من النقود:

هل أدعوكَ لتشرب كأس معي؟
بيرة.
ما رأيكَ بكأس عرق؟
لم أجرِّبه، لا أقدر عليه.
لا بأس، أتذكَّر أني أحتفظ بعدد من زجاجات البيرة.
قبلتُ الدعوة، لم يكُن عندي ما أفعله، "عواد" مشغول في استراحته، ولم أسمع خبراً من "وائل" منذ أيام. ساعدتُه بتوضيب بعض حاجياته، ومضينا إلى بيته الذي لم يكُن بعيداً. لم يكُن معنيّاً بغير أن يتكلم، كان يطول صمته مرّات، أشعر وكأنه ينبش ذاكرته في البحث عن ما يخبرني به. ما إن يرجع له الكلام حتى ينهمك به، لا تستوقفه نقطة، ولا فاصلة. كان كَمَن يبحث عن حالة تنبُّه يشدّها، لينقذها من الغرق في زحمة السُّكْر الذي يتنامى فيه مع كل كأس جديدة يعبّها. كان كأنه نادماً، وكأنه يؤنِّب نفسه التي انطلقت، وكشفت لي عنها دون رادع. أكمَلَ قصته:
سُجنَ الرفاق، أبعِدتُ إلى هنا لأنها مشيئة أبي. اشترى حريّتي، وكان عليه أن يدفع الثمن لَمن خفَّفوا الحكم عن ابنه.
صمت فجأة، ثم قال وهو يلوِّح بأصبعه في وجهي:
اسمع يا صبي، لم يقدر أحد على إبعادي، لكنهم أبعدوا رفاقي عنّي، زجّوا بهم في السجون وأرسلوني إلى هذه الخرابة، رضختُ لحكم أبي الذي لا يحبّني، ولا أدري إن كنتُ راضياً بمنفاي، وبأني خارج السجن؟ لا أعرف، قل لي أنتَ، هل صرتُ خائناً عندما رضختُ لهذا الحكم؟
هل تفهم ما أسألك؟

مَلأَت رأسهُ زجاجة كاملة مِن عرق حداد الذهبـــي، صـــارت إغفاءة السُّكْر تسطو عليه، وقفتُ بِحَذَر، تسلَّلتُ خارجاً، وأغلقـــتُ الباب خلفي.

***

الوَديع

"وائل" الذي غاب طويلاً عن "دير الما"، وجعل "عواد" يوبِّخني لأنّهُ قَطَعَ عنه البضائع لأكثر من شهر، ودفعه مضطرّاً للاتِّصال بالموزِّعين الذين أوشَكَت صِلته بهم أن تنقطع. خرج عن طَوْره، وصبَّ لعناته على "وائل" وعلى نفسه لأنه طاوعني، وأوكل تجارته "لواحد سرسري لا يُرتجى منه خيراً".

كان جالساً على حجر صغير أمام بيتي، سلَّمت عليه، ودفعتُه للدخول أمامي وأنا معتزم أن أحطّ عليه كل غضب "عواد" الذي كظم غيظه عنّي، ولام نفسه، ولم يتفوَّه ولا بكلمة مُعاتبة واحدة لي. صرختُ بوجهه بغضب:

سوَّدتَ وجهي مع "أبو الفهد".

لم يردّ عليّ، ولم يعِر عبارتي اهتماماً، قال بحماسة:

انسَ "عواد" سوف نرضيه لاحقاً. أريدكَ في مسألة مهمّة جداً.

أنْ تكونَ صديقاً لرجل مثل "وائل" وأنتَ على نقيضِه في كل شيء، مسألة ممكنة الحدوث، فالحواجز التي تفصل بينكما تكون كثيرة، وانكشافكَ عليه ليس بالأمر السهل، أو قد يكون مستحيلاً، لأنكَ لا تملك مهما ملكتَ من فراسة أنْ تعرف أين تربضُ مكامن غضبه، ولا كيف تكونُ ردّات فعله، ولا تقلُّب مزاجه. في علاقة مثل

هذه يجب أن تعوِّد نفسك أن تكونَ مُستقبلاً لا مُرسِلاً، حتى وإن كنتَ غائباً عن وعيكَ بأثر زجاجة خمر تشربها معه، أو مُتأثراً ومتعاطفاً معه في عذاباته في الحب، لذلك لم أبدِ له تشوُّقي لمعرفة الأمر المهمّ الذي قصدني من أجله.

قرَّرنا أنا و"ندى" أن نتزوَّج.

بلا تقديم، وقبل أن يحتلّ الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه كلّما زارني، وقبل أن يشعل سيجارة، أو أن يسألني عن أخباري، ألقى بوجهي قرارهما بالزَّواج.

المُفاجأت لا تأتي فرادى، فهي في بلد مثل "دير الما" تشبه المصائب. تأمَّلتُه وأنا أحاول أن أستوعب ما يقول، لفتني أنه كان مهنداماً، لم يكن بالملابس المُهملة ذاتها التي اعتدتُ أن أراه بها، كان يرتدي ملابس جديدة نظيفة وحذاءً أنيقاً يلمع. مظهره المختلف، كفيل بأن يلفت نظر كل مَن يعرفونه بسهولة، ودون أن يضطرّ للقيام بتلك الحركات الساذجة للفت الانتباه لهذا التغيير، مثل أن ينفض أكمام القميص الذي ما تزال تنبعث منه رائحة عطرٍ ثقيل. قلتُ بعض عبارات المُجاملة، وأكَّدتُ عليه أن يحافظ على هذا التَّغيير؛ لأنّ النساء يُعجبهنَّ الرجل الأنيق. انفرَجَت أساريره، لم يجِد غير أن يعود لطبيعته، قال ضاحكاً:

مُضطرٌ، حُكم "ندى"، طَلَبَت منّي أن لا أقابل أباها دون أن أهندم.

لم أقدر على قراءة "وائل"، ولا فهْم ما يعتمر جوّاه، هل كان فرِحاً لأنه سيتزوّج أخيراً حبيبة عمره، أم إنه حزينٌ من الخيبات التي تتوالى عليه؟ لو أني أعيش تجربته، كيف كنتُ سأفكِّر، وبماذا كنتُ

سأحسّ؟ لن تتلاقى مشاعرنا، ولا ردّات أفعالنا. أنا أخاف، كنتُ خائفاً عندما غادرتُ أهلي، وخفتُ عندما التقيتُ "ربى"، وأرعبني قطاع الطريق. خفتُ من "فهد" ومِن اعترافاته، ومن لقائه، وأخاف الآن من أن أخسر عملي، أو أن يخرج "عواد" من حياتي. خوفي هو الذي ينجّيني، منه آخذ عزيمتي، وأشحذ تفكيري في آليّة الدفاع عن نفسي كلّما واجهتُ أيّ تحدٍّ، مهما كان صغيراً. هزيمة الخوف مسألة مستحيلة عند واحد مثلي، لأني مشغول دائماً بالنتائج. على عكسه، فهو عندما لا يفكّر بتبعات ما تخلّفه مغامراته، لا يشغله شيء غير أن يخوض هذه المغامرة. يملأ روحه بالجرأة ويقرّر أن يتزوّج ابنة الشيخ. يفعل ما يؤمن بأنه الصحيح، يخوض مغامرته الصّعبة دون أن يفكر بأنها قد تكون الأصعب في حياته، أكاد أجزم بأنّها كذلك. "وائل" رجل لا يخدع نفسه، ولا يتخلّى عن قناعاته لذلك لا يتحسّب لنتائج ما هو مُقدِم على عمله، ولا بما ستكون عليه ردّة فعل شيخ العشيرة.

التفكير بالنتائج هو ما يجعل الناس تجبُن. هذا ما يؤمن به. هل جعل "ندى" واحدة من ضحاياه؟ أم جعلها مثله؟ أو لربما أنه في العشق ينسلخ الحبيب عن ذاته، ويصير واحداً آخر مختلفاً؟

حكى لي تفاصيل ما جرى له في الأيام التي غابها، أخبرني بأنه ذهب لبيت الشيخ، الذي وجده مشغولاً في الحديقة بعملٍ ما، وأنه رحَّب به دون أن يرفع عينيه إليه عندما دخل وراء ابنه الذي فتح له الباب، فكّر الشيخ أنّ "وائل" قد جاءه قاصداً أن يتكفّله في مخفر الشرطة، أو أن يتصدّق عليه ببضعة دنانير.

تغيَّرَت ملامح "وائل"، واختلَفَت نبرة صوته فجأة، وكأنه تذكّر شيئاً ما أزعجه. أخذ يكيل اللعنات على الشيخ بصوتٍ خافتٍ، وكأنه يُخرج أنفاساً كانت جاثمة على صدره، قال:

هل تصِّدق؟ عندما أخبرتُه بأدب أنّي جئتُهُ طالباً يد ابنته، انفَجَرَ بالضحك أخو الـ...

لم يكمِل شتيمته، وتابع حديثه:

نادى على اسم ابنه الذي لم يكُن بعيداً عنّا، وأبلغه بسبب زيارتي وهو يضحك مثل داعرة.

مَسَحَ بكرامتي الأرض، قال إنّي سرسري، ولص، وإنّهُ يعرف عنّي كل شيء، ويعرف بأنّي مَن سرق المسلخ، قال لي هل تخيّلتَ أنّ الشرطة صدَّقَت بأنك لم تقُم بسرقة المسلخ؟ أنا مَن ستَرْتُ عليك لأني لا أريد أن أُلحق العار بعشيرتي.

عندما ذكر لي "وائل" قصّة المسلخ، زاد يقيني بأنّ الشيخ قد قبض مِن مالك المسلخ حصّة من قيمة التأمين، لذلك سجّلوا أنّ المبلغ الذي كان في الخزنة عشرون ألف دينار، فهم لو وجَّهوا الاتهام لوائل لتبيَّنَ للشرطة بالتَّحقيق معه بأنّ المبلغ لا يتجاوز الألف دينار. لقد لعب الشيخ مع صاحب المسلخ، ولربّما مع الشرطة هذه اللعبة، وأبعدوا التهمة عن أهل "دير الما"، وحمَّلوها للمجهول.

لم يكُن الوقت مناسباً لكي أشرح لوائل هذه التَّفاصيل، رغم أنّي وعدتُه بأنْ أفعل عندما تواجَهنا في المرَّة الأولى.

صرتُ أخشى عليه وأنا أرى وجهه يمتقع، ولهاثه يعلو، لم أجِد غير أن أسمع منه حتى النهاية، أكمل قائلاً:

سألني عن تحصيلي الدِّراسي، وأشار بيده إلى الآية المحفورة فوق ناصية البيت "هذا مِن فضل ربّي" وطلب منّي أن أقرأها. سألني كيف عرفتُ ابنته؟ وإنْ كنتُ أعرف مستوى تحصيلها الجامعي، ومقدار مصروفها اليومي؟

بقيتُ أستمع له وأنا أراه ينشطر أمامي إلى نصفين، أيقنتُ بأنّ "وائل" البلطجي سوف يقدِم على الخطوة التالية، لذلك لن تكون سهلة، ولا آمنة. انتظرتُ أن يُكمل، ويُعلمني كيف وصلا إلى قرار الزواج مع هذا الموقف الرافض له مِن أبيها؟ أكمَلَ جادّاً، وبصوتٍ حادّ:

لا يعنيني أمر الشيخ، أعرف بأنه سوف يرضخ في آخر الأمر، أمّها لجانبنا، مَن يغيظني، أخوها. فوجئتُ به وهو يطلب من أبيه بغضب أن يوقف هذه المَسخَرَة، أراد أن يعرف منّي كيف عرفتُ أخته؟ نظراته كانت تقدح شرَراً، وقف بمُواجهتي وسألني إنْ كنتُ ألاحق أخته؟ لم أتكلّم بشيء، فهُما لن يصدِّقا إنْ أخبرتهما بأنّنا نحبّ بعضنا، أو بأنّي أعرفها.

كان بمقدوري أن أكوِّم الرَّجُلين بضربة واحدة، لكنّي تمالكتُ أعصابي، وصرتُ أحاول تهدئة الجو الذي شحنه الولد الأرعن. قلتُ متوسِّلاً: "يا شيخ جئتُ بيتكَ مِن الباب، ولم أطلب غير ما شرعه الله، أنا واحد مِن أولادك، وأنتَ شيخنا وكبيرنا".

هدأت نبرته، توقّف قليلاً عن الكلام ليعترف بأنَّ "ندى" هي التي لقَّنَتهُ هذه العبارات.

صَرَخَ الولد بأبيه بعصبيّة، وبصوتٍ أسمَعَ كلّ مَن في البيت: "لن يغادرَ هذا البيت واقفاً على رجليه"، تأجَّج غضباً ابن الكلب،

وصار يتفلّت مِن أبيه يريدُ أن يدخل إلى البيت لإحضار المسدس. قال إنّهُ لن يقتلني أحدٌ غيره. أحكم أبوه قبضته عليه. أمَرَني بالشتائم والبصاق أنْ أخرجَ من البيت، حذّرني بأنه لو أبصَرَني في الحارة، فإنه لن يقتلني أحدٌ غيره.

حاولتُ أن أخفِّف من حالة "وائل" التي كانت تخيفني، قلتُ بهَزَلٍ سمج:

ملابس جديدة، وجهٌ حليق ناعم، وضحكةٌ عريضة، لقد أوهمتَني بأنّكَ تزوَّجتَ، تأتي لتخبرَني بأنكَ رُفضتَ، وطُردتَ مثل الكلب، وأنتَ تضحك؟ قُل لي ما هي حكايتك؟

قرَّرنا أنا و"ندى" أن نتزوّج.

أجابني على الفور، أعاد على مسامعي جملته الأولى، وأتْبَعَها: "سوف نهرب".

هل مِن الضَّروري أن يكونَ الحبُّ كذلك؟ كيف سيقدر عاشقان على مُحاربة مجتمع بأكمله؟ مِن أين لهما أن يجِدا مَن يحميهما؟ وكيف سيعتاشان؟ صديقي المُتعامي يعرف أكثر مِن كلّ أهل "دير الما" بأنّ قتله، وقتل حبيبته، قضيّة تافهة، وعاديّة، بل وإنّها واجبة هنا. كيف سمحا لنفسيهما أن يصلا إلى هذه النقطة؟ مِن أين جاءت البدايات الغريبة التي جعلتهُما عاشقَيْن؟ هل الحبّ كائن شرير؟ أم إنه هو الشيطان ذاته الذي يوسوس للناس، فيطعمهم التفاحة الحلوة، ويزوّغ أبصارهم، فلا يعودون يرون الأفعى، ولا البنادق التي تتربّص بهم، وتخرجهم من جنة العشق؟

فكَّرتُ بأن أسأله إنْ كان قد التقى بـ "ندى"، أو سمعَ عنها أخباراً بعد ذلك اللقاء؟ فلقد تضاعَفَ خوفي الآن، وصرتُ أخشى

على تلك المرأة التي لا أعرفها، زيادةً على خوفي على صـــديقي. لم أجد ما يبدِّد قلقي وخوفي عليهما، حاولتُ أن أفتِّش عن مخرجٍ تكون خسائره قليلة، فلم أجد غير بابٍ عريضٍ واحدٍ، الانفصال.

كيف أرى هذا الباب على سِعَتِه، ولا يريانه همـــا؟ إنْ كـــان مغامِراً ومنتحِراً بهذا القدر، إن كانت حياته لا تعنيه، ولا قيمة لهـــا، فماذا عنها؟ مِن أين تملَّكَتها كل هذه الجرأة؟

الحب أيضاً، ومرّة أخرى!

عجيبٌ أمرُ هذا الحب، وما يفعله بحقِّ ضحاياه.

يجب أن تفترقا.

لم أقدِّر كم تماديتُ عندما أشرتُ عليه بنصيحتي هذه، إلاّ عندما انتفَضَ، وهبَّ واقفاً، صَفَعَ الباب خلفه حتى أوشك أن يخلعه. لحقتُ به أريد أنْ أعتذر، كان بلمح البصر قد صار بعيداً، صرختُ عليه أن ينتظرني، توسَّلتُ له أن يعود، أبطأ مِن مشيتِه إلى أنْ وقـــف دون أن يلتفِتَ صَوْبـــي.

أنا طوقُ نجاتِه الوحيد، والأخير، تملَّكني هذا الشـــعور، عنـــدما صرتُ خلفه، سمعتُ حشرجة تنبعث منه، وقفتُ قبالته، نظـــرتُ في وجهِه، كان يبكي.

***

ندى أو المَوْت

هل الحب قرار واختيار؟ أم إنه فعل انعتاق النفس مِن كينونتها، ووجودها؟ أم هو تحرُّر أرواحنا من الوهم والعبث اللذان يملآنها من ساعة الميلاد؛ دخولنا إلى الدنيا؟

الصغيرة المُدلَّلة المُترفة المُتعلِّمة "ندى"، و"وائل" الجاف المنبوذ الفقير الأميّ، هل صنعا قرارهما بالعشق بكامل إدراكهما ووعيهما؟ أم إنّ العشق غيَّبهما بسحرِه الوثنيّ؟ استلبهما من إرادتهما، وساقهما إلى غياهب ظلمته المنيرة الخادعة؟ فلم يُدركا نفسيهما إلا بعد أن تقطَّعَت بهما السُّبُل، وأُغرِقَت مراكبهما، وانقشَعَ فرحهما الذي أوهمهُما بأنه خالد.

في الحب يتحرَّر الإنسان مِن كلِّه، ليسجنه محبوبه بكلِّه، يقضي العاشق مشدوهاً خلف خيالاتٍ سماويّة، قوس قزحيّة، خرافيّة، وهو يعرف بأنها مستحيلة، وأنها ليست إلا خيالاً. يظلُّ مستسلماً، راضخاً، مندفعاً إلى هذه الخيالات، متشوِّقاً، متلهِّفاً، دون أن يتوقَّف قليلاً، ليفكِّر إنْ كان يقدر أن يطولها.

هروب، أم وهم، مَن يسيِّد العشق؟

كلَّما أحكَمَ قيوده على قلوب وأرواح العاشقين، كلَّما صاروا أحراراً. هم الصّانعون، المبدعون، بمشيئتهم يبعثونه، وبرؤاهم يجمِّلونه، وبرضوخهم يغويهم.

أجمل الكائنات مَن تحبُّهُ نفسي، هو مَن هو؟ أحلى مِن البشـــر، والشجر، والمطر. هو حبيبـــي.

"ندى" البائسة الحزينة المنتحرة، لم تملك خيارهـــا. و لم يملـــك "وائل" العنيد الثائر الغاضب، قراره. قادهما الحب إلى النهاية مسرعاً، لم يشفق عليهما عندما سلّم أرواحهما للكراهية.

حزنتُ كثيراً، حتى إنّي قضيتُ الليل أبكي عندما سمعتُ خـــبر مقتله، لم يأسف كثيرون على موتِه، وإن كان لخبر مقتله وقع الصَّدمة على روّاد المقهى، لكنّها لم تعْدُ غير صدمةِ خبرِ الموت التي لا تطيـــل مكوثها مثل الموت، مضت مثلما تمضي الصَّدمات التي يتلقّاها الناس من مذيع التلفزيون عن المذابح اليوميّة الـــتي تـــدور علـــى الأرض. ترحَّموا عليه، ونسوه بلحظات، عاد كل واحد منهم لِما كان يفعله قبل أن يدخل النّاعق الصغير باب المقهى وهو يلهث لينقل الخبر.

كان متلهِّفاً، وكأنه يخشى أن يسبقهُ أحدٌ لهذا الإعلان، لم يكُن يفهم معنى ما يحمله إلى الناس، ومعنى أن يموت العاشـــق. فصَّـــلَ في شرح ما سمعه، أو ما رآه، أو ما لُقِّنه، بدا محترفاً أكثر مـــن مـــذيع التلفزيون، فلم يكُن يبتسم، بدا متأثِّراً، أو متشـــوِّقاً، أو مثـــاراً، أو مزهوّاً بما يعرفه، قال بعد أن هدأ صخبه قليلاً:

جاءت الشرطة إلى بيتِ أهلِه، وأبلغتهم أنّ "وائـــل" قُتـــل في مُشاجرة في العقبة، وأنّ عدداً من الرِّجال تحوَّطـــوا عليـــه و لم يستطِع الإفلات. طعَنَهُ أحدهم بمطوى شقَّت قلبـــه، بعـــد أن شقَّت صدره.

انتهى الولدُ مِن سردِ روايته، دون أن ندري ما أضـــاف، ومـــا غيَّب. طعنوه وشقّوا قلبه، مِن أين جاء للصغير كلّ هذا الخيال؟ هل

سمِعَ الشرطة تقول ذلك؟ أم إنّ مَن لقَّنَه الخبر صاغه بطريقته؟ هل طعنةٌ لئيمةٌ، وقاسيةٌ تشقّ الصّدر، والقلب في داخله، تُبعث من العدم؟ الحقد لا يسكن في الناس دفعة واحدة، بل هو مثل الحب، أو مثل الشَّجَر، يتنامى عبْر الزمن.

اختَصَرَ الشيخ وابنه الزَّمن، زهَّرا حقد القاتل بالدَّنانير التي لقَّموها له. أنا الذي يعرف، أنا الرجل الذي يرى. شقَّني خبر مقتل صاحبي مثلما شقَّ الخنجر صدره، انشطرتُ، لن أرجع وأتَّحِد ثانيةً مِن جديد.

فُجِعتُ بالخبر الذي كنتُ أنتظره من لحظة أن غادَرَني و"ندى" بعد منتصف ليلة البارحة، غادَراني مثلما جاءا لي، تسلُّلاً. لم أقدر على الكلام، وقفتُ بجهدٍ وعناء، لم أقدر أن أرفع يدي بالسّلام، عُدتُ إلى البيت، لم أشعل ضوءاً، ولا فتحتُ النافذة، كلّ ما كنتُ أريد أنْ أفعله، أنْ أبكي. جلستُ على السرير، مُطلقاً العنان لدموعي، أنتظرُ الخبر الدّامي الثاني.

***

الخطّة البديلة بعد قرار الشيخ برفض تزويجهما، كانت بأن تعترف "ندى" لأهلها بأنَّها تحبُّ "وائل"، وأنها تريد الزواج منه وهي عارفة بحاله ومَن يكون. لم تثنِها ردّة فعل أبيها، ولا جلْدِه لها بحزامِهِ العريض، ولا حرْق أخوتها لها بالسَّجائر، ولا حرمانها مِن مُغادرة البيت، عن قرارها.

الخطوة الثالثة كانت الانتحار.

نبَّهَني "وائل" قبيل الفجر بالطَّرْق على باب بيتي، كان يتلفَّت خائفاً، فتحتُ الباب بعد أن سألتُ: مَن هناك؟ كنتُ ما أزال أفركُ

عينيّ مُحاولاً إبعاد النوم عنهما عندما اندَفَعَ داخلاً، خلفه كانت "ندى". رأيتُها للمرّة الأولى.

"أنثى جميلة!". نُعاسي، ومفاجأتي مِن هذه الزيارة لم تبعدا عنّي هذه الرؤية. لم أصدِّق "وائل" عندما وَصَفَها لي، كنتُ أقول لحالي، هذا هو حال العاشق.

"ندى" كانت أجمل ممّا وصَفَها "وائل".

أريد أن تخبّئ "ندى" عندك.

مِنَ السَّهلِ عليّ أنْ أفسِّرَ معنى الرُّعب الذي حطّ فوقي، لكنّي لم أقدر أن أعرف إنْ كان خوفاً على حياتي إنْ كُشف الدَّوْر الذي ألعبه في هذه الملحمة، فلا أجني غير القتل أو الكشف؟ أم هو مِن خوفي عليهما وقد كانا أمامي مُرتعبَيْن وكأنّهُما فرخا حمامٍ لم ينْمُ ريشهما بعد؟ أم مِن شعوري باللاجدوى مِن كلّ ما يفعلانه؟

حاولتُ بما تبقّى لي مِن إدراك أنْ أحثّهُما على فعلٍ آخر، أسكَتاني بالقول إنَّ الفأس قد غُرزت بالرأس، وإنَّ كل شيء قد انقضى، و لم يعُد أمامهما غير الهروب.

أين المفرّ يا صديقي والأردن كلّها أصغر مِن خُرم الإبرة؟

رَفَضَ قاضي العقبة زواجهما دون إذن وليّ البنت، قرأ عليهما قانون الأحوال الشخصيّة، شرَحَهُ بالتَّفصيل، توقَّفَ عن القراءة بعد أن لاحظ أنّ العريس لا يفهم، أو ليس معنيّاً بما يسمعه. أكّد لهما القاضي بأنه ما زالت البنت بكراً، فلا يجوز لها الزواج دون موافقة وليّها، حتى وإنْ كانت بالغ عاقل.

ظلَّت "ندى" طوال الوقت عندي تبكي وترتجف، تتلفَّت حولها كلَّما سمعت عرير صرصار، أو نسمة هواء شاردة تعبُر في الطريق.

طلبْتُ منها أن تقعد على السرير، وأن تلتفّ باللحاف لكي تـــدفأ. كان فضاء الكون كئيباً، مثقلاً وكأنّ الهواء تلاشى منـــه، وأنـــواره أُطفئت إلى الأبد. أصابتني "ندى" بالعدوى، فصرتُ عند سمـــاع أيّ صوت، حتى لو كان مُنبعثاً مِن سعلة خفيفة لـِ "وائل"، أرتعش.

بعد أن رَفَضَ القاضي تزويجهما، قرَّرا اللجوء للخيار الأخـــير، وهو ما كانا يسعيان لتجنُّبه ما أمكن. قال لي بصوتٍ خافتٍ خجولٍ بأنهما نفَّذا ما خطَّطا له منذ البداية، وأنَّهُما قد أصبحا منـــذ يـــومين زوجين. شرح لي وأنا أرى صديقي يتمزَّق نَتَفاً، وكأنَّ ضربة صاعقة أصابت رأسه، دون أنْ أعرف كيف لي أن أَعينـــه في هـــذه المحنـــة القاسية.

أستأجرا شقّة مفروشة في العقبة لساعة واحـــدة، وبطريقـــة لا تشبه الحب، ولا الاغتصاب، فضَّ بكارة حبيبته، فصارت هذه آخـــر جرائمه.

تذكَّرتُ وهو يصدمني بهذه الأخبار كيف أجابَني عندما ســـألتُه إن كان لا يخاف، بأنه لا يلتفِت لعاقبة الأشياء، بل لفعلها.

أواه يا صاحبـــي هل ما زلتَ لا تخشى العاقبة؟

غادرا الشقة المستأجرة بعد أن اغتَسَلَت المُغتصَبَة "ندى"، استقلاّ تكسي، وأمام أقرب نقطة للشرطة تركها تنزل وحدها. ما أقـــدمَت "ندى" على فعله لم يكن سوى إصدار حكم الإعدام بحقّ الإنســـان الوحيد الذي تحبه، دخلت مركز الشرطة وهي متألِّمة وطلَبَت مُقابلة الضابط المسؤول.

كانا قد اتَّفَقا على ما سوف تقوله أمام ضابط المخفـــر. أخـــذ "وائل" منها عهداً أنْ لا تبدِّلَ حرفاً واحداً منه. بعد أنْ طلب منـــها

الضابط أن تهدأ، أجلسها، وأحضر لها كوبَ ماء، وطلب من معاونيه أن يتركاه وحده مع البنت.

أبتدَأت بالكلام دون أن تتوقَّف عن البكاء. سَرَدَت للضابط قصة اغتصابها، وأعطته اسم "وائل" وأوصافه. ادَّعَت بأنه قد دعاها لشرب كوب عصير، عندما التقيا مُصادفة في وسط السوق، وبأنها لم ترفض دعوته لأنها تعرفه وتعرف أهله، انتهت بأن قالت إنَّها لم تنتبه إلا وهي عارية معه، في منزلٍ لا تتذكَّر أين يقع، وبأنها قد أُغتُصبت.

ظلَّ الضابط طوال الوقت صامتاً دون أن يحاول أن يقاطعها، كان يكتُب على دفتر أمامه بعض الملاحظات. بين المصدِّق والمستهجِن للتفاصيل التي أورَدَتْها الصبيّة المُغتصَبَة، سألها إن كانت تريد أن يتَّصل بأهلها؟ توسَّلَت إليه أن لا يفعل، أخبرتهُ بأنهم لن يتوانوا عن ذبحها إنْ عرفوا بالخبر. أخبرها بأنه لا يوجد أمامه غير أن يسلِّمها لمتصرِّف المدينة، فهو مَن يحكم بمثل هذه القضايا، وبأنه سوف يُصدر أمراً بالبحث عن هذا المدعو "وائل" وإحضاره مخفوراً.

تمَّ نقل "ندى" بسيارة شرطة إلى المتصرفيّة، وهناك أعادت قصَّتها التي أبلغت بها الضابط. عندما تعرَّفَت إلى صوت "وائل" الذي كان يصرخ مِن صفعات وعصيّ رجال الشرطة، هَبَطَت إلى رجل المتصرِّف وتوسَّلَت إليه أن يأمر رجاله بالتوقُّف عن ضربه. لجَمَت الدَّهشة المتصرِّف، الذي طلب من رجاله أن يتركوا الولد وأن يحرِّروه مِن الكلبشات التي كانت تدمي معصميه.

أمام المتصرِّف اعترفا بالحقيقة، قالت "ندى" إنَّها هي صاحبة فكرة الاغتصاب لأنها تعرف أنّ القانون يُجبِر المُغتصب على الزواج

من ضحيَّته، وبأنّ ما دفعهما لذلك هو فقدانهما الأمل بـــأن يرضـــى أهلها عن زواجهما، فلم يجدا أمامهما غير هذا الحلّ.

قالت للمتصرف الفاغر فمه إنَّها تحبُّ هذا الرجل، وإنَّها لـــن تتخلّى عنه. لم تكترث لصراخ "وائل" وحلفانه بأغلظ الأيمان بأنه قد اغتَصَبَها رغماً عنها، وبأنه قد وَضَعَ لها منوِّماً في كأس العصير الذي دعاها لتشربه معه، قبل أن يسندها ويمضي بها في ســـيارة تكســـي صوب شقّة أستأجرها لهذا الغرض.

طلب منهما المتصرِّف أن يهدآ، وأمَرَ شرطي يقف أمام بـــاب مكتبه أن يساعدَ المتَّهَم بغسل الدم الذي على وجهه وملابسه. ما إن انصرف الشرطي يسوق "وائل" أمامه حتى أخرج المتصرِّف من فمـــه نفخة حارقة وقال "لندى":

أنتِ تحكمين على نفسك وعليه بالموت.

هزَّت رأسها دون أن تتكلَّم وكأنها تقول: "لا يهمّني".

لم يقبَل المتصرِّف أن يتركها تبيت في الزنزانة، طلب من "وائل" بعد أن رجع وقد اغتسل دون أن يفلح في مسح آثار الدم الذي على قميصه، بأن يمضي معه إلى بيتِه ليطمئنّ على "ندى" الـــتي ســـوف تقضي الليلة مع أسرته.

صباح اليوم الذي فاجآني فيه بعد منتصف الليل، توجَّهـــا مـــع ضابط شرطة يحمل كتاباً من المتصرِّف إلى المحكمة يطلب فيـــه بـــأن يعقد قرانهما، وأن يسجَّل زواجهما شرعيّاً.

***

الرُّجوع الأخير

حتى "عواد" رأسه، بقي متعلِّقاً بالمسافة التي تقبع بينه والأرض حتى أوشك أن يلامس التراب. خلّى عينيه الجاحظتين المتيبِّستين، سابحتين في العدم.

مثل الأطفال بكيتُ أمام صاحبي. لم يواسِني، ولم يحِطني بذراعيه، لم تُدهشْهُ دموعي، ظلَّ شارداً في غيابه، وخلاّني غارقاً بها.

تركتُه ومضيتُ إلى حيث تلك الخيمة المُتهالكة القابعة على رأس مثلث كوني، إلى الكلب الهرم وصديقه المنعزل عن عالم "دير المـا". هو مَن سيسمعني وإن لم أتكلّم. وصلتُ إليه، عرفتُ بأني قد وصلتُ متأخراً، لقد وضع الأولاد أمامه الخبز والشاي والسُكَّر والسجائر والسردين، والخَبَر الحزين.

كان هو "عواد" ذاته ذاك الذي تركتُه ورائي، كان "فهد" هو أبوه. لم أحسَب يوماً بأنّ هناك صمتاً يحطُّ على الكائنات مثل ذاك الذي يحطُّ على "فهد" في كل مرّة زرته فيها، كان اليوم أكثر صمتاً. سألتُه قبل أن أسلِّم عليه إن كان قد سمع بالخبر؟ هزَّ رأسه.

لماذا كل هذا الحزن؟ أنا وحدي مَن يجب عليه أن يحزن. هل كانوا يرونه مثلما أراه؟ ويعرفونه مثلما أعرفه؟ مِن أين جاءهم الإبصار حتى يرونه مثلي؟ عرفتُ بأننا قد ثكلناه كلّنا.

أوجَعَ "عواد" موت الشاب الذي هو يعرفه، وحزنَ "فهد" على الصغير الذي قَتَله العشق، وصُعقت أنا لِما يفعله الحب بالمحبّين.

لكلٍّ واحدٍ منّا بوّابته للدموع، ولا أحد منّا يعرف مِن أين جاءت دموع صاحبه. قضيتُ ساعات أقرأ صمت "فهد" ونكشَه التراب بعودِ الحطب، يرسم خطوطاً ودوائر، وحُفراً يطمِر فيها خطوطه ودوائره، ألاحق دوائره فلا أدركها، أحاول قراءتها، يَصدُمني العمى. لا أعرف ماذا بودِّه أن يقول؟ و لم يسألني أنْ أقولَ أنا.

لا اختلاف، ولا كلام، ولا كأس شاي ثقيل. تركتُه ومضيتُ إلى حيث الرُّجوع الأخير، المنقضي نحو اللاجدوى. رجعتُ إلى "دير الما" دون أن أعبُر على الاستراحة، قطعتُ طريقاً قصيّاً، اخترقتُ "دير الما"، سلَّمتُ على "وديع" وهو يمضي لإثبات وجوده في مركز الشرطة. اجتزتُ مقهاه المُتلهية في الوَرَق والأراجيل والصَّخَب، سمعتُ من الحظائر ثغاء البقر، ومأمأة الخراف، ونقنقة الدجاج المهيَّأ للذَّبْح. أفزعني نباح كلاب هائمة خلف رائحة الدم. بقيتُ ماشياً على غير هدى حتى فزّ أمام وجهي بيتُ الشيخ القاتل. أضواؤه كانت تنير المكان كالعادة، لا حياة في المكان.

– ما الذي تفعلينه يا صغيرتي الآن في هذا البيت الغريب؟

***

الوَجْد

أيُّ غَمٍّ نَزَلَ بـــي، سكنَني وحطَّ رحاله على روحي، اســـتلَّني من حالة الرِّضى التي أوشكتُ أطولها، ورمى بـــي إلى اليأس؟ لهيبٌ اشتَعَلَ في نفسي أحرَقَني، وجعَلَني رماداً. ألمٌ أبغض من القتـــل هـــذا الذي أحسُّه. أين المفرّ؟ أين أمضي وقد سُدَّت في وجهـــي السُّـــبُل؟ عالمي الثالوثي الصغير المتضائل؛ استراحة صاحبـــي، "ديـــر المـــا"، وخيمة التائه. ثالوثي الصغير أحكَمَ قبضَتَهُ علـــى عنقـــي، واجتَـــثَّ أنفاسي. هذا الكون الواسع يا إلهي ما أضيقه.

أنتِ، أيا أنتِ، أيتُها الـــ "ندى" الـــتي لم يتركـــوكِ لتكـــبري وتصيري نقطة، بالله عليكِ قولي لي هل قتلوكِ؟ أم إنّ دم "وائل" أطفأ ظمأهم؟

وأنتَ يا صاحبـــي، أيها المتشرِّد التائه القتيل أين ذهبتَ؟ كيف غِبتَ وتركتَ نَداكَ للجفاف.

أيها العالَم الذي أسَرَني من لحظة أن جئتُ إليه، لماذا تسرق منّي كل ما أُحبّ، أين تذهب بهم؟ دجَّنتَني، ســـلبتَني منّـــي، لتســـلِّمَني للخواء؟

"رُبى" أيا سيدتي الجميلة الساحرة الفاتنة، هل ضعتِ مثلي أم أنّـــي أضعتُكِ؟ هل كنتُ "وائلكِ" الذي شطركِ؟ غفرانكِ يا سيدتي غفرانك.

بقيتُ أمضى بالمَسير، لا أحمل في رأسي غير الفـــراغ، دخلـــتُ العتمة، خلَّفتُ ورائي البيوت، والطُّرُقات، والأضواء الخادعة. طُـــرُقٌ وعرة، أصواتُ ذئابٍ تعلو، وعتمةٌ دامسة.

وحدي أمشي، لا طريق أمامي، ولا شاخصة تـــدلّني إلى أيـــن أمضي؟

- النِّهاية -

عمّان – 27 ك1/ ديسمبر 2016

نزف الطائر الصغير

قاسم توفيق

■ روائي من الأردن.

عندما سَرَقَ الرِّجال سيارتي وكل ما فيها وجرَّدوني من النُّقود التي أحملها إلا من بضع قروش كانت في جيبي رموا لي قبل أن ينطلقوا مبتعدين بالسيارات الثلاث هويَّتي ورخصة القيادة وكأنهم يقولون إنَّهم لا يريدون أن أموت غريباً. القروش القليلة التي أحملها لم تكن كافية لتأمين طريق العودة إلى البيت. أخذوا منيّ بطاقات الفيزا والأرقام السريّة ألتي لقَّنتُها لأحدهم وكتبها على موبايله، وهو يتوعَّدني بأنها إن لم تكن صحيحة فسوف يعرف كيف يصل إليّ. أكّدتُ له مستسلماً بأنها صحيحة، وأعلمتُه بأرصدة حسابي البنكي، لم أكن معنيّاً بغير أن ينتهي هذا الكابوس.

انطلقوا بالسيارات الثلاث وتركوني لأفرح بالنجاة. وقفتُ وأنا أضغط بعنق البلوزة التي ألبسها على موضع الجرح الذي بدأ نزفه يخفّ، مشيتُ إلى الطريق العام، وجَّهتُ وجهي صوب الشمال ومضيتُ دون أن أنظر خلفي أو أن أفكر بالتّأشير لأيّ سيارة أو شاحنة عابرة، ولم أدِر عنقي صوب أولئك خاليي الذهن الذين نبّهوني بأبواق سياراتهم وكأنهم يسألونني المُساعدة؟

كلما تُلبست بالأسى والألم وأوشكت أن أبكي من حجم الغضب الذي في داخلي كنتُ أركل الحجارة والتراب التي تعيق مسيري، لعنتُ كل ما هو مُقدّس وغير مُقدّس، لعنتُ أهلي و«سارة» و«رُبى»، ولعنتُ نفسي لأني لا أعدو سوى كائنٍ تافه، جاهل لا يعرف شيئاً عن معنى الحياة.

ISBN: 978-614-02-1525-2

9786140215252

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

مكتبة كل شيء
e-mail: info@kul-shee.com
www.kul-shee.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com